# المغامرة الاسرائيلية في افريقيا

# المغامرة الاسرائيلية في أفريقيا

## ذكريات... وتجارب... ودراسات

بقلم
كامل الشريف
سفير الأردن في نايجيريا سابقاً



منشورات العصر الحديث

# الإهداء

إلى ذكرى المجاهد أحمدو بللو « سردونا سوكوتا » شهيد الإسلام ، ورمز المقاومـــة الافريقية الباسلة ضد إسرائيل .

**كامل الشريف**

بسم الله الرحمن الرحيم

# تقديم

في أواخر الخمسينات قمت بزيارة واسعة للأقطار الافريقية نيابة عن المؤتمر الاسلامي العـــام بالقدس ، الذي جعل من غاياته التعريف بالقضية الفلسطينيــة والخطر الاسرائيلي بين الشعوب الاسلامية والصديقة ، ثم تكررت زياراتي بعد ذلك بمهام مختلفة رسمية وشعبية ، وقـد أتيح لي أن أشهد تقلبات عديدة في القطر الواحد ، خلال عقد من الزمن ، وأن أجتمع مع العديد من الرجـال الذين صنعوا الحوادث لبعض الوقت قبل أن تعصف بهم أحداث جديدة لم تكن في الحسبان .

ومع أن البراكين الافريقية ـ فيما يبدو ـ لم تلفظ بعد

كل ما فيها من الصواعق والحمم ولا يزال هناك مجال واسع للتبدلات ، مما يجعل الحكم على الأوضاع الراهنة محفوفاً باحتمالات الخطأ والتسرع ، إلا أن النظرة الخلفية لجانب محدود من الحوادث – وهي التي يتعرض لها هذا البحث – يمكن أن تعين على فهم المواقف والأشخاص ، في مرحلة زمنية معينة ، وقد تلقي بعض الضوء على التطورات المرتقبة في خطوطها العامة .

ولا أظنني أعيش حالة خاصة حين أقول أن كل اتصال بافريقيا كان يزيدني التصاقاً بها ومحبة لها ، فذلك شعور عبر عنه كل من أتيح له أن ينفذ إلى قلب القارة الغامضة وأن تسمح له استعداداته الخاصة أن يخترق قشرتها الجافة الغليظة ليصل منها إلى مواطن الخير ومواضع الجمال .

في افريقيا يخيل إليك حين تحزم حقائبك للرحيل أن شيئاً ما يتراءى لك وراء الغاب والنهر ويلوح لك بيديه لتعود ، ويخيل لك أن السحر الغامض الذي أدركت شيئاً من أسراره يعدك دائماً بالمزيد في رحلة قادمة ، وكذلك تسلمك كل جولة إلى أختها ولما يزل للسر بقية وللجمال زيادة لمستزيد .

وفي عام ١٩٦١ تسلمت أول مهمة دبلوماسية لي في لاجوس استمرت قرابة ست سنوات ، غير أن عدم وجود

سفارات أخرى للأردن فيما يعرف بافريقيا (جنوب الصحراء) جعل مهمتي تتسع لتغطي من الناحية الواقعية القارة كلها ، ولما كانت السنوات الأربع الأولى من هذا العقد هي - بحق - كما وصفها داج همرشولد سكرتير الأمم المتحدة الراحل ، أعوام افريقيا الجديدة ، فقد وجدتني أحضر حفلات إعلان الاستقلال في أكثر الأقطار ، وأشهد قيام كيانات دولية حديثة في ظروف غير عادية ، وكان من الصور المألوفة أن نصحو في منتصف الليل لنشهد ذروة الاحتفال ، حين يلتقي ممثل ملكة بريطانيا أو مندوب رئيس الجمهورية الفرنسية مع رئيس الدولة الافريقية الجديدة حول سارية العلم ليشهدوا هبوط الراية القديمة وارتفاع راية الاستقلال ، بين تصفيق الجماهير وعزف الأناشيد القومية للبلدين ، وكثيراً ما كانت تتقلص المهرجانات في نظري إلى حقيقتها البسيطة فأرى - بعين الخيال - صورة اليافع اليتيم يتسلم وثائق الملكية ازرعة واسعة معقدة ، ويترك وحده ليواجه مشاكلها المزمنة ا لديه من الخبرة أو الحظ .

ولقد اكتسبت تلك الصورة شكلها الدرامي ذات يوم ين انزلقت قدما رئيس الجمهورية المسن في إحدى البلدان ، هو يهم بصعود المنصة ليلقي كلمته وهرع مرافقوه لرفعه على دميه ، وقد رأى فيها بعض الحاضرين فألاً سيئاً تحقق بعد

ذلك ، حين حاز ذلك البلد على أعلى نسبة في الانقلابات العسكرية .

وكثيراً ما يطيب لي الآن أن أسترجع بعد مضي عشر سنوات شريط الحوادث الهادر الذي يبدأ عادة بتلك الأحفال الصاخبة ، وأرى فيه رجالاً تحملهم الجماهير على الأكف ، وتطلق عليهم ما تصنعه القريحة الافريقية الخصبة من ألقاب التمجيد والإطراء التي تلتقي مع الطبيعة العربية في عجزها عن الوقوف عند النقطة الوسط بين البطل العظيم والخائن العميل ، بين المنقذ الخالد والدكتاتور الطاغية ، ثم أسترجع وعوداً جميلة خلابة لتحقيق الديمقراطية والعدل ، أو مشاريع طموحة تلتقي فيها المثالية بالأوهام لإقامة الوحدة الاقليمية أو العامة ، حين أذكر ذلك ، وأذكر معه انهيار الأشخاص واحداً بعد الآخر ، وتهاوي المباديء إلى نقيضها بفعل الواقع أحياناً ، وضعف الانسان أمام المغريات في أكثر الأحيان ، تبدو تلك الفجوة القاتلة بين الأمل والحقيقة ، وبين الطموح والممكنات ، وهي فجوة لا ترحم أولئك الذين يحومون حولها بحماس واندفاع وليس في أيديهم ذلك الميزان الحساس الذي يقدم لهم مزيجاً متوازناً بين الوعود التي تقال لاكتساب الجماهير ، وبين القدرة الحقيقية على تنفيذها .

على أن هذه الملاحظات العامة تبقى جانبية حين أذكر أن مما أغراني على الذهاب والاستقرار تلك الفترة هو أن أجيب

بنفسي على أسئلة تولدت من الاتصال الأول وبقيت تستحوذ على التفكير، وهي تتعلق بالوجود العربي الاسلامي في أفريقيا، والعوامل السلبية والايجابية التي تحيط به .

هـذا الوجود العجيب الذي بدأ بمعجزة وصمد تحت الأعاصير العاتية بمعجزة ، وهو يستجمع الآن أطرافـه ، ويحاول النهوض من جديد .

وجود ترى ملامحـه في المدن الكبرى في مساجدها ومدارسها ومنتدياتها ، كما تراه في صميم الغـابة حيث يتحلق الصبية أشباه العراة حول شيخهم يقرأون القرآن بلكنـات لا تكاد تكون مفهومة .

وحين تمعن النظر في هذه الظواهر تحس فعلاً أن كل شيء تراه أمامك هو دليل على قوة الإعصار الذي اكتسح هـذه القارة ، واستمر يدوي فيهـا عشرات السنين ، عاملاً يد التشويه والتبديل في الكيانات والعقائد والشعوب . تجد ذلك في الأسماء المسيحية يحملها قوم مسلمون، وفي الأزياء الأوروبية الغليظة الضيقة التي لا تنسجم مـع دواعي المناخ أو ظروف البيئة ، وفي التقاليد الأجنبية التي لا يربطها بالواقع المحلي أي رباط ، ولكن تحس بالرغم من ذلك أن قوى غير مرئيـة تتحرك لتعيد كل شيء إلى مكانـه كما تعود أغصان شجرة

السنديان إلى استقامتها بعد أن تقوست أمام عواصف (الهرمتان) القادمة من جوف الصحراء .

أو كما يقول الشاعر النايجيري ليون داماس :

كم أود أن أسترد شجاعتي وجرأتي
لأشعر نفسي أنني خلق جديـــد
ينبعث من ذلك الإنسان القديم
الذي كان هنا بالأمس
بالأمس الغـــابر
قبل أن تبـــدأ حملة الاستئصال !

ولسنا نجد في وصف الحيرة التي يعانيهـــا الأفريقي بين أشواق القـــديم ومغريات الجديد أعمق من الأحاسيس التي تصورها كلمات الشاعر الغاني ديي - أنانج :

ها نحن نقف
نتردد بين حضارتين
للوراء ؟ لأيام الطبول ؟
ورقصات الأعياد في ظلال الأشجار .
أم للأمام ؟ حيث الأحياء المكتظة القذرة
وحيث الانسان يتكدس فوق الانسان

والمصنع اللعين يسحق ساعات العمر
في طاحونة لا ترحم
وفي نوبات طويلة ليس لها نهاية (١) .

وهذه المحاولات الرامية لتثبيت الشخصية الافريقية تصطدم الآن بمحاولات مضادة لعرقلتها أو تشويهها ، حتى تأتي الشخصية الجديدة وليس فيها من الأصالة إلا الأصباغ والألوان ، وهذه التيارات والتيارات المضادة تأخذ شكل معركة حقيقية تستخدم فيها كل الأساليب والوسائل وهي جديرة أن تظفر من العرب بأقصى درجات الاهتمام والعناية .

وقصة الوجود الإسلامي في أفريقيا من جوانبها التاريخية والاجتماعية والاقتصادية تلقى من الغرب قديماً وحديثاً عناية كبيرة،ويتناولها المتخصصون درساً وتمحيصاً ليفهموا مايحيطها من عوامل القوة وجوانب الضعف ، وليعينوا صناع السياسة واقطاب الاقتصاد على وضع الخطط التي تحقق الحد الأعلى من الفائدة ، وتحتاط لمفاجآت المستقبل البعيد . ومن الممتع للمرء ان يتابع عشرات المؤتمرات التي تنعقد تحت عناوين مختلفة في أفريقيا حول هذا الموضوع ويحضرها الأساتذة والعلماء من اقطار اوروبية مختلفة – ليس معها الأقطار العربية بطبيعة

---

(١) جمع كولين ليجوم Africa a handbook : Colin Legum

الحال – لمراقبة التبدلات القائمة والمتوقعة ، كما يراقب علماء الطبيعة توالد البكتيريا والطفيليات داخل انابيب المختبرات !

ومع أن هذه المؤتمرات تقدم للحقيقة العلمية فائدة كبيرة – دون شك – كما أن كثيراً من الموضوعات التي تدرس فيها تتميز بالنظرة الموضوعية ، إلا أن الكثير منها تطغى عليها الأهواء والأحقاد ، كما أن نتائجها العامة تكون – بقصد أو غير قصد – مرجعاً لأولئك الذين يرسمون المشاريع الواسعة لتعطيل التيارات والإبقاء على الاستغلال بصورة أو أخرى .

ومن الواضح أن المؤسسات العلمية العربية لم تدخل هذه الساحة بالصورة التي تتفق مع أهميتها ، وبودنا أن نسمع عن مؤتمرات فنية أو ندوات علمية تناقش جوانب القضية المختلفة بعمق وتمحيص ، وتضع أمام القادة والمسؤولين نتائج تجارب تقوم على الدراسة الواقعية ، حتى لا تكون سياستنا الأفريقية مجرد تشنجات يحركها الغضب والانفعال ، وكثيراً ما تكون لسطحيتها وعفويتها حجة جديدة للأعداء المتربصين بالمصلحة العربية الاسلامية .

وثمة سؤال آخر طالما طرحته على نفسي ، وهو فرع للسؤال الكبير الأول ، ويتعلق بالغارة الاسرائيلية المندفعة في أفريقيا كالحريق الذي يندلع في الغابات الهشة في أشهر الجفاف. هذه الظاهرة الطفيلية الغريبة التي جاءت تتحدى حقائق ألف سنة

أو تزيد وتكاد تنجح في ذلك ، ما هي ؟ وما أهدافها ؟ ومن وراءها ؟ وفي محاولة الإجابة على هذا السؤال يجد الإنسان نفسه في أكثر من منحنى أمام المؤامرة العاتية التي خطط لها من قرون لضرب العرب والمسلمين ، وضرب الشعوب الضعيفة عموماً ، التي وضعتها الظروف على أرض الكنوز والثروات دون أن تكون لديها القدرة لاستغلالها أو الدفاع عنها أمام الطامعين .

تلك المؤامرة التي تتخذ لنفسها أشكالاً مختلفة في كل قطر ، تظهر سافرة في أفريقيا فلا يخطؤها البصر . ربما بسبب الشعور بالتفوق الكاسح في موازين القوى والاستعداد ، الذي يغري صاحبه بالتخلي عن التحوط والاحتراس ، وربما لأن الفوائد والمزايا التي تدور حولها المعركة من الضخامة لدرجة تدفع للمغامرة والتحدي دون تردد أو استحياء ، وربما لسبب أبسط من ذلك كله ، هو أن الطبيعة الأفريقية ذات الشمس الساطعة والسماء الصافية ، تحدث أثرها في كل شيء وكل إنسان ، وتغري حتى أولئك الذين يعملون في الظلام أن يتحللوا من الأقنعة والقيود ويعرضوا انفسهم لاشعة الدفء ولمسات العافية ، لا أدري ، ولكن الذي أعرفه هو أنه لا يوجد في العالم الاسلامي كله مكان يجد الانسان فيه نفسه وجهاً لوجه أمام القوى المعادية النشطة كما هو الحال في هذا المكان .

والنتيجة التي ينتهي إليها المرء هي ان إسرائيل جزء من

هذه المؤامرة الشاملة ، وشريك نشط من أركانها الكبيرة ، أريد لها في هذه المرحلة أن تملأ فراغاً لم يعد بوسع الأجهزة والأساليب القديمة أن تملأه ، وكانت اسرائيل - كالعهد باليهود دائماً - مستعدة لركوب الموجة المتاحة ، والاستفادة من كل الظروف والتناقضات .

ولا جدال أن في قمة العقد التي تستثمرها اسرائيل اليوم ذلك الصراع الناشب بين المسيحية والإسلام ، في منطقة هي أكثر مناطق العالم إيواء للوثنيين الذين لا ينتمون لأي من الديانتين الكبيرتين ، مما يغري ببذل جهود خاصة للدعوة والتبشير ، ومما يؤجج التنافس المحتدم تاريخ طويل من العلاقات التي لم تكن كلها أمثلة على التفاهم والنوايا الطيبة ، وهذه العقدة التي كثيراً ما نحرص على عدم الخوض فيها لما تثيره من الحساسيات تكمن في قاع المشكلة ، ولا نغالي إذا قلنا إنها أسهمت إسهاماً رئيسياً في التمهيد للغارة الصهيونية التي وثبت على فلسطين ، وليس غرضنا من إثارتها هو نبش الجراح أو الدخول في حملات جديدة من التجريح والاتهام ، ولكن لنضع المشكلة في إطارها الحقيقي ، وأن ندعو لمسعى جادٍ يقوم على محاولة اكتشاف مناطق اللقاء - لا الجفاء - بين الديانتين الكبيرتين ، والبحث في وسائل التعاون لتمكين الايمان وإسعاد الإنسان ، بدل مواصلة صراع عقيم تؤججه اليهودية العالمية لتستفيد منه في تصفية حساب قديم مع الجانبين ، ومما يبعث

على الأمل أن نرى بعض البوادر الحسنة تلوح في الأفق مما يمكن أن تكون مؤشرات للمستقبل إذا دعمتها النيات الطيبة والجهود الخالصة من الفريقين .

**هذا البحث :**

تتناول الصفحات القادمة ركناً واحداً من أركان قضية كبيرة متشعبة ، ونعني به التسرب الاسرائيلي في أفريقيا ، وقد حرصنا على أن نستقصي هذا الجانب وحده ، بحيث لا نتعرض للجوانب الأخرى - على أهميتها - إلا بالقدر الضروري الذي يحدد إطار البحث ، ومع تقديرنا الكامل للارتباط الوثيق بينها إلا أن ضيق الوقت وطبيعة المشكلة تحتم هذا التحديد ، ونرجو أن يتاح لنا في المستقبل التعرض للجوانب الأخرى بتفصيل أكبر .

على أنني أعترف - بين يدي البحث - أن الكتابة عن النشاط الاسرائيلي محفوفة بالكثير من الصعوبات بسبب طبيعة السرية التي تحيط بتفاصيل هذا النشاط ، واختلاف أشكاله ومجالاته بين قطر وآخر ، مما فرض علينا أن نُركز على الخطوط والمبادىء العامة التي تحكم هذه الحملة دون التعرض إلا للضروري من التفاصيل الخاصة ، وغايتنا من البحث كله هو أن نسهم - ولو بقدر متواضع - في رسم أبعاد المشكلة كما بدت لنا فلعل ذلك يثير الطموح لدى من كانوا أكثر قدرة وأقوى

استعداداً لمواصلة البحث والتغلغل في أعماقه ، وإذا كانت الصورة التي حاولنا إبرازها في هذه الصفحات ستبدو في نظر البعض ناقصة أو غير دقيقة ، فذلك هو المتوقع في معـالجة قضية متعددة الجوانب من هذا العيار ، وحسبنا أننا طرحنا الأسئلة الملحة التي باتت تنتظر الأجوبة، وهو جهد يفوق قطعا طاقة أي فرد ، ويبقى في انتظـار جهود دؤوبة مستمرة ، تقوم عليها مؤسسات وحكومات .

وهمنا بعد ذلك كله هو الاسهام في خدمة أمتنا وحمـاية عقيدتنا، ورأب ما انقطع من الوشائج مع منطقة هامة تتوثب لتأخذ مكانها الجدير بها بين الأمم .

ولئن فاتنا تمام النجاح الذي أردناه ، فنرجو ألا يفوتنا ثواب النية الحسنة والسعي الخـّير ، ورائدنا في ذلك قول رب العزة: (إن أريدُ إلاّ الإصلاحَ مااستطعتُ وَمَا تَوفِيقِي إلاّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوكَلْتُ وإليهِ أُنيبُ ) .

**المؤلف**

# الخلفية التاريخية للمغامرة

# آراء إسرائيلية في النكسة

تعاني السياسة الاسرائيلية في أفريقيا نكسة كبيرة هذه الأيام ، وهو تطور سياسي بالغ الأهمية ليس على دائرة الصراع العربي – الاسرائيلي التي تتسع وتخرج تدريجياً عن نطاقها المحلي فحسب ، ولكن بالنسبة للقارة الافريقية نفسها التي تتعرض لتجارب مختلفة وهي تحاول أن تتخلص من بقايا الاستعمار القديم دون أن تقع في فخاخ الاستعمار الجديد بأشكاله المختلفة وفي مقدمتها اسرائيل ، التي تتحرك بأسلوب ذكي وفي مناخ لا يزال مواتياً لنشاطها في دول كثيرة مما سنتعرض له تفصيلاً.

إن هذه النكسة تحظى بالكثير من الاهتمام في عواصم العالم وتعلق عليها كبريات الصحف بما يتفق مع نظرتها لطبيعة المعركة ، ونوع المصالح التي تمثلها ، على أن من الواضح أن هناك حالة من الهلع تستولي على اسرائيل ومجموعة الدول ذات المصالح الاستعمارية لهذا التحول المفاجيء الذي جاء مناقضاً لكل الخطط والحسابات التي تصوروا أنها ستحكم القارة البكر وتتحكم في اتجاهاتها لعقود طويلة من الزمن ، وهذا الاهتمام

الشامل هو الذي يدفعني لنشر بعض ذكرياتي عن هذا الموضوع وهي ذكريات تقوم على المتابعة الشخصية مصحوبة بالاطلاع على الكثير مما كتب فيها في الماضي والحاضر .

لقد طالما سمعنا عن ( المعجزة ) الاسرائيلية في أفريقيا ، كما حاولت الأجهزة الاستعمارية أن تقدمها للعالم وخصوصاً الدول المتخلفة التي تسمى تأدباً بالدول النامية وكأنها تدعوها لتأخذ نصيبها من هذا الخير المتاح لوجه الله والانسانية المعذبة !

لقد قطعت ثمانية * دول افريقية علاقاتها مع اسرائيل وهي غينيا والنايجر والكونجو ويوغندا ومالي وتشاد وبورندي وهناك دلائل على أن دولاً أخرى تسير في نفس الطريق إلا أن من الحقائق الثابتة انه لاتزال لاسرائيل علاقات مع خمس وعشرين دولة افريقية وهو تمثيل واسع لا يتناسب مع حجم الدولة اليهودية وممكناتها المالية مما يحسدها عليه بعض الدول الكبرى والمتوسطة .

ومع أن النجاح الذي أحرزته القوى الوطنية في أفريقيا ضد التسرب الاسرائيلي يشكل – في حد ذاته – ظاهرة عظيمة الأهمية تستحق الدراسة والاهتمام من جانب الدول

---

* في الفترة الأخيرة قطعت جميع دول افريقية علاقاتها مع اسرائيل ما عدا الدول العنصرية . ( الناشر )

والمؤسسات العربية لاستخلاص الدروس بغية المتابعة والاستزادة من العوامل التي حققت هذا التحول ، إلا أن من الضروري أيضاً معرفة رد الفعل لدى العدو ورصد تحركاته الجديدة لأن تجارب المجابهة العربية - الاسرائيلية ولا سيما على الصعيد السياسي تعلمنا أن اسرائيل كثيراً ما تحني رأسها للعاصفة وتجاري التيارات المضادة في انتظار ( كبوات ) قد يقع فيها الغريم لتستفيد منها وتقف على أقدامها من جديد .

لقد لفت نظري بشكل خاص وأنا أتابع ردود الفعل الاسرائيلية ما نقله أكثر من معلق سياسي على لسان المسؤولين الاسرائيليين وآخرهم بول جونسكي وهو معروف بمقالاته الموالية للصهيونية حيث يقول في عدد حديث من جريدة ليموند ديبلوماتيك (١) : ( ان اسرائيل تدرس بعناية التحركات العربية ، فمثلاً اقدام العقيد القذافي على ارسال جنوده واسلحته إلى يوغندا في سبتمبر الماضي لمساعدة ( أخيه المسلم ) ضد تانزانيا وزعيمها المسيحي نيريري ، سيثير قلق الدول ذات الزعامات المسيحية التي لها حدود ومشاكل مع الدول الاسلامية ) ، ويختتم الكاتب تعليقاته وانطباعاته بالقول : ( في القدس يعلقون آمالاً كبيرة على (أخطاء) من هذا النوع حتى يتمكنوا من تغيير الرياح لصالحهم مرة أخرى ) ، ويدخل في التصرفات

---

(١) Paul Giniewski : Le Monde Diplomatiqu Mars 1973.

التي يخيل إليّ أن اسرائيل تعتبرها من هذه الاخطاء قرار مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية الذي انعقد في طرابلس مؤخراً بدعم ثورة ارتريا ضد سلطة الحبشة ، ولقد كنت أتمنى لو اتخذ هذا التأييد طابعاً آخر يجمع بين السرية والتأييد العملي الواسع ذلك لأن من الخطر أن يأخذ الصراع الاسرائيلي-العربي طابعاً دينياً وان يصبح وكأنه معركة مسيحية — اسلامية لأن ذلك هو ما تريده اسرائيل بالضبط ، ومع تأييدنا غير المتحفظ لحركة التحرير الارترية وحق شعبها في تقرير مصيره ، إلا أن النظرة الشاملة للموقف تستدعي مواقف أكثر دقة لاسيما وان أكثر الدول الافريقية لديها مشاكل مشابهة ولا نظنها تنظر بارتياح لسياسة عربية تعتمد التدخل المكشوف فيما تعتبره من شؤونها الداخلية ، بصرف النظر عن رأينا نحن في طبيعة تلك المشاكل .

وقد تختلف الآراء في هذه التحركات العربية غير أن ما يهمني التنبيه إليه هو ان المؤشرات المنبعثة من القدس توحي بأن اسرائيل ستحاول إلباس هذه الاتجاهات ثوباً دينياً تعصبياً ، لطمس دوافعها السياسية الحقيقية لعلها تصل من وراء ذلك إلى شق الوحدة الافريقية والتعمق في بلاد معينة ، باعتبار أن كسب البعض بصورة دائمة وعميقة خير من الصداقات السطحية المزعزعة ، وذلك يفسر قول مرجع اسرائيلي كبير

« ان المعونة لأفريقيا يجب أن تكون قائمة منذ الآن على اساس الدقة وحسن الاختيار » .

## التخويف من العروبة :

على أن محاولة الدعاية الاسرائيلية وضع التقارب بين العرب والدول الافريقية في إطار مشوه لعبة قديمة بالية استهدفت دائماً إقامة حواجز من الشكوك والكراهية ، وهي لعبة لبست لكل حال لبوسها ، وقابلت كل موقف بما يصلح له من أساليب الخداع والتمويه ، فأحياناً تصور هذا التقارب على أنه تعصب ديني مزعوم يعمل على التمكين للاسلام على حساب الأديان الأخرى ، وتارة محاولة لاستدراج الدول الافريقية للدخول في دائرة العروبة أو ما يسمونه (Panarabism) ، ولا زلت أذكر تلك المناقشة الحامية التي دارت في البرلمان النايجيري عام ١٩٦٥ حول هذا الموضوع حين تحدث نواب من الاقليمين الشرقي والغربي معروفين بصلاتهم بالسفارة الاسرائيلية في لاغوس لحث الحكومة النايجيرية على افتتاح سفارة لها في تل أبيب ، ويهمني إيراد بعض ملاحظات النواب التي تعين على الكشف عن خطوط الدعاية الاسرائيلية فقد جاء في المحضر الرسمي رقم ( ١٨ ) للبرلمان بتاريخ ٢٦ / ٤ / ١٩٦٥ على لسان السيد ( آميكار آجو ) ممثل أنوجو في البرلمان الفيدرالي ( أرى من الملائم أن ألفت نظر

رئيس الوزراء بوصفه وزيراً للخارجيـة إلى شذوذ واضح في تمثيلنا الدبلوماسي في الخارج وأعني به إسقاط اسرائيل من هذا التمثيل .. ويبدو لي أن موقفنا يدخلنا في نطاق الفكرة العربية ولا يتفق مع سياستنا القائمة على الحياد ) .

ولقد جاء أيضاً في ذلك التقرير قول الدكتور (ميجباروني) من ابادان : ( انني أناشد رئيس الوزراء أن يقوي تمثيلنـا الدبلوماسي مـع اسرائيل ، إن تلك الدولة قد قدمت لنا مساعدات فنية ومالية قيمة ولذلك فإنني أعتبر إنشاء سفارة لنا فيها ضرورة ملحة وعاجلة ) ، مما دفع وزير المواصلات الشمالي ( دبشاريما ) ليقف للرد نيابة عن الحكومة ومما قاله في ذلك الحين : إن ألمانيا الغربية ودولاً أوروبيـة أخرى لا تعترف باسرائيل ولا يتهمها أحد بأنها أعضاء في الجامعـة العربية !!

هذا عن تهمة العروبة والتعريب أما عن تهمة فرض الاسلام فالحديث فيها يطول وقد نعود إليه بعد قليل غير أنني أذكر أن محطة تلفزيون ( ابادان ) كانت قد منحت سفير اسرائيل في فبراير عام ١٩٦٤ مقابلة عرض فيها وجهة نظره ، وحين طلبت وقتاً مماثلاً للرد على كلمته كانت إحدى النقـاط التي أثيرت فيما يلي : هل حقيقة تحاول الدول العربية فرض دول اسلامية على القارة الافريقية ؟ ومع أنني أوضحت ما في هذا

الاتهام من زيف وسوء نيـة إلا أن هذه التهمـة بقيت مادة للصحف ووسائل الاعلام تلوكها في كل مناسبة .

## ( الصهينة ) الاسرائيلية :

يذكرني الحديث عن المرونـة الاسرائيليـة أو ما يمكن تسميته (بالصفاقة) أو ( الصهينة ) – وهي ليست من مشتقات الصهيونية لفظـاً وإن كانت من ملامح الدبلومـاسية اليهودية حقيقة وواقعاً – يذكرني ذلك بزيارة قمت بهـا إلى جمهورية غينيا في منتصف عام ١٩٦١ ، وفي حديث مطول مع الرئيس أحمد سيكوتوري بحضور الصـديق شريف النبهاني مستشاره القدير ، تطرق البحث إلى دور إسرائيل في أفريقيا ، وقال الرئيس : لقد ورثنا سفارة اسرائيل هنـا في كوناكري من الاستعمار القديم ، وتقضي سمعتنا الدوليـة وعلاقـاتنا بالدول الافريقية الشقيقـة مع أسباب أخرى ألا نبـادر من ناحيتنا بقطع علاقاتنا معها ، إلا أننا لا ندع أي فرصة دون أن نستثيرهم ليغضبوا ويخرجوا بارادتهم ، ولكن يبدو أن هؤلاء ( الشياطين ) يعلمون غرضنا ولذلك ( يضعون أعصـابهم في ثلاجة ) ويتجاهلون كل إهانة ، ثم قال الرئيس سيكوتوري : حين رجعت من مؤتمر الدار البيضـاء في يناير المـاضي قدم السفير الاسرائيلي للخارجية مذكرة استفسارية عن موقفنـا في المؤتمر وموافقتنا على القرار الذي صدر عنه باعتبار اسرائيل

شكلاً من أشكال الاستعمار الحديث ، ثم طلب السفير مقابلتي للغرض ذاته فأبلغته : إنه إذا أصر على البحث في هذا الموضوع معي ، فسأقابله مودعاً !! ، وهي إشارة لا تخفى ، فلم يلح على المقابلة وطوى الموضوع .

وفي زيارة لوزير الخارجية الغيني في ذلك الحين قال لي الوزير : تصور أننا قاطعنا السفير الاسرائيلي تماماً حتى أننا نتجاهله في كثير من المناسبات الرسمية لعله يغضب ويحزم حقائبه ويرحل عنا ، ولكنه يقابل ذلك ببرود عجيب . وأذكر أنني قلت للوزير مازحاً : إن هذا السفير يدخل تعديلاً على التعريف الكلاسيكي للدبلوماسي من أنه (الجنتلمان الذي يكذب لمصلحة بلاده ) ويزيد عليه : إنه رجل يتحمل الصفعات من أجل بلاده أيضاً ، ثم استرسلت قائلاً : أؤكد لك لو كان هذا السفير عربياً لرحل عنكم بمجرد الايحاء ولأسباب أقل من ذلك. كانت مناقشة مازحة بسيطة ولكنها تمس صلب القضية وتلقي الضوء على طبيعة الدبلوماسية الاسرائيلية الباردة في أفريقيا ، ذلك أن سفارة اسرائيل في كوناكري لم تغلق رسمياً إلا بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ .

وحين كنت معتمداً للأردن في نايجيريا نقلت الصحف هناك أن الرئيس نكروما أقام حفلاً لرؤساء الدول الافريقية بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الافريقي في العام ١٩٦٥ دعى إليه

سفير إسرائيل مع رؤساء البعثات الدبلوماسية مما أدى إلى امتناع الزعماء العرب عن الحضور ، الأمر الذي اضطر معه نكروما إلى إلغاء دعوة السفير الاسرائيلي .

ومع أن ذلك في العرف الدبلوماسي يعتبر إهانة لا تغتفر إلا أن السفير ( صَهْيَنَ ) عنها وترك العاصفة تمر ، واستمرت سفارته تؤدي واجبها ولا تزال حتى يومنا هذا ، وتحضرني قصص كثيرة عن البرود اليهودي والمرونة الشديدة مع الدول الافريقية لا يتسع المجال لسردها ولكن خلاصتها أن باستطاعتهم تحمل الإهانات ومواجهة النكسات وانتظار تبدل الرياح ، ولذلك يصبح لزاماً علينا أن نواصل الحملة بكل ما تقتضيه من المتابعة والإدراك ، وتجنب التحركات الانفعالية المتحمسة التي لا تدخل في تقديرها جميع العواقب والملابسات .

في تعليق حديث لجريدة آل هامشمار وهي لسان حزب المابام أحد أركان الحكومة الائتلافية الراهنة ، على تضعضع مركز اسرائيل الدولي ولا سيما في افريقيا قالت : ( يجب على اسرائيل أن تقدم آمالها في السلام بصورة أكثر إقناعاً ) ويعني هذا الكلام أن اسرائيل تدرك أن احتلال أراضي دول عربية أعضاء في منظمة الوحده الافريقية هو أحد الأسباب التي خلقت المناخ المعادي لاسرائيل ، وواضح أن علاجه في المنطق اليهودي ليس إزالة العدوان ولكن ابتكار

أسلوب جديد لتبريره والتماس الأسباب ( المقنعة ) لبقائه !.

وواضح أن اسرائيل لم تقبل الهزيمة المبدئية في افريقيا كحقيقة واقعة ولكن تنظر لها كنكسة عابرة لأسباب وقتية، كما أنها تمر – كما ذكرنا – بمرحلة مراجعة وإعادة تقييم لموقف تتبعه – على أغلب الظن – حملة دعائية وسياسية من نوع جديد ولكنها لن تختلف عن مادة الدعاية القديمة القائمة على بذر الشك والكراهية بين العرب وافريقيا .

لقد اتخذت اسرائيل مؤخراً قراراً مهماً هو تصفية دائرة المعونات بوزارة الدفاع وهي التي كانت مختصة بإدارة دفة المساعدات الفنية ذات الطابع العسكري للدول النامية ولاسيما في افريقيا ، ويبدو أن من بين الأسباب التي دعت لاتخاذ هذا القرار حرص اسرائيل على الابتعاد عن دائرة التورط في الشؤون العسكرية في افريقيا لأنها عرضت نشاطها للاتهام سواء في مجال الفتن الداخلية أو على صعيد العلاقات المتفجرة بين الدول الافريقية .

وقد علق السيد شيلوس وهو سفير سابق لاسرائيل في نايجيريا ، في عدد ١٢ يناير ١٩٧٣ من جريدة دافار فقال : ( أعتقد أن هذا القرار حكيم ولكنه جاء متأخراً ، إن المساعدات الدفاعية كانت في بعض الحالات عظيمة الفائدة من الناحية السياسية ، ولكن من الواضح أن علاقاتنا ومساعداتنا

يجب أن تبنى على النواحي المدنية ( الاقتصادية والزراعية ) ، ذلك لأن الوجود العسكري في المناطق المتوترة يعرض سياستنا للخطر سواء في الدول المعنية أو غيرها ) .

وهذا الكلام يعني أن اسرائيل شعرت أخيراً بأنها أحرقت أصابعها حين عبثت بالنار الافريقية وكانت شريكاً في أكثر المؤامرات والمؤامرات المضادة التي وقعت سواء في الحقول السياسية المحلية أو في مجال العلاقات بين الدول المتجاورة ، ذلك أن اسرائيل قد انتهت ربما إلى درس أعتقد أنه صحيح وهو أن القارة الافريقية عموماً لا تزال تمر بمرحلة قلقة غير مستقرة ، وأن الأوضاع في أي بلد لم تأخذ شكلها النهائي مما يجعل من الصعب وضع خطط لمحالفات طويلة المدى ، ولعله من الخطأ المراهنة على أنظمة أو قيادات تقف – كما أثبتت التجارب ، حتى الآن – على رمال متحركة ، لأن أي تحالف من هذا النوع يعرض الاتفاقات المبرمة والمصالح المتوقعة إلى الانهيار والنقض .

**المغامرة الفاشلة في يوغندا وتشاد :**

ولعل أبلغ الدروس التي وعتها اسرائيل وأكثرها مرارة هي ختام مغامراتها في كل من يوغندا وتشاد ، فقد رسموا خططاً طويلة للسيطرة على الجيش اليوغندي منذ عهد الرئيس

المخلوع ملتون أوبوتي واستضافوا الجنرال عيدي أمين في ذلك الحين حتى خيل إليهم أنه سيكون أداة طيعة في أيديهم وخصوصاً حين عاد من رحلته التدريبية في اسرائيل يفخر أنه معجب بصديقه الجنرال حاييم بارليف ، غير أن الجنرال أمين اكتشف مبكراً -لحسن حظ يوغندا- أن الخبراء الاسرائيليين يبالغون جداً في دفع يوغندا نحو الاستعداد العسكري بصورة أرهقت ميزانية البلاد وعرضتها إلى ضوائق اقتصادية ، والغريب أن الاستراتيجية التي كانوا ينصحون بها أوبوتي كانت تعتبر السودان مصدر الخطر العدواني المحتمل على يوغندا !

ويبدو أن الاسرائيليين قد أدركوا أن اللعبة قد انكشفت ولعلهم هموا بتعديل سياستهم ولكن الحوادث المفاجئة ونهاية أوبوتي العاجلة ضبطتهم ( متلبسين ) مما أدى إلى ما يعتبرونه كارثة ليس على وجودهم في يوغندا وحدها ولكن بداية انهيار شامل في افريقيا بأسرها .

وقد يوضح ملابسات هذه القضية وظروفها ما نشرته جريدة هاآرتس الاسرائيلية بعدد ٢٨ / ٩ / ١٩٧١ على لسان مبعوثها إلى كمبالا ، حيث ذكر أن الدبلوماسيين الغربيين يعبرون عن قلقهم الشديد من احتمال وقوع أزمة اقتصادية في البلاد كنتيجة للأولوية الممنوحة لشؤون الدفاع والأمن في الميزانية حيث أقنع الخبراء الاسرائيليون ( أوبوتي ) بتخصيص ٢٠ ٪ لهذه الأجهزة ، وهي نسبة عالية جداً إذا قورنت

بظروف يوغندا الاقتصادية وعدم حاجتها الملحة لجيش كبير ، ويمكن مقارنة هذه النسبة العالية بدولة افريقية أخرى هي نايجيريا إذ لم تزد نسبة نفقات الدفاع في ميزانيتها عن ٢٪ حتى عام ١٩٦٥ وربما تكون قد زادت بدرجة معقولة خلال ظروف حرب بيافرا .

لقد كانت إحدى خطيئات أوبوتي أنه أبرم اتفاقاً مع اسرائيل في عام ١٩٦٢ نص بموجبه على استخدام خبراء ومستشارين اسرائيليين لتنظيم الجيش الصغير ، وأذكر حين زيارتي لكمبالا في صيف عام ١٩٦٤ أنني سمعت من أكثر من مصدر حكومي الشكوى المتزايدة من تدخل الخبراء في شؤون الدولة وتوجيهها نحو خدمة المصالح الاسرائيلية ، وفي ذلك الوقت المبكر كان الوطنيون اليوغنديون وخصوصاً من حاشية الملك ( الكاباكا ) يلخصون الخطة الاسرائيلية في هدفين : **الأول :** توجيه رؤوس أموال يوغندا لشراء أسلحة من اسرائيل ، **والثاني :** استخدام يوغندا مستقبلاً كقاعدة ضد السودان ، بحجة أن الجيش السوداني يلاحق المتمردين الجنوبيين داخل أراضي يوغندا وأن هذه الغارات ستؤدي حتماً إلى صدام عسكري بين البلدين .

أما في حالة تشاد فقد غرق الاسرائيليون حتى الأذقان في دعم الجيش التشادي خلال الثورة الأهلية ، ولعبوا دوراً

حاسماً في إثارة المشاكل مع السودان (دائماً السودان العربي!!)، إلا أن الزعامات الافريقية فطنت للعبة الاسرائيلية ذات الأهداف المتعددة لتوريط البلاد في فتن داخلية، وإقامة حدود من الكراهية والتوجس مع الجيران بصورة لا تخدم أماني تلك البلاد وأهدافها في الوحدة الافريقية المرجوّة، وكان ذلك أحد الأسباب الرئيسية في انتفاضة عيدي أمين وتومبالباي على الاسرائيليين، وكما حدث في يوغندا وتشاد فإن حدسي هو أن أكثر من بلد افريقي بدأ يكتشف خطورة اللعبة الاسرائيلية، وربما يتقبلها بعضهم لبعض الوقت كضرورة كريهة لتحقيق شيء من الفوائد أو تجنب بعض الأخطار الحقيقية أو الوهمية، وكما ساعد التحرك العربي عيدي أمين وتومبالباي على التخلص من هذه العقدة فإن بالإمكان دفع الحوادث في هذا الاتجاه في أكثر من بلد.

وهذه الدروس التي وعتها اسرائيل خليق بأن تكون في تقدير الدول العربية وهي تحاول تعميق النكسة الاسرائيلية وجعلها أمراً ثابتاً ليس فيه تراجع أو تبديل.

والآن لنبدأ بمتابعة مراحل المغامرة الاسرائيلية من بدايتها حين اقتحمت أفريقيا تحت رداء المستعمر القديم لتلعب دوراً مقدراً في مخطط دولي واسع منذ مطالع الستينات حين أخذت كبريات الصحف العالمية تتحدث عن أفريقيا أرض اسرائيل

الجديدة ، ثم حين بدأت الأقنعة تسقط واحدة بعد الأخرى ويظهر تحتهـــا وجه الاستعمار الجديد متلبساً بخداع الشعوب عاملاً على نهب مواردها وسلب خيراتها .

## أهداف الحملة الاسرائيلية :

إن أهداف النشاط الاسرائيلي في أفريقيا بالذات ليست إلا امتداداً للفكرة الأساسية من إقـامة اسرائيل في الشرق العربي ، وكراً تلتقي فيه طاقات اليهودية العـــالمية الفكرية والاقتصادية لتعمل وتخطط وتنطلق في الأقطـار المجاورة التي تعتبرها – بالقياس – أقل نمواً في مدارج الحضارة وبالتـالي لا تصلح إلا سوقاً كبيراً للنشاط اليهودي بكل أشكاله .

ومن تحصيل الحاصل أن نقول : إن هذا التخطيط ليس له أدنى علاقة بالروح الانسانية أو الخير لمجرد الخير كما حـاولت الدعاية الاسرائيلية أن تبيعه للسذج في عبارات منمقة كتلك التي قالها وزير الزراعة الاسرائيلي بعد جولة في افريقيا عـام ١٩٦١ : ( لقد اعطينا التوراة للعالم ولكن كان ذلك من وقت طويل ،وفي أفريقيا توجد امامنا فرصة لنؤدي بعض الخدمات ) .

إن هذه المسحة الانسانية الزائفة كانت تخفي تحتها أطماعاً مادية توسعية صرفة تحسب كل علاقة بما ينتج عنهـــا من الفوائد المادية ، وكانت هذه النوايا تظهر على ألسنة المسؤولين اليهود في

المجالات العلمية وامام المشاهدين الأذكياء الذين يحبون أن يخاطبوا بلغة الحقائق والأرقام .

يقول ابا ايبان في مقاله المنشور في عدد مجلة الشئون الخارجية يوليو ١٩٦٥ تحت عنوان ( الحقيقة والخيال في الشرق الاوسط ) بعد استعراض طويل للدور ( الحضاري ) الذي يمكن أن تقوم به اسرائيل في هذا الجزء من العالم ، يقول : ( في هذا الزمن الذي يتميز بوسائل المواصلات الحديثة ، تصبح الشعوب أقل اعتماداً على واقعها المحلي وحقيقتها الجغرافية كما كان عليه العهد سابقاً ، إن أسواق اسرائيل وصداقاتها وعلاقاتها الفنية والثقافية يمكن أن تجد لها مجالاً بين الشعوب الحديثة ووراء الطوق العربي عند الضرورة ، إن التوافق السياسي والاقتصادي بين الدول أصبح أكثر أهمية من الجوار الجغرافي كقوة محركة في العلاقات الدولية ) (١) ، غير أن الاندفاع الاسرائيلي نحو أفريقيا قد أصبح بالنسبة لاسرائيل أكثر ضرورة مع رفض العرب للتسليم بحقيقة الوجود الاسرائيلي العدواني والتعامل معه ، ومع ازدياد خطة الحصار العربي في أقطار العالم الثالث ، مما كان يعني فقدان اسرائيل لسبب وجودها ، فكان لا بد من وثبة وراء أسوار الحصار العربي

---

(١) Aba Eban ( Reality and vision the middle east )
Foreign Affairs an American Quartely Review.

إلى القارة البكر التي تهيأت لها شروط ومواصفات لم تتهيأ لمنطقة أخرى في العالم سواء في وفرة الثروات وكثرة الأيدي العاملة وتواضع الخبرة السياسية مع سبب آخر هو أكثرها اهمية ونعني به وجود القوى الاستعمارية التي تبحث لها عن شريك وبديل ، ويفسر هذا الاتجاه ما قاله دافيد بن جوريون أمام المؤتمر الصهيوني العالمي المنعقد في ٢٨ ديسمبر عام ١٩٦٠ ، إذ قال : ( إننا لا نستطيع ان نكره جيراننا على عقد السلام معنا ، ولكن مـا من شيء يمكن ان يؤدي إلى تخفيف حدة البغضاء لدى العرب نحونا ، وبالتالي يؤدي في النهاية إلى السلام بيننا وبينهم ، أفضل من ان نكسب مزيداً من الاصدقاء بين دول افريقيا وآسيا ) [١] .

ولما كان الحصار العربي يستهدف فيما يستهدفه عدم وصول السلع والمواد الاستراتيجية عبر البحر الاحمر ولا سيما البترول اللازم لتحريك الجهاز العسكري الاسرائيلي ، فقد أدى هذا الموقف باسرائيل لان تتوسع مع امتداد شطآن هذا البحر لتحمي شرايين المواصلات البحرية ، وأن تضع الخطط لمواجهة التبدلات التي تطرأ على ميزان القوى في هذه الأنحاء ، ويذكرنا هذا الاهتمام بالتحركات اليهودية القلقة حين أصبح واضحاً ان بريطانيا في طريقهـا للجلاء عن عدن ، فقد نشرت جريدة

(١) اسرائيل والدول النامية : سامي حكيم

الجويش كرونيكل في ١٩٦٧/١٠/٧ ، ان السفير اليهودي في بريطانيا ( اهارون ريميز ) قد استدعي إلى تل ابيب للتشاور مـع حكومته حول هذا الموضوع ، وقد أدلى السفير بحديث إلى مراسل الصحيفة المذكورة جاء فيه : ( اننا نشعر بالقلق إزاء النتائج المحتملة لجلاء البريطانيين عن عدن ولا سيما إذا أدى هذا الجلاء لحدوث فراغ في المنطقة ) .

وهذه الحساسية تجـاه البحر الاحمر كجسر يربط الدولة اليهودية بالعالم الأفريقي كانت سبباً في حربين في الشرق الاوسط ، كما أنها تكمن وراء التحركات الاسرائيلية في البلدان القابعة على شطآن هذا البحر ، وهذه التحركات المريبة دعت بعض المراقبين للاعتقاد بأن البحر الاحمر كله قد دخل في ســاحة الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، فقد كتب قنصل اميركا السابق في اسمرة ( ارتريا ) فرانكلين كامبل مقالاً عن ثورة ارتريا في عدد ابريل سنة ١٩٧١ من مجلة الشؤون الخارجية الامريكية قال فيه : ( إن الخطر ليس من أن تأخذ هذه الثورة شكل حرب فيتنام ( افريقية ) أو تصبح تكراراً للمصادمات القبلية التي وقعت في بيافرا ، وإنما أن تكون امتداداً نحو الجنوب للصراع العربي ـ الاسرائيلي ) . وقال الدبلوماسي الاميركي : ( انني لا استبعد وقوع تحركات سياسية خـاطئة لتحريض

الافارقة ضد العرب بقصد إيقاع الحرب بينهما ) [1] ولسنا نجد جهة يهمها أن تصل الحـــالة بين العرب والأفارقة لهذا المدى سوى اسرائيل ، ومن هنا تصبح الزاوية القصوى للبحر الاحمر في غاية الأهمية وعلى الدول العربية معالجة هذا الموقف الخطر المعقد بكل مـا يلزمه من الدقة والأناة ، وكل سياسة عربية سليمة يجب ان تضع السودان في اعتبارهـا وأن تعتبره محور التحرك العربي في تلك الأنحاء .

إن الحديث الذي يدور الآن عن احتمال احتلال اسرائيل لبعض الجزر المهجورة عند مداخل البحر الاحمر المواجهة لباب المندب بعد أن وقعت مع الحبشة في ديسمبر عام ١٩٧٠ معاهدة لاستئجار بعض الجزر المجـــاورة لجزيرة بيريم اليمنية ، تلقي الضوء على طبيعة الخطة الاسرائيلية تجاه أفريقيا الشرقية بالذات وتبين ضخامة الرصيد الاقتصادي الذي تراهن عليه اسرائيل في تلك الأنحاء وتعمل على حمايته بكل سبيل .

وإلى جانب اهتمام اسرائيل باستمرار سير تجارتها إلى دول أفريقيا الشرقية والأقطار الآسيوية ، فهي تهتم كذلك ببقـاء صلة مباشرة بأنظمة الأقليات البيضـاء في روديسيا وجنوب

---

(١) John Franklin Campell ( Rumblings along the Red sea: the eritrean Question, foreign affairs april 1970

أفريقيا والمستعمرات البرتغالية ، فبالرغم من المواقف المسرحية التي تتظاهر بها اسرائيل باعطاء تأييد ( كلامي ) لحركات التحرر الافريقي ، تقوم بالتعامل المباشر مع الجماعات الأوروبية في تلك المناطق باعتبارها الحليف الطبيعي للصهيونية ، لا سيما وأن الجالية اليهودية في جنوب أفريقيا تعتبر من أهم الجاليات اليهودية في العالم وأكثرها نشاطاً في مجال الجباية المالية لمساعدة اسرائيل .

أذكر انني أثرت هذه النقطة في حديث طويل مع مسؤول في وزارة الخارجية في حكومة جنوب أفريقيا أثناء زيارة قصيرة لجوهانسبرج وبريتوريا في عام ١٩٦٤ ، وقد قال لي المسؤول الحكومي آنذاك : ( بالإضافة إلى أننا لا نعلم شيئاً كثيراً عن قضيتكم ولا نعتبرها في اهتماماتنا الأولى، فإن الجالية اليهودية هنا ذات تأثير كبير على اقتصادنا الوطني وهم أحرار في مساعدة اسرائيل مادام يجري ذلك في نطاق القانون ) .

على أن العلاقات التجارية بين جنوب أفريقيا واسرائيل قد ازدادت منذ ذلك الحين ولا سيما في حقل الماس الذي تجلبه اسرائيل خاماً ثم تعاود تصديره للخارج بعد صناعته ، ففي عام ١٩٧٢ بلغت قيمة صادرات اسرائيل من الماس ٣٠٤ مليون دولار من مجموع صادراتها التي بلغت ٩٥٧ مليون دولار ، أي ان صناعة الماس قد شكلت ٢٩ ٪ من الصادرات الاسرائيلية

وهي نسبة تفوق دخلها من الحمضيات التي تعتبر ركناً أساسياً في الاقتصاد الاسرائيلي .

ويبدو لي أن زيادة الاهتمام الاسرائيلي الذي تفشيه التحركات الاخيرة التي اشرنا إليها وثيق الصلة بما يجري بالقارة نفسها ، فلا شك أن اسرائيل ودول افريقية أخرى يزعجها اشتداد الحركات التحررية في شرق أفريقيا ولا سيما في ميناء جيبوتي الصومالي ، فهناك مقدمات توحي بأن الرأي العام الفرنسي لم يعد يستسيغ فكرة بقاء مستعمرات فرنسية وراء البحار مهما كانت درجة الحكم الذاتي الذي تتمتع به حتى أصبح التخلي عن جيبوتي شعاراً رئيسياً للكتل الاشتراكية في الانتخابات الاخيرة .

ولا شك أن احتمال عودة ميناء جيبوتي الهام للدولة الصومالية يشكل كابوساً مخيفاً لاسرائيل لأنه يمكن ان يكمل الفك الغائب للكماشة الأفريقية ـ العربية ضد المرور الاسرائيلي في المستقبل ، ولذلك تسارع اسرائيل الآن لتثبيت وجودها عند عنق الزجاجة كي تبقى خطوطها المفتوحة على أفريقيا وآسيا سليمة أمام احتمالات الضغط العربي المدعوم بالمؤازرة الافريقية ، وقد عبر ابراهام بوتشر قائد البحرية الاسرائيلية السابق لصحيفة هاتسوفه في يوليو ١٩٧١ عن هذا التصميم بقوله : ( إن البحر الاحمر هو مجال اسرائيل الحيوي ولا بد لنا من حمايته مهما كان الثمن ) والتحدي الاسرائيلي في هذه

الجبهة يمس المصالح العربية في الصميم ، كما يمس دولاً أفريقية ويطعنها في استقلالها ، وعلى الدبلوماسية العربية أن تنطلق لتجعل هذه القضية مجالاً لتجربة التعاون العربي - الأفريقي بوسائل أكثر من الاجتماعات والقرارات ، كالتشاور في خطط الدفاع لحماية الممرات المائية ، لا سيما وان دولة مهمة كالصومال تلتقي مع العرب قلباً وقالباً في تقدير حجم الخطر الاسرائيلي الموجه إلى مصالحها المباشرة .

وتحضرني في هذا الموقف كلمات السيد آدن عبدالله عثمان رئيس جمهورية الصومال السابق حين قال لنا اثناء اجتماع به عام ١٩٦٥ : ( إن الخطر الاسرائيلي ليس شبحاً بعيداً عنا وإنما حقيقة أصبحنا نحس بوجودها على حدودنا ، إن نمط المستعمرات اليهودية المسلحة التي كابدتم منها أصبحت تقوم الآن على اراضينا ) ، وقد أكد لي هذا القول فيما بعد الجنرال داود قائد الجيش الصومالي حين ذكر ان بعض كبار ضباط الجيش الاسرائيلي يعملون كمستشارين مع الجيش الحبشي ، وان المهندسين العسكريين الاسرائيليين يساعدون على اقامة مستعمرات محصنة في اقليم ( اوجادين ) المتنازع عليه ، ومن حسن الحظ ان التقلبات السياسية في الصومال الشقيق لم تغير هذا الموقف ولعلها زادته تصميماً ، حتى استمعنا أخيراً إلى وزير الخارجية الصومالي اللبق السيد عمر عرته يدعو إلى عقد مؤتمر للدول الستة المطلة على البحر الاحمر لمناقشة هذا الموضوع ،

وأعتقد بصواب فكرة ان تصبح قضية التهديد الاسرائيلي في البحر الاحمر قضية عربية ـ أفريقية ، وقد تكون انطلاقة للأمل القديم لتوسيع مجالات التعاون العربي ـ الأفريقي ضد الهجمة الاسرائيلية على كليهما ، لا سيما وان تعاون اسرائيل مع جمهورية جنوب أفريقيا على كل المستويات هو أحد الأركان التي لا يزال يقوم عليها الحكم العنصري البغيض في أفريقيا .

## الاطار العاطفي المصطنع بين اليهود والافريقيين :

إن التعاطف بين اسرائيل والكيانات العنصرية البيضاء في افريقيا يبدو مفهوماً دون أدنى جهد ، فالدوافع العنصرية القائمة على تمجيد الذات واحتقار الآخرين ملامح أساسية عند كليهما يضاف إليها ضرورات الدفاع عن مكاسب العدوان التي يهددها دائماً وجود أصحاب الحق الشرعيين ، وربما كانت هذه هي صفات التطابق في المصالح أو الـ ( Affinity ) التي اشار إليها ابا ايبان في مقاله الذي اشرنا إليه واعتبرها اهم من العوامل الجغرافية في تحديد علاقات اسرائيل مع دول العالم ، كل هذا يبدو مفهوماً في مسيرة التجربة الاسرائيلية ومراحلها .

ولكن الذي يبدو غير مفهوم بل متناقضاً مع أبسط الحقائق الثابتة هو محاولة اسرائيل وأجهزتها السرية والعلنية ( تسويق ) نفسها للشعوب الأفريقية الوطنية التي تقوم كياناتها

على أسس مغايرة ، وتسعى لأهداف تختلف تماماً عن الأهداف الاسرائيلية والعنصرية،فالأفريقيون لايكرهون شيئاً كراهيتهم للتفرقة والتمييز القائم على السلالات والألوان ،وتتحدد آماهم في قيام عالم جديد يخلو من هذه العيوب والنواقص ويتعايش فيه الناس على الأساس الذي لخصه القرآن الكريم : ( ان أكرمكم عند الله اتقاكم ) .

غير ان اسرائيل قد استطاعت ان تدخل إلى قلوب الأفريقيين في خضم حملة هائلة من تزييف الحقائق والمغالطة مع الواقع ومع التاريخ ، ومتابعة هذة الحملة وما كتب فيها رياضة عقلية شائقة تقوم شاهداً على تأثير هذا الوحش العاتي الذي يسمونه ( الدعاية ) ، حيث يفترس الحقيقة افتراساً وتشوه معالمها تشويهاً يستعصي على العلاج ، وإذ أريد أن أفتح للقارىء معي نافذة محدودة على هذه الحملة فليس الغرض اكاديمياً للتسلية وإضاعة الفراغ ولكن للكشف عن جذور الإطار الفكري والعاطفي الذي صنعته الصهيونية والاستعمار ليتحرك فيه البديل الجديد .

كان ضرورياً أن تفتعل اسرائيل وجوهاً للمشاركةوالمشابهة بينها وبين الشعوب الأفريقية ، وكان عليها وعلى ادواتها المنبثة في العالم كله أن تخوض في المغالطات لتجمع ما لا يجمع من النقائض والاضداد ، أو لتسوى بين الأسود والأبيض حقيقة

لا مجازا ، فالخلاصة عندهم أن اليهود والأفريقيين شيء واحد يجمع بينهم مـــا يجمع بين أبناء الأسرة الواحدة من الوشائج والصلات وان ابتعدت المنازل والأوطان . ولتركيز هـذه النتيجة نشرت المجلات ودبجت المقالات وانعقدت المؤتمرات في أفريقيا وخارجها ، وليس مما يعيبنا أن نعترف أن هذه الخطة قد أحرزت نجاحاً كبيراً وترجمت نفسها في واقع عملي لا نزال نعيشه على الأرض الأفريقية ، ومع أن العرب بدأوا مؤخراً في التحرك لملاقاة الحملة الضارية إلا أن تحركهم لا يزال همسـاً خافتاً يضيع في أزيز العواصف ودمدمة الأعاصير .

في سيل الكتب التي تلفظها المطابع عن أفريقيا والمحشوة بهذه المغالطات المقصودة ، أود أن أورد مثالاً واحداً يصلح نموذجاً فيه تجسيد لملامح الحملة وأهدافها ، فقد كتب كولين ليجوم في كتاب جمعه بأقلام ( خبراء ) مشهورين في الشؤون الأفريقية (١) تحت عنوان جذور الوحدة الأفريقية يقول : ( يوجد تشابه عجيب بين الصهيونية والوحـــدة الأفريقية ( Pan Africanism ) ذلك لأن القـارة الأفريقية للزنوج كفلسطين ليهود المهاجر ! ، لقد تشكلت الفكرتان واختمرتا في أرض غريبة وجمعتا حولها الأنصار عن طريق التذكير بالمنافي والتشريد واللاانتماء ، ولذلك نادى دعاة الفكرتين بإقـــامة

---

(١) Africa A Handbook Edibed hy colin Legum.

أوطان لهذه الشعوب المشردة ... ثمانية عشر عاماً اكثر من ( تيه ) موسى في الصحراء فان ( انبياء ) الوحدة الأفريقية بشروا بها في المنافي )، ولكي يمضي الكاتب في جمع مالا يجمع، وفي محاولته التوفيق بين النقائض والأضداد وصل إلى نتيجة غريبة مفادها ( أن الأفريقيين كاليهود تماماً يتحدثون عن أنفسهم كجنس سيد أو شعب مختار ) ولست أنوي الاستطراد في الاقتباس من هذا الكتاب أو التحول إلى كومة الكتب الاخرى ، لأناقش هذا المزيج المركب من المغالطات والأخطاء لأن عناصره ينقض بعضها بعضاً حتى تصفو على العدم . غير أن هذه الاستنتاجات التي تفتقر إلى ذرة واحدة من الموضوعية الإيجابية قد وضعت بمهارة ولقنت للأوروبيين وللزعماء الأفارقة الذين تلقوا علومهم في المدارس التبشيرية أو في الجامعات خارج وطنهم خلال فترة طويلة . على أن ذلك كله ليس إلا عنصراً واحداً من عناصر ( الأرضية ) العاطفية التي أرادوا إقامتها مع أفريقيا قبل تشييد الكيان السياسي والاقتصادي المنشود.

### وحدة النضال المزعوم :

وفي محاولة اليهود وحلفائهم التغلغل في أفريقيا وترسيخ جذورهم في القارة البكر ، نراهم حريصين على تزييف إطار من العلاقات التاريخية والعاطفية يقوم على إبراز أوجه التشابه المزعوم بين الشعب اليهودي والشعوب الأفريقية سواء في دروب

الاضطهاد والتفرقة أو في الكفاح من أجل الاستقلال والكرامة، ثم في العمل المشترك لاستغلال الموارد الطبيعية والقدرات الانسانية للارتقاء بمستوى الفرد والمجتمع، ولضمان نجاح هذا الإطار الوهمي لا بد من افتعال إطار مناقض يقوم على بث الكراهية للعرب والخوف منهم، ونقض العلائق الجغرافية والدينية والثقافية التي تربط بينهم وبين جيرانهم من قديم الأزل، ولسوف نرى مع استرسال هذا البحث الجهود الواسعة التي بذلت على كل المستويات ومدى ما أصابت من درجات الفشل أو النجاح .

تنسب أجهزة الدعاية الاسرائيلية ويكرر كبار الزائرين لأفريقيا عبارة يزعمون أن قائلها زعيم الحركة الصهيونية الحديثة تيودور هرتزل : « أما الآن وقد عشت لأرى انبعاث اليهود، فانني سأعمل لأمهد الطريق أمام انبعاث الزنوج ... ومن أجل هذا الغرض فإنني أناضل لأفتح الطريق إلى افريقيا »، على أن من الراجح أن هذه العبارة وأمثالها - إن صحت نسبتها لهرتزل - قد كانت خلال المرحلة الأولى حيث كان يجيل بصره على سطح الكرة الأرضية ليبحث عن أرض - أي أرض - ليجعل منها وطناً للمشردين اليهود، وفي تلك الفترة كانت يوغندا إحدى أملاك الامبراطورية البريطانية في شرق أفريقيا موضع مساومة بين الزعامة الصهيونية ووزارة المستعمرات البريطانية لهذا الغرض ( لأن مناخها معتدل في الأراضي

الداخلية، حيث باستطاعتكم أن تزرعوا فيها السكر والقطن)، على حد قول المستر جوزيف تشمبرلين وزير المستعمرات البريطاني في ذلك الحين، على أن هرتزل ذهب للمؤتمر الصهيوني السادس يدافع عن هذه النظرية ويدعو لفتح افريقيا أمام الاستيطان اليهودي، وإن كان قد اعتبرها (تدبيراً مؤقتاً لمشكلة اللاجئين اليهود)، على أن التلفيق والتصنع واضح في العبارة التي ينسبها الصهاينة لزعيمهم بحيث لا يحتاج تفنيدها إلى أدنى مشقة، فأين هرتزل من تحقيق الحلم الكبير؟ وكيف يجرؤ على القول انه قد عاش ليرى انبعاث الامة اليهودية وهو الذي استسلم للموت ولما يحقق من آماله إلا أوراقاً اشتمل عليها كتابه المعروف (الدولة اليهودية)، وكان الساخرون من افكاره من اليهود أنفسهم أكثر من الهازئين من الأمميين، والصحيح الذي لا شك فيه أنه مات وهو لا يرى في أفكاره أكثر من حلم جميل على ما يروي هو في مذكراته المنشورة إذ يقول: (ما الذي سينتج من هذه المحاولة؟ إن الوقت لا يزال مبكراً للحديث فيه، ومع ذلك فإن لدي من التجارب ما يقنعني أنها لو حتى بقيت مجرد حلم جميل فإنها ستكون أمراً عظيماً، ومهما يكن من أمر فإن الذي يريد أن يكون مصيباً بعد ثلاثين سنة لا بد أن يكون مستعداً لتقبل تهمة الجنون في العامين الأولين)[١].

---

(١) Herzel's Diaries, Lowenthel Henorah journal

إن ما كان في رأس هرتزل وغيره من زعماء الصهيونية هو شيء يختلف تماماً عن فكرة تحرير الرجل الأسود وإنما ينصب على استعمار أرضه وتسخيره للعمل فيها واستخراج خيراتهـــا لصالح المستعمر الاسرائيلي ، أما تغليف هذا المخطط الشيطاني بأقنعة زاهية من التحرير والتحضير فليس أسلوباً جديداً على الاستعمار قديماً وحديثاً ، ذلك أن كل المغامرات الاستعمارية الكبرى في آسيا وأفريقيا قد تمت تحت مثل هذه الشعـارات الإنسانية الخلابة ، ولن يكون نصيب يوغندا لو تغيرت مسيرة التيار الصهيوني واندفع نحو أفريقيا بأحسن من مصير فلسطين الذي جاء اليهود إليها بشعارات مماثلة خدعوا بهـا العالم كله ، على أن من تدابير القدر أن يوغندا قد ذاقت نصيبها من (البركة) الصهيونية لا على الصورة التي أرادها هرتزل وتشمبرلين في العقد الأول من هذا القرن ، ولكن على صورة أخرى جاءت متلفعة بأجمل الوعود والمغريات قبل أن تنكشف الخدعـــة وتظهر المعونات والخبراء على حقيقتها مجرد وسائل للسيطرة والفسـاد والابتزاز مما حدى بالرئيس عيدي أمين لإنهاء الوجود الاسرائيلي في بلاده تماماً في نيسان ١٩٧٢ .

ولا يجب أن تمضي النبؤة ( الهرتزلية ) ومدى تحققهـــا العكسي على يد الرئيس أمين دون أن نشير لحادثة طريفة في سياق الموضوع ، فقد ذكر موردخاي كرينين في كتـابه ( اسرائيل وأفريقيا ) أن دافيد بن جوريون ذكر لأحد كبار

الزائرين من شرق أفريقيا المشروع القديم بإرسال اليهود إلى يوغندا بدلاً من فلسطين وكان جواب الضيف الافريقي : ( إن من حسن الحظ أن هذا المشروع لم ينفذ وإلا لكان اليهود قد طردوا الآن من هناك ! ) وهـذا الجزء من النبؤة هو الذي تحقق على يد الرئيس أمين وغيره من الزعماء الوطنيين .

وفي مجـال البحث عن الجسور العاطفية مع الشعوب الأفريقية تحرص الدعاية الاسرائيلية على التماس أوجه التشابه بين ما لاقاه اليهود من اضطهاد في الأقطار التي نزلوا بها ومـا تعرضت له الشعوب الأفريقية تحت كنف الاستعمار الأجنبي . في حديث ادلت به جولدا مائير وزيرة خـارجية اسرائيل لجريدة الليموند الفرنسية في مارس ١٩٦٣ حول المساعدات الاسرائيلية لافريقيا قالت : ( ان اسرائيل تقدم مساعداتها للدول الأفريقية دون ظل من الأنانية ) ثم استذكرت بالحسرات ( ما تعرضت له الشعوب هناك من الرق وجميع انواع الاستغلال والاذلال من المستعمرين ! ) .

ومع انعدام أسس المقارنة بين ظروف اليهود والأفريقيين في الشكل والمضمون إلا أن الدعاة والزوار اليهود لا يفتأون يذكرون الأفريقيين بزمالة الاضطهاد المزعومة وما تحتمه من دواعي الأخوة للوقوف امام الظالمين ، على أن هذه الخدعة سرعان ما تنكشف حين يتجرأون على أكذوبة أكبر منها

مفادها ان اسرائيل إنما نالت استقلالها من الاستعمار – كما فعلت أفريقيا – بسواعد أبنائها وتضحياتهم ودمائهم ، وينبغي الاعتراف أن هذه الخدعة قد جازت لبعض الوقت دون أن يفطن الأفريقيون انها محض اختلاق وتزييف [1] .

إن اسرائيل هي في الواقع ربيب الاستعمار وقناعه الجديد ، وإنه لولا الدول الاستعمارية وأساليبها الظاهرة والمستترة لم تكن اسرائيل بالتي تستطيع أن تجد لها موطيء قدم في أفريقيا فضلاً عن أن تتباهى بما أسمته أجهزتها «المعجزة الاسرائيلية» في القارة السوداء ، أو على حد تعبير مجلة نيوزويك الاميركية : ( إن العلاقات بين اسرائيل الصغيرة وهذه المناطق المترامية من أفريقيا تعتبر من أعجب المحالفات – غير الرسمية – في العالم ) [2] ، وفي المحاولات الاسرائيلية لترميم الجسور القديمة وايجاد جسور جديدة مع أفريقيا لم تستنكف عن اللعب بالعواطف الدينية بالرغم من موقفها

---

(١) في خطاب لأبا ايبان في حفل تكريمي للرئيس داكو رئيس جمهورية افريقيا الوسطى بمناسبة زيارته الرسمية لاسرائيل في عام ١٩٦٢ قال الوزير الاسرائيلي: « نحن واياكم عبرنا طريقاً طويلاً مضنياً من التمييز والأسى والآلام تارة بسبب اللون وتارة بسبب الدين » وقد رد داكو بقوله : « ولذلك فان علينا نحن واياكم ان نحول دون ذلك من جديد »

—Mordechai, kreinin, israel and Africa.

(٢) ( Asurplus of Brains ) Newsweek August 20, 1962.

المعروف من الديانتين الرئيسيتين في أفريقيا المسيحية والاسلام ، فقد كتبوا الابحاث ( العلمية ) الواسعة في سلالة الاسرة الملكية الحاكمة في اثيوبيا وصلتها العرقية بالملك ( منلك ) ثمرة الزواج بين النبي سليمان وملكة سبأ – على زعمهم – ، واعتبروا هذه ( الواقعة ) أساساً لعلاقــاتهم التي اتسعت مع هذه الدولة الأفريقية مستفيدين من سمعة الامبراطور هيلاسلاسي ونفوذه كأحد الزعماء البارزين في التكتلات الأفريقية ، كما استكتبوا – بطريقة غير مباشرة – العديد من الكتاب المسيحيين ليثبتوا أن قيام اسرائيل هو تصديق لنبوءات الكتاب المقدس ، وأن من تمام الايمان بالمسيحية ان يؤمن المسيحي الافريقي بذلك ، كما يؤمن بالعهد القديم ( التوراة ) أحــد الروافد الرئيسية للدين المسيحي ، ولقد كتب السياسي النايجيري فرد انيام السكرتير العام المساعد لحزب التجمع الوطني في كتابه حول اسرائيل في سبعة ايام : ( اسرائيل ليست اسماً جديداً في تاريخ العــالم ، فقد علمت في مدرسة الأحد في قريتي ان شعب اسرائيل هو شعب الله المختار ) ، وقد ذكر ستيفن نيل في كتابه تاريخ الارساليات المسيحية (١) : ( ان كثيراً من المسيحيين يعتقدون أن قيام اسرائيل هو تحقيق لنبوءات العهد القديم ) ومع أن كثيرين من المنصفين من رجال الكنيسة وخصوصاً من المسيحيين العرب قد انبروا لهذه الفرية اليهودية بالتفنيد الجريء إلا أن

---

(١) Stephen Neill ( A History of Christian Missions

اجهزة الدعاية الصهيونية والاستعمارية قد استطاعت ان تخنق الصيحة المخلصة وتترك المجال مفتوحاً لأدعياء السوء . وكان آخر ما سمعناه في سلسلة التخرصات الطويلة ما نشرته الصحف على لسان الجنرال ديان مؤخراً في تبرير ضم القدس العربية لاسرائيل وانشاء مستوطنات جديدة قوله : ( أن على الذين يعارضون هذه السياسة مراجعة موقفهم من الانجيل والتوراة ! ) .

وقد ساعد على شيوع هذه الخرافات وتمكنها ما قرره المجمع المسكوني الثاني في ختام جلساته التي امتدت حتى عام ١٩٦٥ ـ من تبرئة اليهود من دم المسيح بصورة جماعية ـ(١)، وقد مهد البابا يوحنا الثالث والعشرين لهذا التبدل التاريخي بصلاته المشهورة في ٣ يونيو والتي قال فيها : ( نحن الآن نعترف اننا كنا عمياناً عن الحقيقة لقرون طويلة حتى لم نعد نرى الجمال في شعبك المختار ، ولم نعد نستطيع أن نرى في وجهه ملامح أخينا البكر ، سامحنا يا إلهنا على اللعنة التي صببناها على اسم اليهود .. سامحنا لأننا صلبناك جسداً للمرة الثانية ، لأننا لم نكن نعلم ما كنا نصنع )(٢) .

---

(١) تحوم شبهات كثيرة حول هذا القرار والدوافع اللادينية التي التي تحكمت فيه لمخالفته بصورة صريحة أسساً ثابتة في العقيدة المسيحية فقد جاء في انجيل مانيو ما نصه على لسان اليهود ( إن دمه ـ أي المسيح ـ علينا وعلى أبنائنا ) .

(٢) Diaspora, Werner Keller

لقد أحدث هذا القرار وملابساته السياسية رنة أسف في العالمين العربي والاسلامي ، واعتبر سلاحاً سياسياً تقدمه الكنيسة للصهيونية لتبرير عدوانها في فلسطين ، ومساعدتها للتسرب في الدول النامية المتأثرة بالتعاليم المسيحية ، ولقد أصدرت رابطة العالم الاسلامي في مكة المكرمة بياناً ضافياً حول هذه القضية قمنا في حينه بترجمته بلغات مختلفة ونشره على نطاق واسع بين الافريقيين ، وقد جاء في بيان الرابطة قولها : ( لقد سبق هذا القرار محاولات خفية وظاهرة قامت بها الدوائر الصهيونية والقوى الاستعمارية الضالعة معها لاصدار هذه التبرئة ، الأمر الذي ينفي عنها أي صفة دينية ويجعلها مجرد حركة سياسية ترمي لضمان تأييد العالم المسيحي للفكرة الصهيونية وما تبيته من شرور للاسلام والعرب بل للانسانية قاطبة ، ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نسجل تقديرنا لموقف الأساقفة الشرقيين وغيرهم الذين حاولوا جهدهم منع صدور هذا القرار تكريماً لدينهم وعقائدهم أن تكون ألعوبة في يد اليهود وأعوانهم ) .

والواقع أن الصهيونية قد استغلت القرار المسكوني وملابساته أوسع استغلال بين الافريقيين لدعم المفتريات اليهودية وتبرير العدوان ، ومن الضروري أن تتنبه أجهزة الأعلام العربية لهذه الحقيقة وأن توليها حقها من الاهتمام ، وأن تقوم بنشر وجهات النظر المضادة للصهيونية التي كتبها

قادة مسيحيون أجانب وعرب ، لأنني أعتقد أن ما كتب حول هذا الموضوع على أهميته لم ينتشر في افريقيا على النطاق الضروري .

ولسنا ننوي في هذا البحث مناقشة هذه القضايا الدينية التي أصبح موقف كل فريق منها معروفاً ولكن يعنينا أنها استغلت من جانب اليهود سياسياً لأبعد مدى حتى سمعنا الدكتور مايكل أوكبارا رئيس وزراء نايجيريا الشرقية يقول عقب عودته من زيارة لاسرائيل في عام ١٩٦٤ بعد الإشادة بما رآه هناك من علائم القوة والتقدم : ( إنني أحس أنني أكاد أكون اسرائيلياً ) ، وأذكر أنني عاتبته على هذه العبارات أثناء زيارتي لأنوجو بعد عودته فقال : إن ما قصده هو أنه كمسيحي يؤمن بالعهد القديم ، وهو في ذلك يلتقي باليهود دينياً !!

إن من الصعوبة أن نفهم ( أسرار ) النجاح الاسرائيلي المبدئي في افريقيا ، حتى أصبحت على حد تعبير مجلة ريدرز دايجست ( كانون الثاني ١٩٦١ ) ( السامري الطيب ) الذي يطوف بالصدقات على الدول الصغيرة ، دون أن نحيط تماماً بالإطار العاطفي الذي تضافرت الأجهزة الاسرائيلية والاستعمارية والتبشيرية معاً لإقامته في افريقيا وهو ما تعرضنا له في هذه الصفحات وما سيتضح صورته أكثر كلما أوغلنا في البحث وعالجنا مجالاته الأكثر أهمية .

## حملة الكراهية :

على أن من الضروري كذلك - لاستكمال هذه الصورة - أن نبين قليلاً ما ألمحنا إليه من الجهود الدؤوبة المنظمة لعزل افريقيا عن العرب وإقامة سدود من الكراهية والتوجس بين الأخوة والجيران حتى تكتمل القطيعة ويوجد الفراغ الذي لا تملؤه إلا اسرائيل ، وقد نغالي إذ نعطي لاسرائيل فضلاً لا تستحقه إذا قلنا إن هذا الجهد الهائل كان من صنعها وحدها فالحقيقة أن الثالوث الرهيب قد تعاون ولفترة طويلة لحجز التيار العربي - الإسلامي ومنعه من الاندفاع في مجراه الطبيعي ، ومع أن كل ركن من أركان الحلف كان يعمل لغاية خاصة به سواء أكانت سياسية أو دينية إلا أن إسرائيل كانت من الذكاء والقدرة - كالعادة - بحيث استغلت كل المواقف المتناقضة والمصالح المتباينة لخطتها المرسومة .

كان لا بد من خلق مناخ معادٍ للعرب إذا كان لا بد للخطة الاسرائيلية من النجاح والتمكين ، ولذلك رأينا المؤتمرات ( العلمية ) تعقد بانتظام ، والمؤلفات والابحاث تغمر الاسواق الافريقية بكل اللغات وكلها تدس السم في العسل وتخفي النصال القاتلة تحت رداء زائف من (الموضوعية) والنزاهة العلمية ، أما الهدف الذي يظهر دائماً فهو تشويه التاريخ العربي ورمي الاسلام بكل عيب ونقيصة .

لقد احتل موضوع العبيد مكان الصدارة في أكثر ما كتب

في هذه الفترة وصوّر العربي فيها ذلك القرصان الفظ الذي يهاجم الزنوج البؤساء في غاباتهم الوادعة ليعمل فيهـــا يد الاحراق والاغتصاب قبل أن يعود إلى سفينتـه الراسية في خليج غينيا أو قلعته الحصينة في زنجبار، يدفع أمامه بالسياط اللاهبة صفوفاً من صيده الآدمي المكبل بالسلاسل ثم ينقلها عبر المحيطات المترامية حيث لا عودة ، ومع أن هذه الفرية لا تصمد لأي بحث علمي حتى من أولئك الكتاب الغربيين الذين رفعوا الحقيقة فوق الحقد والتعصب ، ومع أنها أصبحت في ذمة التاريخ وبيننا وبينها عقوداً من السنين إلا أنها لا تزال تصلح مادة للتذكير بالماضي والتخويف من المستقبل إذا سمح للعرب أن يستقروا في افريقيا من جديـــد ، يقول الكاتب الفرنسي فنسنت مونتيه في كتابـــه الاسلام الأسود[1] وهو يعتبر من الكتاب الموضوعيين نسبياً في هذا الباب : ( إن الافريقيين يرفضون ربط أنفسهم بالعرب ، الذين لا يزالون في نظرهم صيادي العبيد القدامى ) ، كما نقل الكاتب نفسه قصيدة شعرية نشرها في لاجوس الرئيس القبـــلي ( بالوجن ) تحت عنوان : افريقيا سامحي ، ولكن لا تنسي ، ولم ينس فيها أن يذكر الحروب الهائلة التي سببها غدر العرب !

بعد محاضرة ألقيتها عن العلاقات العربية – الافريقية في

---

(١) L'Islam Noir, Vincent Monteil

جامعة آبادان بنايجيريا في مارس عام ١٩٦٤ ، قام صحفي معروف بصلاته بالسفارة الاسرائيلية يسألني عن معنى كلمة زنجي أو افريقي باللغة العربية ، ولما أجبته بما أعرف قال : إن العرب يسمون كل افريقي (عبد) أو Slave ، ولما أحبطنا حجته تماماً تراجع ليعترف أن الذي أخبره بذلك هو سفير اسرائيل حنان يافور .

لقد أصبح موضوع العبيد قضية أساسية في التخطيط اليهودي الموضوع لافريقيا ، حتى سمعنا مندوب اسرائيل يتهم العرب بالرقيق من فوق منبر الأمم المتحدة في عام ١٩٦١ ، ليقوم بعده مندوب جمهورية شاطيء العاج ليردد نفس الأكاذيب .

والإسلام هذا الرباط التاريخي الذي غير معالم القارة تغييراً جذرياً لا سبيل لتبديله ، يجب أن تبذل الجهود الرتيبة القائمة على التخطيط السياسي والاقتصادي وعلم النفس، للعزل والتطويق وتشويه المعالم ، الإسلام الذي يقوم أصلاً على الأخوة العالمية والتساوي امام الخالق الأعظم هو في نظر المستعمرين ليس إسلاماً واحداً ، ولكن أنواع مختلفة ، إسلام أسود يستمد جذوره من التقاليد الافريقية ، وإسلام أبيض يقوم على العنصرية العربية ، ولاثبات ذلك توضع الموسوعات وتكتب الأبحاث والكتب لتدرس في المعاهد والجامعات .

ومن الأساليب التي اتقنتها الأجهزة الاستعمارية واليهودية المتحالفة تغذية الصحف بسيل من المقـــالات المنتظمة التي تتلبس مظهر البراءة والموضوعيـــة العلمية ، ولكي تكون تلك المقالات أبلغ في الدلالة والأثر فلا بأس أن تذيل باسم إسلامي حقيقي مأجور أو وهمي مصطنـــع ، ومن ذلك ما قرأناه منسوباً إلى شخص يدعى Elimon Babacar Faye في صحيفة باري دكار السنجالية بعدد ٤ يوليو ١٩٦٠ ، قال فيه : ( إنه توجد هناك ( افريقيتان ) افريقيـــا البيضاء وافريقيا السوداء فلنحرر أفريقيا السوداء لأن ذلك يعني إزالة نير المستعمرين القدامى ، وفي الوقت نفسه قطع الطريق على الاستعمار العربي . إن المطـــامح التوسعية للعرب أصبحت معلومة ، ولذلك لا بد من إقامة العراقيل في سبيلها . إن القومية العربية الثورية في جوهرها حركة عرقية ( racist ) بل نقول حركة استعبادية ( esclavagist ) – إشارة للعبيـــد مرة أخرى – ولذلك لا يجب أن تحظى بعطف السود ) .

وحين سألت عن الكاتب في إحـــدى زياراتي للسنغال لم يعرفه أحد إطلاقاً وأكد لي رئيس الاتحاد الثقافي الاسلامي الشيخ توري ما توقعته ، وهو أن مقالات كثيرة من هذا النوع تكتبها سفارات اسرائيل في افريقيا الفرنسية وتوزعهـــا على الصحف لنشرها لقاء أجر معلوم ، وخـــلال السنوات الست

التي قضيتها متجولاً في افريقيا أصبحت هذه الظاهرة مألوفة عندي أطالعها كأبواب ثابتة في الصحف المشبوهة .

على أنني لم أشك يوماً أن حملة الايقاع المصطنعة بين العرب والافريقيين ستنفجر حتماً في وجوه أصحابها ، لأنها تقوم على تزييف الواقع وتحريف التاريخ وهي خدعة جديرة بأن تنكشف مع الزمن ، كما أنها تناقض المصالح الأساسية للشعوب التي تدرك أبعاد اللعبة القديمة ( فرق تسد ) ولا تزال تتجرع غصصها ، وقد وجدت حملة الكراهية من الكثيرين من الزعامات الوطنية الافريقية من تصدى لها ، كما وجدت كذلك من المنصفين من مفكري الغرب من حذر من أخطارها السلبية وتنبأ لها بالبوار ، يقول وليام لويس في دراسته عن الاسلام والقومية في افريقيا : ( إن خرافة الزنوج ضد العرب ستصبح هباء بمجرد أن تجد دول افريقيا الشمالية المستقلة حديثاً ودول افريقيا السوداء أن بينها مصالح اقتصادية وسياسية مشتركة ، إن اللون والصحراء ستظهر كعقبات وهمية حين يجد الأفارقة أن الأبعاد المترامية ستصبح قريبة تحت ضغط الحاجات والآمال المشتركة ) وما يجري في افريقيا الآن من تحركات بين صدق هذه التوقعات التي تقوم على الحقيقة والتقدير الصحيح[1] .

---

(١) The Arab Middle East and Muslim Africa, Tibor Kerekes.

ولا يفوتنا ونحن نستعرض مراحل هذه المسيرة أن نقرر بأن أخطاء جسيمة ارتكبتها القيادات العربيـــة في هذه المرحلة أو دفعت لارتكابها قد ساعدت تماماً على نجاح الخطة اللئيمة ، ولسوف يظل من الصعب علينا أن نقطع بحسن النية ودور المصادفة في هذه الأخطـــاء ، أو نحاول البحث عن الاصبع الأجنبي الذي عبث بالكيان العربي في تلك المرحلة ودفعه في المزالق حتى صار الدعـاة الاسرائيليون يجـدون في التصرفات العربية ما يدعم حجتهم ويؤكـد منطقهم ، حتى لكأنما كانت التحركات في الجانبين تتجه وجهة واحدة لتحقيق مخطط مرسوم . ولسوف يأتي الحديث في هذه الأخطـــاء والتصرفات المشبوهة في أوانها من البحث ، إلا أنني أعتقد أن بروز موجة القومية العربية المتطرفة ، وحملتها العنيفة على التقارب الاسلامي ، مع تعاونها الكامل في أكـثر من قطر افريقي مع محاولات التسرب الشيوعي كان من أهم (المصادفات) التي استخدمتها الصهيونيـــة كسلاح فعال وخصوصاً مع الحكومات المحافظة ، واستحقت أن يهاجمها السيد محمد ضياء رئيس وزراء السنجال السابق وهو لم يكن معروفاً بعدائـه للعرب لأنها في تقديره ( عنيفة ، عدوانية ، تقوم على التعصب العرقي ) [1] .

---

(١) Nations Africanes et Solidarité Mondial

**البديل الاستعماري :**

من تكرار القول أن نتحدث عن الصلة بين اسرائيل والاستعمار القديم لأن هذا البحث يعود بنا إلى نشأة الدولة اليهودية والظروف الدولية التي أحاطت بها ، وهو بحث كثير التشعب وليس هنا مجاله على كل حال ، غير أن دور اسرائيل في افريقيا كان امتداداً للمهمة التي وجدت من أجلها في الشرق العربي ، وهي عزل الشعوب العربية في القارة الآسيوية عن الشعوب العربية والاسلامية في القارة الافريقية ، وخلق كيان عدواني شاذ في المنطقة لاشغالها بحروب وفتن لا تنتهي بقصد عرقلة تقدمها الاجتماعي والاقتصادي وحرمانها من الافادة من الفرص السانحة التي يقدمها الاستقلال .

ومن أهم النتائج المتوخاة أيضاً تفتيت الوحدة التي تقوم على التجانس الديني والحضاري في المنطقة عن طريق بعث الآمال القومية الضيقة والنفخ في رمادها الهامد ، ذلك لأن نجاح ( التجربة ) الاسرائيلية وبروز القومية اليهودية في وطن ودولة قمين بأن يشجع القوميات الأخرى في المنطقة لتحذو حذوها والنسج على منوالها بينما تقف اسرائيل والاستعمار وراء هذه التخيلات الواهمة لتجعل منها حقائق واقعة على حساب أمن المنطقة واستقرارها ، أو على حد تعبير بول جينوسكي الذي يعتبر متخصصاً في الشؤون الاسرائيلية : ( بالنسبة لاسرائيل فإن المنطقة ( الشرق الأوسط ) ليست

عالماً عربياً كما تسمى خطأ ، ولكن خليطاً من القوميات المختلفة حيث يوجد اليهود والدروز والاكراد والقبارصة والايرانيون والأقباط والمسيحيون اللبنانيون وغيرهم ، الذين يجب ان يتعلم العرب العيش معهم على قدم المساواة ) [١] . ولقد ذهب الأسرائيليون بتجربتهم الغنية في إثارة النعرات الطائفية والدينية إلى أفريقيا حيث تتهيأ تربة مواتية لتلك التجارب وحيث تواجه الدول الحديثة المشاكل المعقدة التي خلفها الاستعمار حين حرص دائماً على تكريس الانتماءات الأقليمية والقبلية وإلهاب أتونها المستعر .

ولسنا نتفق في الرأي مع القائلين بأن اسرائيل مجرد مخلب قط في أيدي القوى الأجنبية تحركها كيف تشاء وضد من تشاء ، ولكن نميل لعكس هذا الرأي وهو أن اسرائيل عن طريق عملائها الظاهرين والمستترين هي التي تحرك هذه القوى وتستفيد منها ، على أن القدر المتفق عليه بين الرأيين هو أن هناك توافقاً في المصالح السياسية والاقتصادية بينهما ، وهي على نقيض حاد مع مصالح الشعوب الحقيقية فما هي الظروف التي جعلت الاستعمار يراهن على اسرائيل ويضعها حيث يضطره نضال الشعوب للرحيل ؟.

في تقديري أن الخوف من اندفاعة عربية اسلامية جديدة

---

Paul Giniewski, Le Mond Diplomatic Mars 1973 (١)

في أفريقيا كان كابوساً حقيقياً سيطر على تفكير المخططين الكبار الذين أرادوا لأفريقيا شكلاً معيناً بعد الاستقلال ، وكانوا يحرصون – ما وسعهم الجهد – على تعطيل الأقنية التي ظلت تصل أفريقيا بالعرب قبل ان ينزل ( الرجل الأبيض ) ليربط القارة البكر بحضارته وثقافته ، وقد ساعد على ذلك أن اسرائيل في حقيقتها دولة أوروبية تقوم على أساس هذه الحضارة ، ولما كان اليهود يعتبرون دينهم فكرة سلالية ضيقة ولا يحرصون على التبشير به بين الشعوب ، ويدركون في نفس الوقت أن كل قوة للإسلام هي قوة للعرب في صراعهم ضد الغزوة الصهيونية ، فإنهم يشهرون كل ما في جعبتهم من أساليب الكيد والتعويق – كما فعلوا – ضد الإسلام ، بينما تبقى المسيحية منطلقة في حملتها النشطة دون منافسة أو عراقيل ، وقد ينبرى بعض ( الاعتذاريين ) لنفي هذا الاستنتاج وإعطاء الهجمة الاسرائيلية شكلها الاقتصادي القائم على حاجة الشعوب الأفريقية المساعدات والخبرات ومصادفة توفرها لدى اسرائيل ، ولكنني أعتقد أن شبح الانبعاث العربي – الاسلامي في أفريقيا كان يحوم فوق رؤوس المخططين وكان أحد الأبواب الواسعة التي دلفت منها اسرائيل للقارة السوداء .

ومن العوامل الأخرى المتصلة بهذا السبب هو حرص الدول الاستعمارية على إيجاد شريك مأمون الجانب في ( الصيغة )

الجديدة للتعامل مع الدول النامية والتي تعرف الآن بالاستعمار الجديد ( neo-colonialism ) ، وهي تعتمد أساساً على إعطاء تلك الدول حرياتها السياسية وتركها تحكم نفسها بنفسها مع التركيز على التجارة وابتكار كل الوسائل لدمجها اقتصادياً ، وبعبارة أخرى قلب الموقف القديم رأساً على عقب فبعد ان كان التحكم السياسي للوصول إلى السيطرة الاقتصادية ، أصبح الآن السيطرة الاقتصادية للتحكم السياسي فيما بعد .

على كل حال تبدو اسرائيل في هذا البرنامج الطموح مؤهلة لدور الشريك الذي لا يستغنى عنه ، فهي في ظاهر الأمر ليست قوة استعمارية يخشى منها على افريقيا ، كما أنها تملك المال والخبرات سواء عندها أو عن طريق المؤسسات اليهودية المنتشرة في كل الأقطار أو على حد تعبير شيمون بيريز وزير المواصلات في حديث لصحيفة ليموند الفرنسية : ( إن اسرائيل ستظل دائماً دولة صغيرة ، ولكن بإمكانها ان تكون اكبر مستغل ومصدر للعقول والخبرات ) أو كما قدمها الشركاء الكبار دولة حديثة الاستقلال تواجه من المشاكل الاجتماعية وظروف التنمية الاقتصادية ماتواجهه الدول الأفريقية الحديثة ، وباستطاعة تلك الدول الاستفادة من التجربة الاسرائيلية ( المعجزة ) التي أحالت الصحراوات إلى جنات وخلقت في الفدافد الخربة مدناً عامرة تموج بالحركة والحياة إلى آخر تلك

المعزوفة الدعائية التي لم تكف تلك الدوائر عن الترويج لها بكل وسيلة وأسلوب .

ولا شك أن من العوامل التي ساعدت اسرائيل على التقرب من الدول الأفريقية إلى جانب الأسباب التي أتينا عليها هو طبيعة نظامها ( الليبرالي ) غير الملتزم ، فهي دولة اشتراكية ولكنها لم تحرم الملكية الفردية أو المبادلات الحرة ولا يزال القطاع الخاص نشطاً يهيمن على جوانب هامة من الاقتصاد الاسرائيلي ، إنها اتخذت حلاً وسطاً بين الرأسمالية الاميركية والشيوعية الروسية ، وهذا الوضع الخاص جعل اسرائيل مقبولة عند الاشتراكيين الافريقيين وكذلك عند الانظمة المحافظة المرتبطة بالغرب .

على أن رعاية الدول الاستعمارية لليهود ليس شيئاً طارئاً أو ظاهرة حديثة ترتبط بأفريقيا وحدها كما يخطر على الذهن ، وإنما سياسة ثابتة يعود تاريخها لتاريخ الهجمة الاستعمارية على الوطن العربي والقارة الأفريقية ، وإن كانت قد اتخذت شكلاً جديداً بعد قيام الدولة اليهودية حيث أصبح بإمكان تلك الدولة أن تتولى تنفيذ الخطط بينما يبقى الشريك الكبير متلفعاً بالظلام ، ولا تحسبنا بحاجة للتذكير بأدوار الاستعمار البريطاني في دعم الغزوة الصهيونية فقد أصبحت إحدى الحقائق الراسخة التي نعيشها ليلاً ونهاراً ، أما في أفريقيا الشمالية فقد اتبعت نفس السياسة اذ شجعت الحكومات الفرنسية اليهود على

الاستيطـــان في المغرب والجزائر بعد أن منحتهم المغريات والامتيازات وأسباب الأمن والحماية .

يقول ابرام ليون ساشار في كتابه تاريخ اليهود [١] : ( في عام ١٨٣٠ حين غزا الفرنسيون الجزائر منحوا جميـع الفرص لليهود ليوثقوا علاقاتهم بالأوروبيين ، ولقد استجابت العناصر الذكية القوية لهذا الغرض بحماس،وكنتيجة لهذا الولاءاصدرت الحكومة الفرنسية ( قوانين كريميو ) على اسم الزعيم اليهودي الذي اقترحها ، والتي منحت بموجبها الجنسية الفرنسية لجميع اليهود ، ومنذ ذلك الحين أصبح اليهود جزءاً لايتجزأ من الحياة الاقتصادية والثقافية الفرنسية ) .

أما في أفريقيا السوداء فقد بدأ التمهيد للوجود الاسرائيلي ( الرسمي ) في نفس الوقت الذي بدأت تهب فيه رياح التغيير وحين ظهر أن الاستعمار الصريح المكشوف لم يعد ملائماً لمنطق العصر ولا بد من البحث عن الأقنعة والحلول البديلة ، ولذلك رأينا في أوائل الخمسينـات حركة مشبوهة لـ ( زرع ) اوتاد اسرائيلية في الدول التي تتهيأ للاستقلال أحيانـاً كقناصل فخريين أو مندوبي شركات حقيقية أو وهمية ، ولم يكن ذلك ليحدث لولا تشجيع الادارات الاستعمارية القـائمة ، ومن بين

---

(١) Abram Leon Sachar, A History of the Jews

هؤلاء شخص أذكره لما كان بيننا من مصادمات على صفحات الصحف الأفريقية خلال وجودي هناك وهو حنان يافور سفير اسرائيل في نايجيريا ما بين عام ١٩٦١ - ١٩٦٤ ، الذي خدم قنصلاً فخرياً في غانا قبل الاستقلال ، أما في ليبريا فقد كان هناك قنصل فخري في أوائل الخمسينات قبل أن تتبادل الدولتان التمثيل السياسي على درجة سفارة في عـــام ١٩٥٧ وهذه الصلة الخاصة جعلت ليبريا من أنشط الدول في دعم قرار التقسيم كما كانت الدولة الثـــالثة التي تعترف باسرائيل بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي .

وفي نفس الوقت تقريباً وبأساليب متشابهة بدأت الجيوب الاسرائيلية تظهر في الدول الأفريقية وتمارس نشاطها الاقتصادي والسياسي ومع نهاية حفلات التسليم والتسلم بين المستعمر القديم والحكومات الوطنية أصبح من الأمور المألوفة أن يظهر الوجود الاسرائيلي المستتر خافتاً في البداية واسعاً قويـــاً مع مضي الوقت .

ومع أن الدول الاستعمارية قد أعطت اسرائيل مجـــالاً للمناورة الحرة لتلعب دورها بنجاح ، إلا أن الخط الاسرائيلي كان في مواقف الجد الحاسم ، وحيث لا مجال للمناورة ، يظهر متجانساً مع الخط الاستعماري دون مواربة ، يقول الكاتب اليهودي موردخاي كرينين في كتـــابه عن الموضوع : ( لقد كانت سياسة اسرائيل في أكثر الحالات في تناقض كامل مع

مصالح شعوب أفريقية معينة ،فمثلاً سياستها المناصرة لفرنسا في ذلك الحين سواء في الجزائر أو في موضوع التفجيرات النووية كانت مقلقة للكثير من الحكومات الأفريقية، وكذلك حملة سيناء عام ١٩٥٦ كانت تعتبر حملة عدوانية، ولقد بقيت اسرائيل لفترة طويلة تتغيب عن التصويت في الأمم المتحدة ضد القرارات المناوئة للاستعمار كما أنها لم تصوت ضد جنوب أفريقيا في مسألة التفرقة العنصرية ، وفوق ذلك كله يعتقد أن أسلحة اسرائيلية قد وصلت للقوات البرتغالية المحاربة في انجولا ) ، وبالرغم من أن الزمن قد شهد بعض التبديلات في الموقف الاسرائيلي إلا أن ذلك يمكن ان يُدخل في باب المناورات الذي لايؤثر في جوهر المحالفة الصهيونية-الاستعمارية ولا يغير من أهدافها الثابتة البعيدة ، وبذلك تكون اسرائيل قد ردت للاستعمار دينه القديم والجديد ولاء بولاء ودعماً بدعم.

ولا تزال تطن في أذني كلمات السيد علي محسن نائب رئيس وزراء زنجبار ووزير خارجيتها وكانت الجزيرة الوادعة تستعد لاعلان الاستقلال حين زرتها عام ١٩٦٤ ، قال : (لست ادري سر هذا الغرام بين بعض الدول الغربية وبين اسرائيل ، هل تصدق ان ثلاثة سفراء لدول كبرى من المعتمدين لدى تنجانيكا قد اتصلوا بي بالهاتف مراراً وبالحاح طالبين دعوة اسرائيل لحضور احتفالاتنا ، وفي كل مرة أقول لهم : إننا دولة اسلامية وأنا شخصياً عربي فكيف تتوقعون مني ان أبرر ذلك

امام شعبنا ؟ ) على ان القضية لم تنته هنا فقد قـــامت ثورة مشبوهة كتلك العواصف العاتية التي تهب على الجزيرة الصغيرة من ظلمات المحيط فلا يعرف أحد كيف تجمعت وكيف تفرقت، ولكنها تركت وراءهـــا الدماء والاشلاء ، ولأول مرة تنزل الطائرات الاسرائيلية للجزيرة تحمل ( المساعدات ) لمنكوبي الحوادث ؟ وعندها - لا شك - توقف رنين الهاتف القادم من تنجانيكا وانقطعت توسلات الوسطاء .

أما في حقل التعاون الاقتصادي فقد ابتكرت اسرائيل فكرة تكوين شركات وبنوك بينها وبين بعض الدول الأفريقية بحيث تشترك معها في رأس المال دول ومؤسسات أوروبية بينما تحتفظ اسرائيل لنفسها بالمراكز الادارية لتحقيق اغراضهـــا السياسية ، وكمثال لهذا النشاط نقتبس مـــا ذكرته جريدة الجيروسالم بوست في عددها ٢٢ سبتمبر عام ١٩٦٢ عن برامج لتبادل زيارات بين لجان اسرائيلية مختصة وبعض الدول الغربية لانشاء مشاريع اقتصادية في أفريقيا ، ومع انه كان من الصعب علينا متابعة هذا النشاط المستتر متـــابعة شاملة لمعرفة هذا النوع من الشركات التي تحمل لافتات افريقية أو أوروبية بينما هي في واقع الحـــال مراكز للنشاط الاسرائيلي السياسي والاقتصادي ، وكمثال على هذا النوع من الشركات ذكرت الجيروساليم بوست في اواخر عـــام ١٩٦٢ عن تشكيل شركة الملاحة الليبيرية الوطنية بين ليبيريا واسرائيل وهولندا بحيث

تملك الحكومة الليبرية نصف الاسهم وتملك كل من شركة آرون روستفيلد الاسرائيلية وشركة فيرولم روتردام الهولندية النصف الآخر ، بينما يتولى إداريون اسرائيليون إدارة الشركة في منروفيا وقد اتبعت هذه السياسة في كثير من الأقطـار الأفريقية في مجالات مختلفة ، وقد جرت محـــاولة في منتصف الستينات لتوريط دول السوق الأوروبية المشتركة للتعاون مع اسرائيل في القيام بنشاط اقتصادي وزراعي في أفريقيا وكان أول من دعا لهذا البرنامج الاقتصـــادي الفرنسي اليهودي دي روش ( De Rousche ) .

وفي باب الضغوط الاستعمارية أذكر أنني سمعت أن رئيس دولة أفريقية ينوي زيارة اسرائيل ، بعد زيارة كان يستعد للقيام بها لعاصمة غربية كبرى ، ولما كنت قد تعرفت عليه شخصياً في بعض المناسبات السابقة فقد سـافرت إلى بلاده لمعرفة الحقيقة ، وفعلاً اجتمعت به وببعض كبـار مستشاريه وحرصت على استنفـار كل أسلوب ( عاطفي ) للتذكير بالمبادىء والعلاقات الطيبة ، والتلويح - بشكل غير مباشر - بما يمكن أن تحدثه زيارته المرتقبة من أصداء سيئة ، وقـد فهمت حينذاك أن الاشاعات غير صحيحـــة وأنه لا ينوي زيارة اسرائيل بالرغم من المغريات والوعود الكثيرة التي حملها له سفير اسرائيل في بلاده .

غير أنني دهشت حين سمعت بعد أسبوعين أن هذا الزعيم

قد قام فعلاً بزيارة لاسرائيل ووقع فيهـــا بعض المعاهدات التجارية والثقافية ، وحين عدت بعد فترة طويلة إلى عاصمـة بلاده أخبرني أحد كبار مستشاريه أنه تعرض لضغط شديد في تلك العاصمة الكبرى ليزور اسرائيل ، وقال : إن نجاح مهمته كان يتوقف على تلبية ذلك المطلب ، بقي أن نعلم أن أكثر من نصف ميزانية ذلك البلد الافريقي الفقير كان يأتي من تلك الدولة الأوروبية ، ولا بد أنهم حسنوا له فكرة أن تساهم اسرائيل في تطوير بلاده وإنعاش أوضاعهـا الاقتصادية والاجتماعية .

وإذا تركنا سياسة الدول الاستعمارية جانباً وهي سياسة كانت دائماً لاعتبارات كثيرة تميل لتمكين اليهود في القـارة الافريقية وتهيئهم لملء الفراغ ، إذا تركنا هـــذه السياسة العريضة وانتقلنا لجانب آخر هو جانب التأييد الفردي الذي يقوم به أفراد من اليهود أو من المتعاطفين معهم الذين منحتهم الظروف فرصاً واسعة بسبب المناصب العالية التي يحتلونها في حكوماتهم أو في المنظمات الدولية والشركات التجارية ، فإننا نجد أن اسرائيل كانت ولا تزال تملك جيشاً ضخماً ينتشر في كل ركن ويعمل كأخطبوط هائل تلتف أطرافه حول أعصاب العالم ، وهذه الحقيقـــة هي أحد المصادر الرئيسية للقوة الاسرائيلية التي لا يتأتى مثلها لأية دولة أخرى في العالم ، ويزيد من خطر هذه الأجهزة أنها كثيراً ما تكون مستترة

خلف واجهات بريئة لا تلفت النظر ، ومن ذلك ما نشرته جريدة الجويش كرونيكل في عددها الصادر في ٨ فبراير عام ١٩٦٣ ، حين ذكرت أن ثلاثين شاباً وشابة من اليهود على الأقل قد تطوعوا في فرق السلام الأمريكية التي تعمل في افريقيا ، وقالت المجلة : إن هذه المعلومات شخصية ( لأن ملفات فرق السلام لا تشترط معرفة دين الأعضاء المنتسبين إليها ) ، وينطبق هذا القول أيضاً على كثير من كبار الموظفين الذين كانوا يعملون مع الحكومات الافريقية في فترة الانتقال بين الحكم الاستعماري المباشر والحكم الوطني وهي التي يمكن أن نحددها على وجه التقريب في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات يقول مردخاي كرينين : ( إن الموظفين الأوروبيين في شرق افريقيا كانوا على الأغلب يرحبون بالخبراء والفنيين الاسرائيليين ، وهناك أمثلة عديدة على أن الفرنسيين فعلوا ذلك أيضاً في الدول الافريقية الناطقة بالفرنسية ) .

ومن المؤسف أن عناصر يهودية متنفذة في أجهزة الأمم المتحدة والمنظمات الدولية الأخرى كمنظمة الأغذية والزراعة واليونسكو ومنظمة الصحة العالمية ومكتب العمل الدولي وغيرها ، قد استطاعوا التأثير بوسائل ملتوية على تلك المنظمات لمساعدة اسرائيل في أمرين على الأخص : **الأول** هو عقد ندوات فنية فيها على نفقة الأمم المتحدة يدعى إليها

الطلاب والموظفون الافريقيون حتى يتيحوا لهم الفرصة للاحتكاك بالمجتمع الاسرائيلي بزعم ( إن ظروف إسرائيل مشابهة لظروف افريقيا ) ، والثاني هو إرسال مندوبين لهذه المنظمات الدولية في افريقيا من الاسرائيليين أو من اليهود من جنسيات مختلفة للاشراف على برامج إنشائية مختلفة باسم تلك المنظمات ، وكانت الخطة دائماً هي أن يمهد المندوب الاسرائيلي للمرحلة المقبلة التي يتحول فيها المشروع لمؤسسة اسرائيلية ، ومن ذلك أن منظمة الأغذية والزراعة الدولية ( F. A. O. ) أرسلت خبيراً اسرائيلياً في التعاونيات إلى جمهورية شاطىء العاج ، وقد اختير هذا الخبير من مجموعة تخصصت في اسرائيل في التدريس للمبعوثين من افريقيا الفرنسية ، وقد جاء اختياره من قبل المنظمة الدولية متفقاً مع الخطة الاسرائيلية التي كانت تميل لارساله مع تلاميذه ليشرف على نشاطهم في بلادهم وليتأكد من أنهم سيعملون وفق الفروع التي تخصصوا فيها ، ومن هذه الواقعة وأشباهها يتبين أن بعض المنظمات الدولية كانت تحمل عن اسرائيل أعباء الانفاق على خبرائها ومبعوثيها ، وقد ذكرت جريدة الجويش كرونيكل في عددها الصادر في ٢ سبتمبر عام ١٩٦٠ : أن الاسرائيليين يعملون في أقطار آسيا وافريقيا بتعاقد مباشر مع تلك الدول عن طريق وزارة الخارجية الاسرائيلية ، غير أن هناك آخرين يعملون في تلك الأقطار تحت رعاية الأمم

المتحدة ، بعقود نظمتها إدارة المساعدات الفنية الملحقة بمكتب رئيس الوزراء .

وأذكر أننا أثرنا ضجة احتجاج عام ١٩٦٥ وما بعدها حين ساقتنا الصدف لبعض مكاتب هذه المنظمات في أقطار افريقية عديدة وهالنا أن وجدنا أعداداً من الموظفين اليهود يفوق بمراحل كثيرة النسبة العددية الممنوحة لاسرائيل كعضو في الأمم المتحدة ومنظماتها ، وكان الاعتذار الجاهز دائماً هو ان هؤلاء الموظفين ليسوا موظفين اسرائيليين وإنما يتبعون جنسيات اخرى ، أما كونهم يهوداً فأمر لا يمكن علاجه لأن الدين ليس شرطاً من شروط التوظيف ، أما كيف تقع هذه المصادفات المواتية لاسرائيل ؟ وأين يقبع الدماغ السرى الذي يوجه هذه الحركات ؟ فأمر لم يكن أحد ليود ان يناقشه.

على ان هذه الضجة قد أفادت حتماً في تنبيه المندوبين العرب في تلك المنظمات كما لفتت أنظار كبار المسئولين بها حتى سمعنا منهم من يقول بضرورة مراجعة هذه السياسة والتأكد من أن أي دولة لا تأخذ اكثر مما يعطيها لها حقها كعضو، إلا أنني غادرت افريقيا ولم أعلم إلى أي مدىً تحقق تنفيذ تلك الوعود،وعما إذا كانت اسرائيل قد لجأت لأسلوب آخر يضمن لها بقاء ذلك النفوذ .

## الفساد .. سلاح اسرائيل السري :

لليهود تاريخ طويـــل في أساليب السيطرة عن طريق الأساليب الملتوية كشراء الضمائر واستغلال الشهوات والتحكم في المجتمعات بواسطة الاستيلاء على بعض القادة والزعماء من خلال الضعف البشري أمام المغريات ، وفي الحقل الافريقي، استخدم اليهود هذا السلاح الرهيب على اوسع نطاق كما انــه أدى ثماره ( الوقتية ) العاجلة قبل ان يفطن الوطنيون الى تأثيره الهدام على المجتمع الجديد ، ويحاربوه .

ففي عام ١٩٦٣ اكتشف المسئولون الأحباش ان شركة ( سوليل بونيه ) قد قدمت رشوات بلغت قيمتها نصف مليون دولار للمشرفين على مشروع مدينة هيلاسلاسي الرياضية ممـا أدى إلى إيقاف عدد من المسئولين الوطنيين والأجانب ، إلا أن العلاقات الخاصة بين أثيوبيـا واسرائيل قد ساعدت على تغطية القضية بحيث بقي تأثيرها محصوراً في النطاق المحلي ، إلا أن شركة ( Sopicad ) الاسرائيلية للتنقيب عن المعادن كانت أسوأ حظاً حين اكتشفت حكومة جمهورية افريقيـــة الوسطى انها تدفع رشوات لبعض كبار الموظفين حتى تفلت من الضرائب ، فاضطرت لطردها من البلاد في يونيو عام ١٩٧١ .

ولقد شاعت هذه الأساليب في كل عاصمة عملت فيهـــا الشركات الاسرائيلية ، ففي نايجيريا سجلت ( لجنة كوكر )

التي شكلت في عام ١٩٦٥ للتحقيق في المناخ السياسي المضطرب في غرب نايجيريا أن من أسباب الأزمة ان الشركات الاسرائيلية قدمت رشوات كبيرة لبعض السياسيين ( ومن بينهـــا بناء بيوت ضخمة وتقديمها لهم كهدايا في مناسبات الزواج وأعياد الميلاد ) ، ولقد كانت هذه الرشوات ثمناً للسكوت على مخالفات خطيرة أدت لأزمة اقتصادية في الأقليم ، فقد ذكر التقرير الرسمي الذي رأسه المستر ( كوكر ) أحد قضاة المحكمة العليا : ( أن اللجنة مقتنعة أن إقدام حكومة الغرب على إعطاء ضمانة مالية بمبلغ ثلاثين مليون جنيه يعتبر تصرفاً غريباً وغير معقول لأنه يعطي شركة نايجر سول ( وهي الشركة التي يسيطر عليها الاسرائيليون مالياً واداريا ) ميزة غير عادلة على الشركات الوطنية ، كذلك يجب أن نذكر أن هـذه الأموال الوطنية كانت تسرب للخارج وتودع في البنك الانجلو اسرائيلي وهو بنك تعاوني برأس مال اسرائيلي ، وفي هذه الواقعـــة التي تكررت في أكثر الأقطار الأفريقية تظهر ملامح الخطة اللئيمة كما يظهر الأخطبوط الصهيوني ذو الأطراف المنتشرة في العالم ، الذي ينشب أنيابه في الأقطار الحديثة ليمتص دماءها وخيراتها باسم المعونات والخبرات ثم يسربها لمعقل العدوان في الشرق الأوسط ، لذلك لم يكن عجيباً — كما ذكرنا — ان يفطن المفكرون لحقيقة هذا الخطر وأن يبدأوا في التحذير منه في ذلك التاريخ ، وقد سبق للسيد اوسيام رئيس اتحاد المتعهدين

النايجيريين ان ندد في مؤتمر صحفي في اوائل عـــام ١٩٦٣ بالسياسيين في بلاده ( الذين يفضلون الشركات الاسرائيلية على الشركات الوطنية لأنهم يستفيدون منها ) .

كما كتب السيد دان توسمن في جريدة نايجيريا تريبيون مقالاً مطولاً حول هذا الموضوع قال فيه : ( لقد ثبت من المحاكمات ومن التقارير الرسمية ان اسرائيل تعمل على إفساد ضمـــائر الحكام والقـادة ) ، وقال : إن ذلك يثبت إن النشاط الاسرائيلي ليس لمصلحة أفريقيا اقتصادياً أو أخلاقياً ثم ختم مقاله بالقول : « إنني أعتقد أن الوقت لن يطول حتى نكتشف الدوافع الحقيقية لاسرائيل ، وان أملي ألا يظهر هتلر جديد في أفريقيا يضطر إلى طرد اليهود على الطريقة الهتلرية !!)

أما الكتاب والصحفيون والأذاعيون فقد كانت تنظم لهم رحلات مترفة إلى اسرائيل حيث يتـــاح لهم زيارة المصانع والشركات والمستعمرات ، وتقام لهم الحفلات الساهرة وتقدم لهم ( الهدايا ) قبل ان يجتمعوا بكبار المسؤولين الذين يحدثونهم عن دور اسرائيل الحضاري في الشرق الأوسط وأفريقيـا ، وحين يعودون إلى بلادهم يكتبون هذه الانطباعات في صحفهم وينشرونها في محطات الإذاعة والتلفزة التي يعملون بهـا ، وكانت السفارات الاسرائيلية تتولاهم بالعنـــاية عند عودتهم وتظل على صلة دائمة بهم حتى يستمر سيل الدعاية ماضياً دون انقطاع .

وقد تحدث الكاتب والسياسي النايجيري ( اولو ايجندو )
بعد عودته عن الكرم الاسرائيلي في مقال مطول نشرته له
جريدة الديلي اكسبرس بلاجوس في اغسطس ١٩٦٤ وقد
توسطت المقال صورة كبيرة له مع الجنرال اسحق رابين رئيس
اركان الجيش الاسرائيلي في ذلك الحين تحت عنوان (شالوم،
شالوم ) ولم ينس ان يتحدث عن انطباعاته عن الحياة الليلية
الناعمة في ملاهي اسرائيل ، وقد أعجبه بشكل خاص ناد
يعكس العقلية اليهودية التجارية حيث شاهد لوحة بارزة
مكتوب عليها ( اننا نثق في الله فقط اما الزبائن فيجب ان
يدفعوا نقداً ) .

وقد بذلت السفارات الاسرائيلية جهداً خاصاً مضنياً
(لاصطياد ) بعض الشخصيات الإسلامية بالذات لكي تنضم
الى جوقة الداعين لاسرائيل ، وقد اتيح لي بحكم منصبي الرسمي
وبحكم صلاتي الشخصية القديمة بالكتل الإسلامية أن أطلع على
شيء من هذا النشاط في هذه الناحية ، ومع أن هذه الجهود
قد أثمرت في البداية إلا أنها اصطدمت شأن النشاط الاسرائيلي
كله بالحقائق الثابتة في الكيان الأفريقي ومن بينها الصلات
الإسلامية ، إلا أنني اعترف الآن انني اعجبت — من الناحية
الفنية على الأقل — كيف ان الدبلوماسيين الاسرائيليين قد
حاولوا تحدي الوجود العربي حتى بين المسلمين واستطاعوا أن
يحصلوا بعض الانتصارات بالرغم من أن كل الحقائق كانت

تجري في غير صالحهم وعلى نقيض ما يريدون . أذكر أن وفداً من مسلمي جمهورية الداهومي زارني في لاجوس في عام ١٩٦٥ ليخبرني أن سفير اسرائيل في ( كوتونو ) قـــد زار المسجد الرئيسي هناك وأبدى ألمه لأن هذا المسجد الجميل لم يتم بناؤه، ثم عرض عليهم فكرة أن يسافر وفد منهم إلى اسرائيل لطلب المعونة من ( إخوانهم المسلمين ) هناك وأكد لهم أن الوفد سيرجع حتماً بالقدر الضروري لإكمال المسجد على أحسن وجه، كما أكد لهم إمكانية إحضـار مدرسين للغة العربية والعلوم الإسلامية من اسرائيل، وقد جاء الوفد عندي ليسألني عما إذا كان هناك أي حرج من أن ( نضحك ) على اليهود ونستفيد منهم في بناء مسجدنا وقد حاول رئيس الوفد أن يبين لي أن ذلك جـــائز ولا مانع منه . ولست أدري كيف توصل لهذه الفتوى ولكنني حاولت أن أبين لهم الآثار السيئة التي تطغى على أي فائدة مادية ترجى من ذلك القرار ، وفعلاً لم تتم رحلة الوفد ولكن بقيت زيارة السفير اليهودي للمسجد وملابساتهـــا صورة حيـــة في ذهني عن الدبلوماسية النشطة المتحركة التي تتصل بالأعداء والأصدقـاء دون أن تكتفي بالجلوس في الأبراج العاجية ودراسة الاوراق والأضابير .

كذلك كنا نعلم أن سفراء اسرائيل عرضوا على الكثير من المدارس والمعـــاهد الإسلامية تزويدهم بمدرسين للغة العربية

والدين ، ولكن كل هذه العروض رفضت فيم أعلم إلا أنها لفتت نظرنا إلى فجوة مهمة مما دعانا لعقد مؤتمر خاص في ابادان لتنظيم تعليم اللغة العربية حضره عدد وفير من المشتغلين في هذا الحقل من أقاليم نايجيريا والبلاد المجاورة ، وقد قامت رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة بالإتفاق على عقد هذا المؤتمر الذي استمر ثلاثة ايام في مناقشة الجوانب المتعددة للمشكلة ومن بينها جلب مدرسين من البلدان العربية ومقاومة كل اتجاه لدخول اسرائيل في هذا الميدان .

على ان الدعاية الاسرائيلية قد ارتكبت إحدى خطيئاتها الكبرى حين قامت بتوزيع مصاحف من طباعة اسرائيل في بعض بلدان غرب افريقيا ، وقد حدث ان اكتشفت بعض أخطاء مطبعية فيها ، مما أدى إلى حملة دعاية واسعة تناقلتها المنظمات الاسلامية في طول القارة وعرضها أن اسرائيل تتعمد العبث بالكتاب الكريم وهي تهمة لا يمكن التساهل فيها بين المسلمين وخصوصاً في افريقيا .

لقد ذكرت هذه القصص كأمثلة على محاولات كثيرة متنوعة في افريقيا الاسلامية لم تفشل كلها يقيناً ، بل ان بعض الزعماء الذين يحملون أسماء اسلامية قد زاروا اسرائيل وأيدوا وجهة نظرها مقابل المغريات والرشوات كغيرهم ، ذلك أن الفساد شركة عامة لا نستطيع ان ندّعي ان المسلمين ليس لهم فيها نصيب .

لقد نجح سفير اسرائيل النشط المستر شيلوش في نايجيريا في إقناع وفد ( اسلامي ) يرأسه السيد ر. أ. لاجودا في أواخر عام ١٩٦٥ لزيارة اسرائيل ، ومع ان السيد لاجودا كان مواطناً نايجيرياً عادياً إلا ان الدعاية الاسرائيلية في حينها قدمته على أنه من كبار زعماء المسلمين في افريقيا الغربية ، وبعد عودة الوفد من اسرائيل تحدث للصحف باعجاب شديد عن مشاهداته في اسرائيل ، غير ان الوفد وأعضاءه قد قوطعوا تماماً من المنظمات والهيئات الاسلامية ، بل من أقربائهم أيضاً ، باعتبار ان ما فعلوه يشكل انحرافاً عن الدين نفسه ، ولم تنته هذه القطيعة حتى كتب السيد لاجودا بنفسه سلسلة من المقالات أوضح فيها الوجه الآخر من الصورة وتكلم مطولاً عن المغريات التي تعرض لها وزملاؤه ، في اسرائيل ، وقال : إن هدف السفير الاسرائيلي - كما فهمه متأخراً - هو إثبات أن تضامن الشعوب الاسلامية مع العرب خرافة لا وجود لها، وأنه كان حريصاً على تفتيت التكتل الاسلامي بين الافريقيين أنفسهم ، وأبدى أسفه الشديد أنه وقع فريسة سهلة لهذا الاغراء الشيطاني ، وقد أحدثت هذه المحاولة الاسرائيلية كغيرها تأثيراً عكسياً للسياسة الاسرائيلية ، حتى ان صديقاً صحفياً أبلغني بعد ذلك ان السفير اليهودي كان متألماً من هذه الواقعة ، وأبدى اعتقاده أن لا فائدة يمكن ان ترجى من المسلمين ، وقد لاحظنا فعلاً ان هذا ( النوع ) من المحاولات قد توقف إلى حد كبير .

أما محاولة استغلال العنصر النسائي في التأثير على القـادة والصحفيين والمفكرين فأمر أصبح معروفاً، وليس مما يتناسب مع وقار هذا البحث وجديته أن نخوض فيه كثيراً ، غير انه ثبت أن اسرائيل قد طبقت بأمانة العبارة الساخرة للمفكر الفرنسي لامينيه ( إذا أردت أن تحكم الرجـــال فلينمهم بالشهوات ! )، وهو أسلوب ليس جديداً في تاريخ اليهود منذ استر ودليـلة وحفيداتهن على مرّ العصور ، ولا أزال اذكر تلك المقابلة العاصفة مع المرحوم توم مبويا نائب رئيس الوزراء ووزير العدل في كينيا في صيف عـــام ١٩٦٤ ، وكان عائداً لتوه من رحلة شهر العسل في اسرائيل بدعوة من حكومتها ، وكانت له تصريحات موالية لاسرائيل كتلك التي أشرت إليها على لسان مايكل اوكبارا في نايجيريا ، وقـــد استقبلتني في مكتبه شابة رائعة الجمال قال لي فيما بعد انها سكرتيرته وانه حملها معه من اسرائيل بعد زيارته تلك ، وقد وجدتني أعلق على ذلك بسخرية مشوبة بالمرارة، ان هذه معركة غير متكافئة وخليق بالعرب ان يخسروها لأنهـــا ليست من طباعهم ولا يستطيعون ان يجاروا فيهـــا أولئك الذين يعتبرونها جزءاً مشروعاً من التقاليد الموروثة .

وحين أخذت أحدثه عما أتصوره من الأخطار الاسرائيلية لا على العرب وحدهم ولكن على استقلال افريقيا ، وأنا انقل الحوار هنا من مقال نشرته لي صحيفتا الحياة البيروتية والمنار

المقدسية في ذلك الحين قلت : ( لقد عبرت له في مجال الحديث عن اسرائيل عن حيرتي إزاء هذه الهجمة الواسعة وهل هي وليدة الصدفة العارضة أم التدبير الواسع ، وخصوصاً إذا تذكرنا ان شرق افريقيا كانت هي إحدى المناطق التي رشحتها وزارة المستعمرات البريطانية للاستيطان اليهودي ، فلمعت عينا محدثي دهشة واستغراباً ثم قال : لا يمكن أن تكون جاداً حين تقول ان من الممكن ان يمتد الكيان الاسرائيلي الى قلب افريقيا ، قلت : ان اليهود تناولوا قصاصة ورق غامضة اسمها « وعد بلفور » وجعلوها أساساً لاحتلال فلسطين وتشريد أهلها ، ومن يدري لعلهم الآن قرروا قبول العرض المتعلق بشرق افريقيا )، وشعرت ان البحث ينتهي بنا الى حائط مسدود خصوصاً حين أطلت السكرتيرة الشقراء تخبره أن موعد اجتماع آخر قد أزف وكانت إشارة لي ايضاً ان الاجتماع قد انتهت مدته المقررة ؛ ولست أحاول بهذه القصة أن أغمز في أخلاق السيد توم مبويا أو غيره ، كما انني أبعد ما أكون عن التعميم في هذه التهمة ، فقد ثبت من وقائع أخرى أن أغلب الزعماء الأفريقيين قد استعصوا على الاغراء اليهودي ورفضوا أن يبيعوا مصالح بلادهم وشرفها بالمغريات اليهودية ، وإن كانوا قد انخدعوا بما قيل لهم عن إمكانيات اسرائيل الضخمة ونفوذها الكبير ومقدرتها التي لا تجارى في مساعدتهم على تعمير بلادهم وإسعاد شعوبهم ، غير ان هذه الوعود الخلابة قد انفجرت في الهواء او في طريقها للانفجار الكامل، ولعلنا

نشهد الآن بداية التحول المضاد العنيف الذي يشكل في التاريخ مأساة اليهود بل مأساة الانسانية باليهود ، حين يستخدمون عبقريتهم في نسج خيوط المؤامرات والفتن حول أعناق ضحاياهم ، وقد ينجحون لبعض الوقت غير أن يقظة الضمير تقع في النهاية وتلتف حبال التآمر حول أعناق اليهود ، وعندها يصيحون ضد الاضطهاد واللاسامية والتعصب الديني التي هي في الواقع من نسجهم وغرس أيديهم .

# بين العرض والطلب

# العروض الإسرائيلية وحاجات أفريقيا

لقد أوضحنا الآن طبيعة المؤامرة الضخمة وأشرنا بالقدر الممكن من الوضوح للأطراف المشتركة فيها والدوافع السياسية والاقتصادية والدينية التي حركتهم في اتجاه واحد، واحسبنا قد أحطنا الآن بالاطار العاطفي الذي افتعلته الصهيونية والاستعمار وزيفت فيه حقائق الدين والتاريخ لتخلق مناخاً مواتياً للهجمة الصهيونية، وتبدو معرفة المؤامرة بكل أبعادها ضرورية للغاية ولا ندعي أننا وفيناها حقها الكامل من التوضيح لأنها تستحق دراسة مستفيضة من أكثر من مصدر، ذلك لأنها الأساس الذي انطلقت منه التحركات الأخرى والتي ما كانت لتنجح لولا هذا التخطيط المدبر.

وننتقل الآن لركن من البحث هو وثيق الصلة بالمخطط وإن كان يبدو للنظرة السطحية بمعزل عنه، ونعني به الوضع المجرد في أفريقيا القائم على العروض الاسرائيلية وحاجات المجتمع الجديد لهذه العروض، والمناخ العام الذي تهيأ ليصبح العرض

ملائماً للطلب ، والمساعدات تبدو وكأنها ملبية للضرورات والحاجات .

من المعلوم أن أفريقيا لم تكن في نظر الدول الاستعمارية أكثر من مزرعة كبيرة يعمل أهلها لاستخراج خيراتها وكنوزها للسادة الأوروبيين دون أن ينالوا منها إلا مايقيم الأود ويبقي على الحياة ، حتى لا يتعطل العمل أو يتراخى الانتاج ، وحين اجتمعت ظروف دولية معينة بعد أن توقف بركان الحرب العالمية الثانية أصبح لا بد من خروج المستعمر وإعطاء هذه الشعوب حقها في الاستقلال، وواضح أنه لا السيد ولا السجين كان متوقعاً هذا التغير الكبير أو مستعداً له ، أو كما يقول دافيد ريد في كتابه الطريق الوعر للحرية : ( كانت غانا أول دولة تستقل في اواخر عام١٩٥٧ وكان استقلالها مجرد تجربة، ولكنها التجربة التي اطلقت الجنيّ من القمقم )(١) ، ولذلك أخذ الطرفان يواجهان مشاكل لا حصر لها وان اختلفت دوافعها واسبابها .

أما مشاكل الدول الاستعمارية فمعروفة ويمكن ان تتلخص في فقدانها لمصادر الثروة الهائلة، والتفكير المتصل في استعادتها باسلوب أو آخر ، واما مشاكل الدول الحديثة فكانت أكثر تعقيداً ذلك لأنه كان عليها أن تواصل المسيرة التي عطلها

---

(١) The Rocky Road to Freedom, David Reed.

الاستعمار في كل مجال ويكفي للتدليل على ذلك أن دولة من أغنى الدول الأفريقية وهي الكونجو ( زائير ) وجدت نفسها بعد اثنين وخمسين سنة من الحكم البلجيكي المستمر وليس بها أكثر من ثلاثين شخصاً مؤهلين – نسبياً – ليحتلوا مراكز ادارية من شعب بلغ عدده ستة عشر مليوناً عند الاستقلال ، كان بلداً بلا قيادة ولا ادارة ولا إطارات ، ومع أن هناك تفاوت في الصورة وكانت هناك بلاد أحسن حظاً من الكونجو إلا أن الفجوة بين الواقع المتخلف والأهداف التي تسعى تلك الشعوب لبلوغها كانت دائماً فجوة واسعة ، وكان على الزعامات الوطنية أن تركز كل جهودها لمواجهة الاختيار العسير في علاج المشكلات الاجتماعية والاقتصادية المعقدة حتى تدرك ما فاتها ، ولذلك فقد كانت مستعدة لتلقي المساعدات المالية والفنية على اختلاف أنواعها من كل سبيل .

ولا اجد كدليل على اتجاهات القادة الوطنيين خيراً من كلمات الرئيس جومو كنياتا في مقاله المنشور في عدد عام ١٩٧٠ من كتاب العام للموسوعة البريطانية : ( إن اهداف سياستنا الأساسية أن نهيء للأغلبية العظمى من شعبنا أرضاً يزرعونها وبيوتاً يملكونها واعمالاً ثابتة يرتزقون منها وحين نستطيع أن نفعل ذلك فان الاستقرار يمكن أن يسود في القارة ) (١) .

---

(١) The emergence of kenya, By Jomo kenyata
( Book of the year 1970. )

إن المشكلة الاساسية في نظر الزعامات الوطنية هي البدء من نقطة الصفر أو فوقها بقليل لاعادة بناء الكيان الوطني وإخراج المواطن الأفريقي من حياته البدائية التي تركه فيها المستعمر الأوروبي إلى أول مراحل المجتمع المتحضر .

وكانت هذه الحالة السيئة هي الباب العريض الذي دلفت منه اسرائيل، ولكن لماذا اسرائيل قبل غيرها ؟ للإجابة على هذا السؤال يجب ان تظل عيوننا مركزة على المؤامرة التي أشرنا إليها لأن فيها يكمن المفتاح الأساسي لهذا اللغزالسحري، ولكن البحث الموضوعي يقتضي التوسع قليلاً في شرح الأسباب العملية التي جعلت ذلك الاتصال ممكناً .

لقد وقع بعض القادة الافريقيين في تقدير خاطيء توشك صورته أن تنجلي الآن ، وخلاصته أن اسرائيل من حيث حجمها وعدد سكانها وموقعها الجغرافي البعيد لا تشكل خطراً استعمارياً لأفريقيا ، بينما تتوفر لديها القدرات المادية والفنية المساعدة في مرحلة البناء ، ولذلك تصبح الشريك المثالي الذي يمكن ان يستفاد من تجاربه وخبراته دون خوف من العقابيل والسيئات ، وقد دفع الأفريقيين لهذا الموقف عقدة الخوف المستحكم من الاستعمار الغربي ، والشكوك الكبيرة التي تساورهم في نوايا الكتلة الشرقية ، ومن هنا جاءت الحساسية الشديدة ضد أي مساعدات بدوافع سياسية ، وقد ذكر التقرير السنوي

الذي نشرته المنظمة الدولية لمساعدة أفريقيا جنوب الصحراء ( Fama ) بعد اجتماعها السنوي في لاجوس عام ١٩٦١ ، أن كل اقطار افريقيا تصر على التأكد من أن المساعدات المالية أو الفنية لا تحمل أي طابع سياسي .

على أن هذا الموقف الحذر بين الكتلتين الدوليتين قدساعد في الوقت نفسه على بروز موقف مشابه إزاء الايديولوجيات والعقائد والانظمة التي تمثلها الكتلتان ، وهذا التوازن في النظرة العملية والعقائدية أدى إلى البحث عن ( قوة ثالثة ) بين القوتين ، يتمثل فيها نظام لا هو بالرأسمالي القائم على الأقطاع والطبقية ولا هو بالشيوعي المنكر للحرية والمبادرات الفردية ، وفي هذه الفجوة التي صنعتها التناقضات الدولية ورواسب الاستعمار القديم ظهرت اسرائيل مرة اخرى تجربة تحتذى ومركزاً يلتمس عنده القوة والعلاج ، ويكفي في هذه لنقطة الهامة كمثال على هذا الاتجاه آراء زعيمين افريقيين تركا طابعاً عميقاً في التفكير الأفريقي المعاصر وهما كوامي نكروما ليوبولد سيدار سنجور ، يقول نكروما كما يقتبس آرنولد يفكين في كتابه ( افريقيا والغرب ) : إن الرأسمالية نظام عقد لدولة حديثة الاستقلال، وهنا تبدو الحاجة للاشتراكية، ا سنجور فيقول ( نفس المصدر ) : أن ما نريده هو تراكية متحررة وغير ملتزمة مذهبياً ، وفي الكتاب الذي

ضمنه سنجور فلسفته في الاشتراكية الأفريقية ( Nation et voie Africane du socialisme) قــال : ( إن الاسرائيليين والصينيين عرفوا كيف يجدون طريقهم للاشتراكية الآسيوية الملائمة لواقع بلادهم ، وهناك توجد جهود مثالية يجب ان نستفيد منها ) وفي مقابلة نشرتهـا جريدة نيويورك تايمز في عددها الصادر بتاريخ ١٥ يوليو ذكر رئيس جمهورية أفريقيا الوسطى ان بلاده قد اختارت طريق الاشتراكية ثم ذكر التجربة الاسرائيلية كمثال يحتذى .

ويكاد الانسان لا يملك نفسه من الابتسام المرير حين يدرك ان التنافس الدولي بين الكتلة الغربية والشرقية حيث يحاول كل فريق أن يحد من نشاط الفريق الآخر كانت حصيلته في النهاية تعود لاسرائيل !.

## الاشتراكيون الأفريقيون واسرائيل :

لقد أشرنا في لمحة عابرة إلى العلاقات الخاصة التي قامت بين الاشتراكيين الأفارقة وبين نظرائهم في اسرائيل أومع التكتلات العمالية التي يشرف عليها اليهود في بلاد أخرى ، غير أن هذا العنصر من البحث يحتاج إلى وقفة تأمل أطول لأن هناك ميلاً في البلاد العربية لإعفاء الاشتراكيين الأفارقة – ولا سيما – من وصفوا بالثورية من هذه التهمة ، غير ان القبول بهذا الحكم

يقدم صورة مشوهة للموقف كما يحرم الباحث العربي من معرفة عوامل مهمة في نجاح المخطط الاسرائيلي ، لا سيما وان النكسة الراهنة لا تعني بالضرورة ان الخطر قد زال نهائياً من التربة الأفريقية ، كما يعني ان من الممكن تكرار التجربة على صورة أو أخرى .

في إطار الهيكل الذي رسمناه للواقع الأفريقي يبدو غريباً ن يكون اكثر الزعماء المتمردين على الاستعمار الغربي والمتصدين ا يسمى بالاستعمار الجديد هم في ذات الوقت أكثر النـــاس ممساً للتعامل مع اسرائيل ، وتلك هي الظاهرة التي تظل ريبة برغم كل المبررات والمعاذير التي تقال والتي أشرنا إليها ، ير أن الأغرب هو الميل لدى بعض العرب في الماضي والحاضر تغطية على هذا الدور ، ربما لحماية الفكرة الاشتراكية نفسها اعفائها من الحرج حين يظهر انها القاسم المشترك الذي يلتقي نده بعض العرب مع رفاقهم الأفارقة واليهود ، أو غير ذلك ، الأسباب التي يمكن أن يتخيلها الباحث .

غير ان ذلك يسوق للسؤال الهـــام وهو هل يعطي شتراكيون العرب الاولوية لزمالة المذهب فوق متطلبـات ضية القومية ؟ ، والواقع ان الجواب على هذا السؤال مهم نسبة لهذا البحث ، لأن تقبل الزعامات العربية وصداقاتها القادة الأفارقة الضالعين مع المخطط الاسرائيلي قد أوجد لباعاً قوياً في طول القارة وعرضها ، أن حماس العرب للقضية

الفلسطينية هو حماس مصطنع للاستهلاك المحلي وخداع الشعوب الساذجة ، ومن تجاربي الشخصية الكثيرة مع زعامات أفريقية تتفاوت في تأييدها للعرب كنت اسمع منهم دائماً أنهم ليسوا على استعداد لمعاداة اسرائيل وحلفائها والتضحية بمصالح شعوبهم بينما أصحاب القضية أنفسهم لا ينظرون إليها كأكثر من لعبة في حلبة السياسة المحلية ، وكان من (الأدلة) التي تساق على ذلك مظاهر الود العميق بين الاشتراكيين العرب ورفاقهم الأفريقيين الغارقين حتى قمة الرأس في النشاط الاسرائيلي ، وكان من المفارقات التي تحير المراقبين – مثلاً – موقف الحكومات العربية الاشتراكية من المنازعات التي تنشب بين نكروما والزعامة الأسلامية في نايجيريا إذ كانت دائماً تأخذ صف الزعيم الغاني بصرف النظر عن الخطأ والصواب ، كانت هذه المواقف تبدو غير مفهومة كالألغاز التي تطرح لارباك العقول وتحيير الألباب ، على أنها تنتهي دائماً إلى نتيجة واحدة هي ان قضية اسرائيل ليست هي الأصل في التفكير العربي ، وليس موضوعها هو المحك الذي يحدد به العرب عداوة الأعداء أو صداقة الاصدقاء ، وهذا المظهر من التراخي وعدم الجدية كان يؤثر في مواقف السياسيين الأفريقيين ذوي النظرة العملية الذين يحبون أن يسموا الأشياء بأسمائها وألا يخوضوا في معارك لا تهم مصالحهم الأساسية .

وكصورة عابرة من صور هذا التناقض جاء في نشرة

منظمة التحرير الفلسطينية رقم ٤٣ عن التغلغل الاسرائيلي في افريقيا (١) ان الحكومة الغانية أقامت عرضاً تجارياً في صيف عام ١٩٦٧ اشتركت فيه اسرائيل ، وكان أبرز ما تخلل هذا المعرض ما أعلنته سفارة اسرائيل في أكرا عن تقديم جـائزة مقدارها ألف دولار لأحسن كاتب مقال عن القدس كمدينـة سياحية وعن المميزات الأخرى لدولة اسرائيـل ، وليس في الخبر مدعاة للغرابة ، إلا أن الكاتب يصر على أن يضع بين قوسين أن ذلك قد تم ( بعد ذهاب نكروما ) ممـــا يعطي الانطباع أن نكروما كان سداً منيعاً أمام تسرّب إسرائيل في عانا وأن إسرائيل لم تجد لها موطىء قدم إلا بعد زوال تلـك العقبـة الكؤود ، مع أن الكـاتب يورد تواريخ وإحصاءات للنشاط الاسرائيلي في غانا تقع كلها أثناء حكم ( اوساجيفو ) المنقذ الافريقي العظيم .

بل إن دور نكروما لم يقف في ذلك الحين عند حد قبول اسرائيل في بلاده ومنحها فرص التوسع بل تعداها إلى تزكيتها في أفريقيا وتقديمها كنموذج يحتذى لرواد الاشتراكيـــة الافريقية ، يقول مردخاي كرينين في باب ( تاريخ وإطـار البرنامج الاسرائيلي ) في كتابه حول الموضوع : إن تأثير التعاون بين إسرائيل وغانا قد تألق فوق القارة الافريقية ،

---

(١) التغلغل الاسرائيلي في افريقيا بقلم : رياض القنطار

كما أن بذور تلك العلاقات قد غرست أثناء اجتماعات القادة الغانيين والاسرائيليين في المؤتمرات الاشتراكية الدولية وغيرها من المؤتمرات ، ويقول الكاتب اليهودي أيضاً بعد قليل : إن الاتصالات مع الأقطار الافريقية الأخرى قد تمت ايضاً من هناك ، فإن الرئيس نكروما قام بتقديم رشيد كاواوا نائب رئيس وزراء تنجانيقا إلى وزيرة خارجية اسرائيل ( جولدا مائير ) أثناء اجتماع المؤتمر الاشتراكي الافريقي في أكرا ، ويبدو أن محاولات أخرى بذلت في ذلك المؤتمر لربط الوفود الافريقية بالوفد الاسرائيلي ، يتضح ذلك من تقرير وصل إلى الحكومة المغربية في ذلك الوقت نقلاً عن المستر (مورمبي) الوزير الكيني الذي اصبح فيما بعد وزيراً للخارجية وفيه ابدى مورمبي شكوكه ومخاوفه من هذا النشاط الاسرائيلي المفاجيء الغريب ، لا سيما وإنه – كما ذكر في تقريره – قد وجه سؤالاً مباشراً لمائير عن موقف اسرائيل المناويء لاستقلال الجزائر في ذلك الحين ، وموقفها المؤيد لحكومة جنوب افريقيا فلم يظفر إلا بجواب تهربي مراوغ .

لقد أكد لي السيد مورمبي هذه الوقائع حين زرتـــه في مكتبه في نيروبي في صيف عام ١٩٦٤ ، وحين التقينا بعد ذلك في لاجوس ، وكان الانطباع الذي تولد عنده هو أن الاشتراكيين الأفريقيين كانوا ينظرون للتجربة الاسرائيلية وكأنها نجاح لفكرة الاشتراكية الوطنية التي يؤمنون بها ، أما ( انتصار ) اسرائيل على العرب فكان يصور وكأنه

انتصار للتقدمية على الرجعية وخصوصاً إذا وضع في مكانه من الإطار التاريخي المليء بالعقد النفسية التي صنعها الاستعمار ضد العرب .

ومـــا دام الشيء بالشيء يذكر فلست أنسى يوم زارني الزعيم الأمـــيركي المسلم ( مالكولم اكس ) في لاجوس في اكتوبر ١٩٦٤ ، وكان في جولة واسعة على الأقطار الافريقية لعرض مشكلة الزنوج الأميركيين ، وقـال : إنه يود أن يخبرني بشكل شخصي أنه قبل أيام كان في وداع نكروما في مطار أكرا الذي كان متوجهاً لحضور مؤتمر منظمة الوحـدة الافريقية في القاهرة ، وقد دهش أن يجد ضمن حاشيته اثنين من البيض الذين يعرفهم شخصيـــاً ويعرف أنهم من اليهود الصهيونيين ، وقد أرسلت الخبر مباشرة إلى وزارة خارجيتنا ولا أشك أنه وصل للجامعة العربية أثناء انعقاد المؤتمر ولكن لا أذكر أن أي مشكـــلة قد ثارت حينذاك بين نكروما ومضيفيه ، ومع تسليمي أن الدبلوماسية قد تتسع لهذا النوع من المجاملة الخطرة ، إلا أننـا يجب أن لا نفاجأ إذا جاءت النتائج على غير ما نشتهي .

ولست أحب أن أفارق ذكرى الصديق مالكولم اكس دون أن أشير إلى قصة معبِّرة رواها لي وهي قطعـاً ليست خروجاً عن الموضوع قال : إنه كان قبل أيام في جولة ضمت

ثلاثة رؤساء دول افريقيين أحدهم ملتون أوبوتي رئيس جمهورية يوغندا في ذلك الحين ، ولما كان البحث معهم يدور حول مأساة الزنوج الأمريكيين قالوا له ( بنفس واحد ) على حد تعبيره : إن خطيئتك أنك تربط حركتك بالإسلام والدول العربية ولو جعلتها حركة عنصرية افريقية صرفة لحالفك النجاح أكثر .

الخلاصة أن بعض القادة الافريقيين وجدوا في إسرائيل للأسباب العديدة التي أشرنا إليها ضالتهم المنشودة ، كما أنها وجدت فيهم أدواتها الطيعة ، ولقاء المصالح والأمزجة بين اسرائيل وهذا النوع من الزعامات لا يجب أن يمر كذلك دون تفكير وتأمل ، ذلك أن الحكام ذوي النزعات الدكتاتورية المتسلطة الذين يحكمهم الغرور وعقدة العظمة كانوا على الأغلب الوسيط المثالي بين اسرائيل والاستعمار الجديد من ناحية وبين الشعوب الافريقية من الناحية الأخرى ، كانت اسرائيل تتصور أنها يجب أن تسيطر على شخص قوي لتسيطر من خلاله على شعب بكامله وهي نظرية الاستعمار الجديد باختصار .

لقد زرت غانا مرات عديدة خلال ثمانية أعوام وراقبت عن كثب تطور أسطورة نكروما ونمو الأخطبوط الاسرائيلي، منذ كان ( أوساجيفو ) ذلك الزعيم الوطني الهادىء المتقشف

حتى أصبح المستبد الرهيب الذي يحكم بسيف الرعب ، وينشر الخوف في كل ركن تصل إليه دعاياتـه ودسائسه ، وذروة المأساة أن نكروما وكثيرين غيره يقعون تماماً فيما يخشون منه حتى ليصدق عليهم التعليل النفسي القائل بأن خوفنا يقودنا عادة إلى ما نخاف منه ، كان نكروما في كل كتاباتة وخطبه الأولى يحذر نفسه وشعبه من الاستبداد والاستعمار الجديد حتى أصبحت هذه هي (العفاريت) التي يخشاها في النوم واليقظة ، وقد يصلح لختام هذه الكلمات ، أن نقتبس من أفكار نكرومـا نفسه صورة فيهـا كل ملامح المأساة ، الخوف من الاستبداد ثم الوقوع فيه ، والتحـذير من الاستعـمار الجديد ورأسه إسرائيل ثم الخضوع إليه ، والأمل في مجتمع افريقي ديمقراطي متحرر يؤدي إلى نقيض ذلك كله ، يقول كوامي نكروما في كتابه ( الوجدانيـة ) ترجمـة الدكتور كريم عزقول : ( إن الاستعمار المتجدد لأشد خطراً على البلدان المستقلة من الاستعمار نفسه ، فالاستعمار فظ ، وفي جوهره علني ، ولذلك يمكن قهره بتساند المجهود القومي المعتزم ، أما الاستعمار المتجدد فإنه يفصل الشعب عن قادته ، فيأخذ هؤلاء عوضاً عن أن يقودوا الشعب ويوجهوه توجيهاً حقيقياً مفعماً دوماً بالمثل الأعلى للخير العام ، يهملون هـذا الشعب ذاته الذي حملهم للحكم وبدون حذر ولا احتياط ، يعملون كأدوات للجور في خدمـة المستعمرين المتجـددين ) صورة

واضحة للمأساة التي صنعها الاستعمار الجديد تغني عن كل تعليق !!

بعد هذا الاستطراد الضروري نعود مرة أخرى إلى الخط الرئيسي للبحث لنتائج التجربة الاشتراكية الاسرائيلية من الناحية العملية في البيئة الافريقية .

## نداء الأرض :

فإذا انتقلنا من هذا الأساس النظري وبحثنا في أساليب التطبيق العملي على الأرض الافريقية نجد أن عوامل كثيرة قد تضافرت لتقنع الافريقيين أن في اسرائيل يقوم النموذج المثالي الذي يبحثون عنه ، والذي يمكن اقتباسه في بلادهم ، ومع أن هذا التشابه هو أيضاً سلسلة من المغالطات الفاضحة إلا أنها جازت على الكثيرين ، قيل لهم : إن اسرائيل كبلاد افريقية المستقلة تواجه من مشاكل التنمية الزراعية والاقتصادية ما تواجهه البلدان الحديثة ، وإنها محاولة ناجحة لدمج خليط متنافر من القبائل والسلالات واللغات في دولة واحدة وهي علة العلل في افريقيا الحديثة .

لقد صورت اسرائيل نفسها وصورها أصدقاؤها واحة وارفة في صحراء الشرق العربي ، وكياناً مفعماً بالحياة وسط أوضاع مرتبكة هزيلة ، ودولة اشتراكية ينعم فيها الانسان

بالحرية والعدالة وسط منطقة يحكمها الاستبداد والاقطـاع ، وهذه الصورة تبدو متناسقة تماماً مع ( الأرضية ) العاطفية التي عملت فيها الأيدي الخفية والظاهرة خلال عقود من الزمن، ومع أن الانهيارات قد بدأت في الخطة الاسرائيلية قبل وقت طويل وظهر أن هذه الواحة الموعودة للافريقيـين ليست إلا سراباً يفضي لهلاك أكيد ، إلا أن ظروف الدول الافريقية وحاجاتها الضرورية الملحة وخصوصاً في بداية تجربة الاستقلال لم تكن تسمح في ذلك الوقت بأي مناقشة هادئة أو موضوعية حول هذه القضية .

كانت العروض الاسرائيلية تقدم وسط هالة من الدعايـة الواسعة المنظمة التي تعمل لحجب كل التيارات وإبقاء ميدان السباق مفتوحاً لاسرائيل وحدها ، وكمثال على ذلك كتبت جريدة « West African Pailot » التي تصدر في لأغوس في في عددها الصادر بتاريخ ١٣ اكتوبر ١٩٦٢ تحت عنوان ( لسنا أمة من الشحاذين ) ، تنتقـــد الدول التي تعرض مساعدات على نايجيريا وخصوصاً من منطقة الشرق الأوسط إلى أن قالت : إن نايجيريا أغنى من هذه الدول مجتمعة ، ولا توجد أي دولة في الشرق أو في أفريقيا فيما عـــدا اسرائيل تستطيع أن تقدم لنا أي مساعدة ، ولا توجـد أي دولة تستطيع ذلك في الشرق الأوسط ) .

في بلادٍ أفريقيةٍ متعددة وبعد سلسلة من المغـــامرات

الطموحة في مشاريع التصنيع الضخمة والمنشآت الكبيرة التي أقيمت لتأكيد الشخصية الوطنية وقمت العودة لحقيقة بسيطة هي الالتصاق بالأرض والانطلاق منها في مشاريع التنمية ، وهذا الأتجاه كان يستهدف عدداً من المشكلات الجانبية الأخرى وعلى سبيل المثال الحد من الهجرة من الريف إلى المدن الكبيرة حيث تتولد مشاكل اقتصادية واجتماعية في الناحيتين، وقد برز هذا الميل كأوضح ما يكون في مؤتمر ( اروشا ) الذي عقده حزب التجمع الوطني التانزاني الحاكم في ( Tanu ) في يناير ١٩٦٧ وخرج منه بمشروع مشهور أطلق عليه ( Ujamma ) أو مشروع القرى التعاونية ، ومع أن المشروع في شكله الأخير قد مر بكثير من التطوير والتعديل ، إلا أنه يعكس مشكلة أساسية ونوعاً من المحاولات الجادة لعلاجها .

إن التعاون بين تنزانيا واسرائيل قد بدأ حتى قبل الاستقلال، ففي عام ١٩٦١ زار رشيد كاواوا نائب رئيس الوزراء في ذلك الحين اسرائيل ووقع اتفاقية لمشروع تعاوني مشترك ، وفي عام ١٩٦٢ قام وزير آخر هو ( كازامبالا ) وكان يشغل وزير التعاونيات والتنمية ، وأبرم اتفاقية مع منظمة التجارة الخارجية المعروفة باسم ( أميران ) لانشاء جمعية تجارية مشتركة ، ولذلك يمكن القول أن الاسرائيليين قد صاحبوا التجربة الاشتراكية التانزانية من بدايتها وتركوا طابعهم العميق على اتجاهاتها .. وهناك كما في بلاد أخرى وتسميات

متعددة كان النموذج الذي يحتذى لها هو القرى اليهودية الزراعية ( شبه العسكرية ) الكيبوتزيم والموشافيم .

وقد استطاعت المؤسسات الاسرائيلية أن تعقد مؤتمرات متتالية إحداها ما ذكرته جريدة نيويورك تايمز ٣٠ أغسطس ١٩٦٣ ( لمناقشة ودراسة التخطيط الزراعي في اقتصاديات الدول النامية ) حضره مندوبون يمثلون ٢٩ دولة من الدول الحديثة الاستقلال ، وقد نشرت جريدة الأمة الكينية في في عددها الصادر في ٢٦ نوفمبر ١٩٦٣ أسماء وفد مكون من عشرة أشخاص من كبار المسؤولين في فروع الزراعة والري المختلفة الذين أوفدوا لاسرائيل باتفاق خاص مع معهد وايزمن للأبحاث الزراعية في رحبوت ، وكان من الأمور المألوفة أن تقوم السفارة الاسرائيلية في نيروبي بتوريط رئيس الجمهورية وكبار المسؤولين ليكونوا في وداع واستقبال هؤلاء الطلاب حيث تنشر الصحف في طول القارة وعرضها عن مشاهداتهم وتجاربهم في اسرائيل ، إلا أن هذا الحماس للتدريب في اسرائيل قد أخذ في التراخي بعد أن ثبت أن التدريب هناك هو أيضاً لأغراض سياسية ودعائية وليس جدياً فمثلاً بعض (الخبراء) الزراعيين من كينيا لم يمكثوا أكثر من ستة شهور ، بل إن جريدة الجويش كرونيكل في نوفمبر ١٩٦١ ( أي قبل إعلان الاستقلال ) نشرت صورة المستر كينياتا رئيس الوزراء مع القنصل الفخري الاسرائيلي في نيروبي يودعان مجموعة من

النقابيين الذين غادروا إلى اسرائيل في بعثة دراسية تستغرق أربعة عشر يوماً !!

وسواء في الحد من مشكلة الهجرة للمدن وهي مشكلة أساسية - كما ذكرنا - أو في تنظيم الشباب الافريقي والاستفادة منه في خطط التنمية الاقتصادية أو في المشاركة في أعمال الدفاع جاءت اسرائيل تحمل تجربتها الخاصة في منظمات الشباب اليهودي المعروفة بالجادنا وناحال ، حتى أن حكومة شاطىء العاج قد طلبت بعثة عسكرية من اسرائيل بغرض تحويل جيشها كله إلى منظمة على غرار منظمات ناحال ، وفعلاً قطعت شوطاً كبيراً في ممارسة هذه التجربة ، وأود في هذا المقطع أن أنقل صورة كتبتها جريدة الأخوة Fraternité الناطقة بالفرنسية في مدينة ابيدجان كما نقلتها مجلة اسرائيل دايجست في ٢٣ نوفمبر ١٩٦٢ ، ونشر هذه الصورة يبين التعاون الوثيق بين السفارات وأجهزة الأعلام الاسرائيلية والبعثات الفنية لنقل الصورة المغرية للنشاط الاسرائيلي في دول تقع تحت ضغط الحاجة الماسة لتلك المشاريع ، يقول مراسل الجريدة الافريقية : ( إنه زار معسكراً في تلك الغابات انشيء على أسس ناحال ، حيث رأى الاسرائيليين يعلمون الافريقيين على الوسائل الفنية ، بينما يوجد ضباط أفريقيون يدربونهم عسكرياً ، لقد بدأت تلك المجموعة أولاً في قطع الأشجار وتمهيد الغابات من حول المستعمرة ، ثم

قامت ببناء سد مائي وشبكة من الجداول لأغراض الزراعة تحت إشراف الاسرائيليين ، حيث يزرعون الآن الخضراوات والقطن والذرة والأرز ) وتنهي المجلة اليهودية نقلاً عن المراسل الافريقي ، إنه قد أعجب بصفة خاصة بما رأى من أن الضباط يعملون جنباً إلى جنب مع الجنود بينما الاسرائيليون يقدمون يد المساعدة في هذه المشاريع .

وفي الاقليم الغربي من زامبيا أقيم بإشراف الخبراء الاسرائيليين في أواخر الستينات مشروع واسع للتنمية الزراعية كان الهدف منه التوفيق بين التنمية الزراعية والتصنيع الزراعي معتمداً على الكيان الاجتماعي القبلي في تلك المنطقة مؤقتاً بحيث يمكن أن يتطور فيما بعد إلى التعاونيات الحديثة، وكانت الفكرية المغرية فيه أنه يهدف إلى تطوير جميع نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في مجتمع بدائي ، ويتمشى مع ما أشرنا إليه من رغبة الدول الافريقية لتوفير أسباب الحياة الحديثة في الريف ومنع تدفق الهجرة للمدن .

## نظرة في المستوطنات :

والآن لنقترب أكثر من مشاريع التنمية الزراعية التي تبنتها اسرائيل ولنحاول رؤية خطوطها العامة عن كثب ، ذلك لأنها تشكل حجر الزاوية في الوجود الاسرائيلي أو النموذج الذي يعرض في الواجهة لاجتذاب المارة ، وعلى

نجاحه أو فشله النهائي يتحدد مستقبل المغامرة الاسرائيلية إلى حد كبير .

وإذا اتخذنا نايجيريا حقل تجربة للحكم على تلك المشاريع فإننا نجد أن الاسرائيليين قد اعتبروها -من ناحيتهم- ميداناً لهذا النموذج من مطالع الستينات ، ومنها توسعوا في الأقطار الافريقية المجاورة .

كان أول من عني بدراسة الأسس التي تقوم عليها المستوطنات الاسرائيلية هو ( آكن ديكو ) وزير الزراعة في الاقليم الغربي ، وقد جاء ذلك الاهتمام نتيجة المغريات المعهودة التي بذلتها معه السفارة الاسرائيلية في لاغوس والشركات اليهودية العاملة في الغرب على أن العنصر الحاسم في هذه العلاقة جاء بعد وصول فريق منظمة الأغذية والزراعة الدولية الذي كان يرأسه خبير اسرائيلي ، وقد استطاع هذا الخبير أن يقنع ديكو الذي كان حينذاك يفكر - ربما بإخلاص - في تطبيق بعض النظريات التقدمية الحديثة في مجالات الزراعة التي تعتبر أساس الثروة في بلاده .

وهكذا بدأت الصلة وهي - كما ترى - وليدة أسلوب كلاسيكي يهودي تكرر في كل دولة أفريقية على صورة أو أخرى وتعاونت فيه كل العناصر التي تلتقي دائماً لتقيم الجسور بين اسرائيل والدول الحديثة .

ونستطيع أن نتصور المناخ الذي أحيط بـه المسؤول النايجيري لأنه عاد من رحلته لاسرائيل يتحدث عن إعجابه الشديد بما رأى هناك ، وخصوصاً الطريقة التي يدار بهـا مشروع ( لاشيش ) الزراعي في النقب ، حيث تعيش مئات العائلات اليهودية الوافدة حياة تعاونية ، ويستخدم أفرادها الأساليب الحديثة في زراعة الصحراء القاحلة ، واعتبر هـذا المشروع وأشباهه الضالة المنشودة للحياة الافريقية ، ومنذ ذلك الحين بدأ العشرات من شباب غرب نايجيريا يفدون لاسرائيل للتدرب على التعاونيـات في ( معهد التخطيط الزراعي ) في حيفا ، ثم يلحقون بالمستوطنات اليهوديـة للتخصص في الفروع المختلفة كما بدأ الخبراء والزراعيون الاسرائيليون يفدون بالعشرات للاقليم ، واستطاع ديكو أن يقنع الحكومة برصد أموال طائلة لمشروعه الطموح وبدأ يمنح أراضي الدولة أو يصادر ممتلكات القبائل لهذه الغاية ويسلمها المؤسسات التي شكلت لهـذه الغـاية بإشراف الخبراء الاسرائيليين .

وكانت الفكرة إقامة ما كان يعرف هناك باسم ( القرى تعاونية المركبة ) وخلاصته إنشاء قرى زراعيـة يعمل فيها يديرها شباب من خريجي المدارس الفنيـة والمتوسطة ، تشتمل على مصانع صغيرة للانتـاج الزراعي ، ومدرسة مستوصف صغير ، وجمعية تعاونية ، وأن تكون الزراعـة

فيها خاضعة للتخطيط الذي تضعه وزارة الزراعة ، وهـذه الوحدات الزراعية تتبع قرية مركزية ( نموذجية ) تتواجد فيها منشآت صناعية وتعاونية أكبر كمصنع المعلبـات ، أو معصر الزيوت، أو مخزن للبضائع والآلات الانتاجية، وهكذا تقام هذه المجموعات في أماكن مختلفة من الريف النايجيري حتى تقوم شبكة واسعة من هذه القرى النموذجيـة ، أما الهدف فقد كان سليماً دون شك وهو ما أشرنا إليـه من تشجيع الشباب المثقف على سكن الريف ، وتقوية الانتاج الزراعي بصورة عامة. أما الوسائل فهي التي يمكن الاختلاف عليها ولا سيما إدخال الخبراء الاسرائيليين في هذه المشاريع الوطنية .

إن الاهداف الاسرائيلية المادية والسياسية واضحة لاتحتاج إلى بيان ، وهي لم تكن قاصرة على غرب نايجيريا ، ولكن يعنينا أن هذا المشروع قدم للناس في هالة من الدعاية الكبيرة، والضجة القائمة على المبالغات الخيـالية ، ولم يكن يمر زائر أفريقي على الغرب حتى يصطحب لمبنى وزارة الزراعة ليطلع على ( رسوم ) المشروع وما ينتظر أن تتفجر فيه من أنهـار السمن والعسل ! ! حتى قـامت منافسة بين الإقليم الغربي والشرقي ، كالمنافسات الموروثة بين شعبي الايبو واليوربا في الاقليمين ، وبدأ الشرقيون يرسلون أبناءهم لاسرائيل ويجلبون منها ( الحكماء ) الذين يعرفون حلول المشاكل المستعصية كما

يعرف السحرة والمشعوذون لدى شعب ( الايبو ) فنون الخصب والحياة وجلب المطر !.

على أن الحقائق بدأت تظهر تحت زبد الدعاية في عام ١٩٦٥ وما بعده وخصوصاً حين نشبت الأزمة السياسية في الأقليم الغربي ، وبروز معارضة لاتجاهات الحكومة ، وأخذت هذه المشاريع شأن المشاريع الاسرائيلية تتعرض للنقد الشديد على أسس سياسية واقتصادية .

وكان الناقدون يركزون حملتهم على نقاط من المفيد أن سجلها هنا لأنها تنطبق على المشاريع المشابهة في البلدان لأفريقية الاخرى .

أولاً : إن هناك فوارق أساسية بين الوضع في اسرائيل نظيره في أفريقيا من حيث ان الوافدين اليهود يأتون إلى لسطين تحت ضغط القوة ، ويلزمون بالإقامة في مناطق يددها الحكومة دون أن تسمح لهم بالانتقال منها ، وهذا الإرغام ) لا يمكن تطبيقه في مجتمعات حرة في ظروف ادية كالظروف السائدة في افريقيا .

ثانياً : إن الاسرائيليين قد اغتصبوا أراض شاسعة بقوة سلاح وباستطاعة السلطة الاسرائيلية أن تغري الوافدين اليهود مليكهم حقولاً واسعة دون أن يدفعوا فيها شيئاً ، وهذا

الوضع غير متوفر في أفريقيا حيث يتحتم شراء الأراضي بأثمان كبيرة أو مصادرتها من أصحابها مع ما يجره ذلك من مشاكل سياسية واجتماعية .

ثالثاً : إن اكثر المستوطنات الاسرائيلية يتبناها وينفق عليها منظمات غنية في اسرائيل أو في خارجها ، وهي على استعداد لتحمل خسارتها ولا سيما في المراحل الأولى حتى تبقى قائمة لأسباب سياسية استيطانية تتصل بالسياسة العدوانية الاسرائيلية ، وكلها شروط لا تتوفر في البلدان الأفريقية التي لم تتمكن من استثمار مواردها بشكل كامل ، ولا تستطيع أن تقذف الملايين في بئر بلا قاع ، لمجرد اشباع الرغبة في الدراسة والتجارب الفاشلة .

رابعاً : إن هذه المشاريع استخدمها الاسرائيليون لأغراضهم الدعائية الواسعة فأقنعوا الحكومات برصد اموال طائلة ، دون دراسة البيئة الأفريقية دراسة صحيحة شاملة ، كما أن الخبراء الاسرائيليين كانوا يتقاضون مرتبات ضخمة ، وقد ذكر لي مسؤول في ابادان أن أحدهم يتناول ما قيمته خمسمائة جنيه استرليني في حين لا يتقاضى مساعده الافريقي الذي يقوم تقريباً بنفس العمل سوى خمسة وعشرين جنيهاً ، ولذلك كانت مجرد وسيلة لابتزاز المال وتنظيم حملة دعاية اسرائيلية على حساب الآخرين .

خامساً : إن مرتبـات الخبراء الاسرائيليين الضخمة والتسهيلات التي تمنحها لهم الحكومات المضيفة قد مكنتهم من العيش ببذخ ورخاء ، أمـام اعين الأفريقيين الذين يعيشون عيشة قاسية ، وهـذه المقارنة أوجدت شعوراً بالمرارة لدى العمال الأفريقيين وساقتهم أحياناً إلى التمرد المكشوف ، ممـا أوجد مناخاً متوتراً استغله السياسيون المعارضون ضد الحكومة القائمة .

لقد اعترف الاسرائيليون بعد ذلك بفشل تجـاربهم عن ادراك المستوى الذي حدد لهـا ، وإن كانوا قد بحثوا عن أسباب وهمية أضافت لمشاعر الخيبة لدى الأفـارقة ، لأنهم زعموا أن الأفريقي كسول جاهل غير معتاد على حياة النظام كنظيره الأسرائيلي إلى آخر تلك الترهات .

على ان تعثر تلك المشاريع لم يكن حاسماً أو شـاملاً لأن الاسرائيليين نجحوا – كما قلنا – في اقتباسها في بلاد افريقية أخرى ، ولعلها لا تزال قائمة فيها حتى يومنـا هذا ، الا أن النتائج النهائية سوف تكون واحدة في خاتمة المطاف بالرغم من التجـارب المتصلة وبالرغم من الأموال الأفريقية التي تهدر بلا حساب ، فمثلاً طبق المشروع في جمهورية أفريقيا الوسطى حيث انشأ الخبراء الاسرائيليون ست مستوطنات على هـذا النمط ، كما نظموا حركة شباب مصاحبة لها على غرار (الجادنا)

قوامها ثلاثة آلاف رجل ، واتصور انها لا تزال تصارع هناك بين الموت والحياة .

### مشاريع صغيرة :

ولعل من أهم أسباب النجاح المؤقت للغزوة الاسرائيلية أن اليهود لجأوا إلى خطة ذكية هي إعطاء عناية خاصة لتشجيع المشاريع الصغيرة المنتشرة في أكثر من مكان وهذه الخطة في ظاهرها تبدو واقعية وعملية لأنهـا تنسجم مع استعدادات المجتمع الزراعي وحاجاته العاجلة ، كما أنها لاتتطلب -نسبياً- كثيراً من النفقات التي تستهلكها الشؤون الأدارية في المشاريع الكبيرة ، أمـا الأسباب الحقيقية من وجهة النظر الاسرائيلية فهي أن هذه الخطة تسمح بالانتشار في أماكن كثيرة وبأقل التكاليف بينما تمنحهم إمكانيات واسعة للتأثير الدعائي دون أن تضيف للدول الحديثة قوة اقتصادية حقيقية تجعلها تنهض على قدميها ، ولسوف نرى أن معظم هذه المشاريع قد فقدت الآن ذلك البريق الذي صاحب إنشاءهـا في البداية ، ولم يعد ( الحل الاسرائيلي ) يحمل ذلك السحر كأسلوب ناجع لمواجهة المشاكل الأفريقية المستعصية ، وفي نطاق هذه الخطة الذكية انتشرت في القارة عشرات المشاريع التي يديرها اعداد كبيرة من الخبراء الاسرائيليين ، كما تعود بفوائد معنوية ومـادية ضخمة لاسرائيل نفسها .

ومما يذكر ان الخبراء الاسرائيليين إلا النادر ولأسباب سياسية خاصة ، يكونون معارين من الحكومة الاسرائيلية للحكومة الافريقية المعنية بمرتبات ضخمة تمليها طبيعة الحياة الصعبة والمناخ الأفريقي الشاق وبذلك وجدت اسرائيل أيضاً مجالاً غير محدود لتشغيل الألوف من مدرسيها واطبائها وخبرائها في كل مهنة وحقل . وقد دلت احصاءات قريبة من الدقة ان اسرائيل أوفدت خلال الستينات حوالي ثلاثة آلاف خبير للدول الأفريقية وهذا الرقم يمثل ٦٥ ٪ من مجموع الخبراء الاسرائيليين لدول الكتلة الآسيوية الأفريقية ، على ان هذا العدد لا يشمل موظفي الشركات الخاصة والخبراء العاملين مع المنظمات الدولية أو اليهود الذين ينتمون لجنسيات مختلفة وهو رقم يفوق ضعف هذا العدد ، أما هؤلاء الخبراء فقد كانوا – على الأغلب – زراعيين ، وتعاونيين ، واطباء ، ومهندسين ، ومدرسين ، وخبراء في تنظيم حركات الشبيبة ، وخبراء في الري وتنظيم حدائق الحيوانات .

وعلى سبيل المثال لا الحصر كنماذج للمشاريع الصغيرة التي اشرنا إليها انشأوا في السنغال مزارع نموذجية لتربية النحل كما انشأوا حقولاً خاصة لتربية الدواجن في الكونجو (برازافيل) ، وبالقرب من اسمرة في ارتريا اقاموا مصنعاً لحفظ اللحوم ( الكوشير ) على الطريقة اليهودية ، وفي داهومي انشأوا لأول مرة ( اليانصيب ) الوطني وتولوا ادارته ، وقد تولوا

– على ذمة جريدة الفاينانشل تايمز اللندنية – ادارة مصنع للأدوية في اثيوبيا ، كانت قد انشأته شركة بريطانية في عام ١٩٦٣ ولكنه استمر يخسر بعد ان تداولت على ادارته شركات بريطانية وهنجارية بدعوة من الحكومة الاثيوبية حتى ساقت ( الأقدار ) الحسنة الخبراء الاسرائيليين في عام ١٩٧٠ ليجعلوا منه شركة مربحة رائجة الانتاج !!.

وقد تشكلت مؤسسات تجارية مشتركة لاستيراد المواد الأفريقية الخام اللازمة للصناعات الاسرائيلية أو عن طريقها للأسواق الأوروبية كشركة ( اميران ) للتجارة الخارجية ، فاشتروا الاخشاب من الجابون واللحوم من اثيوبيا والسمسم من تانزانيا ، وقد اشرنا لتجارة الماس الخام المزدهرة بين اسرائيل وجنوب افريقيا من ناحية وبينها وبين جمهورية افريقيا الوسطى من ناحية ثانية ، كما قاموا بتصدير انواع مختلفة من البضائع الاسرائيلية أهمها الأسمنت وأدوات البناء والأدوية ومواد السماد والآلات الزراعية وغيرها ولقد تطورت العلاقة التجارية لصالح اسرائيل تطوراً مضطرداً فقد جاء في نشرة رسمية ان بيع المنتجات الأسرائيلية في جمهورية أفريقيا الوسطى وما حولها ارتفع من ١٣ مليون دولار في عام ١٩٦٤ إلى ٢٤ مليون دولار في عام ١٩٦٧ .

وقد اهتم الاسرائيليون اهتماماً خاصاً بإقامة الفنادق

واماكن اللهو وسيطروا عليها اداريا وسخروهـا لأغراضهم السياسية والاقتصادية ، وكان يختفي وراء ذلك المظهر البريء شر أنواع النشاط السري المخرب ، واذكر اثناء وجودي في نايجيريا ان صهيونيا يحمل الجنسية السويسرية ويدعى (مارجليت) وكان يدير فندق فيدرال بالاس أهم فنادق العاصمة حين اتهمته الحكومة الفدرالية بتهريب الأسلحة والأموال إلى المتمردين في بيافرا مما اضطره إلى الهرب ومغادرة البلاد .

ومشاريع كبيرة .....

وفي مجال المشاريع الكبيرة اتاحوا للشركات الاسرائيلية الفرصة لانشاء شركات محلية تساهم فيهـا الحكومات الوطنية بنصيب من رأس المال بينما يبقى الاسرائيليون متحكمين في الادارة وسياسة العمل ، وفي مقدمة الشركات الاسرائيلية التي لعبت دوراً بارزاً في هذا النشـاط شركة سوليل بونيه التي يشرف عليهـا الهستدروت ، والشركة الدولية لتنمية موارد المياه التي يشترك فيها الهستدروت والوكالة اليهودية والحكومة الاسرائيلية .

وكأمثلة على المؤسسات المشتركة بين اسرائيل ونايجيريا انشئت شركة ( الانشاءآت والتأثيث ) لشرق نايجيريا وقامت هذه بانشاء فروع لها في الأقاليم النايجيرية الاخرى ، وشركتا

ديزنجوف وجايزر اللتان كانتا متخصصتان في بيع المنتجات الاسرائيلية ولا سيما الأدوية والأدوات الكهربائية ، وشركة تنمية موارد المياه في الاقليم الغربي من نايجيريا وقد اخذت تعهدات كبيرة لانشاء جسور وشبكات مياه للري عدا مشاريع اخرى وصلت قيمتها في العامين الأولين من قيامها إلى اربع ملايين جنيه استرليني ، ولم تكن الشركة الوحيدة في ذلك الاقليم فقامت أيضاً شركة ( نيجرسول ) التي انشئت في عام ١٩٥٩ كشركة مساهمة بين سلطة التنمية الحكومية وسوليل بونيه ، وقد تكررت صور هذا النشاط في طول القارة وعرضها ، ففي غانا المجاورة تأسست شركة غانية اسرائيلية لمد شبكة مياه للشرب في خمس مدن بين اكرا وتاكورادي واشرف على ادارة المشروع مؤسسة تنمية مصادر المياه الاسرائيلية المعروفة باسم ( تاهال )، وقد اسست سوليل بونيه في اكرا بالتعاون مع مؤسسة الصناعة الغانية شركة للانشاءآت عرفت باسم ( شركة غانا الوطنية للانشاءآت ) على أساس ٤٠٪ من رأس المال للاسرائيليين .

وهذه الصورة المختصرة للشركات التي اقيمت في بلدان افريقية متجاورة هي مثال تكرر في أكثر البلدان الأفريقية على اشكال واحجام مختلفة تتفق مع طبيعة كل بلد ونوع منتجاتها واستعداد حكوماتها للدخول في هذه البرامج . ففي الحبشة مثلاً حيث توجد امكانيات هائلة للزراعة والثروة الحيوانية

كان هناك تركيز على هذا النوع من المنتجات إلى جانب الشركات التجارية والاقتصادية المـألوفة ، وعلى هذا الأساس سمحت الحكومة الأثيوبية إلى شركتي (انكوادا واتاجن) الاسرائيليتين باقتطاع ألوف الهكتارات من أجود الأراضي الصالحة ، كما اشتغلوا في تربية المواشي وصناعة اللحوم والجلود وتصديرها إلى الخارج ، أمـا على صعيد النقل البحري فقد اتفق الاسرائيليون مع عدة دول افريقية على انشاء شركات للملاحة أو ادارة الشركات الوطنية بالخبراء الاسرائيليين وكمثال على ذلك مر بنا انشاء شركة الملاحة الليبيرية بين اسرائيل وهولندا وليبيريا ، أمـا في غانا فقد انشئت شركة النجم الأسود بين حكومة غانا وشركة زيم الاسرائيلية ومع ان هذه الشركة قد سلمت للحكومة الغانية فيما بعد الا ان الاسرائيليين احتفظوا لأنفسهم بالمراكز الادارية المهمة .

## المعونات العسكرية :

اما على صعيد العلاقات ذات الطابع العسكري فقد اشرنا في السياق إلى بعض جوانب التعـاون بين اسرائيل والدول الأفريقية الحديثة في شؤون التدريب والتسلح واعـادة تنظيم الجيوش على الأساليب العصرية الحديثة ، وقد ساعد على نجـاح هذا الاتجاه ما أشرنا إليه في هذا البحث من حملة الدعـاية الكاسحة التي صورت اسرائيل تلك الدولة الصغيرة الشجـاعة

المحاطة بدول تفوقها عدداً وعدة ومع ذلك ـ كلما حاولوا الانقضاض عليها خرجت منتصرة وخرجوا مثخنين بالجراح ـ، وقد لفتت هذه القضية انظار الدول الأفريقية الصغيرة ودفعها الفضول والمصلحة معاً للبحث عن اسباب هذا السر (المعجزة).

وكانت اسرائيل جاهزة لتتبرع لهم بالوصفات التي لايخطيء لها أثر، وقد كتب في هذا الباب ألوف المقالات والتحقيقات باقلام افريقية مشتراة، أو بأقلام عالمية يهودية وتولت الصحف المحلية نشرها على نطاق واسع، وعلى سبيل المثال نشر الكاتب النايجيري ( ادي جامبو ) مقالات في جريدة الديلي اكسبرس التي تصدر في لاجوس بعد عودته من اسرائيل اشتملت احداها على زياراته لمنشئات ( جيش الدفاع ) الاسرائيلي ومقابلته مع الجنرال اسحاق رابين قائد الجيش في ذلك الحين وقد توسط المقال صورة له مع الجنرال واخرى ضمن صحفيين ينتمون لبلاد أفريقية اخرى مع جولدا مائير، وقد نقل الصحفي النايجيري عن رابين شروحاً طويلة نقتبس هنا أهم مقاطعها التي تلقي الضوء على عناصر الدعاية النفسية التي مهدت طريق اسرائيل نحو المؤسسات العسكرية في الدول النامية قال: ان وضعنا يحتم علينا ان ندافع عن انفسنا حتى آخر رجل لسبب بسيط هو انه لا يوجد مكان آخر فوق الأرض يمكن ان يقبلنا، ان كل اسرائيلي يعرف انه اذا تزحزح من موقعه فانه سينتهي حتماً إلى البحر، وان كل انسان يعلم انه لا يقاتل من

أجل انسان آخر بل من أجل نفسه)، وشرح رابين استراتيجية اسرائيل بقوله : ( انه في حالة احتمال الهجوم علينا فإن بمقدور اسرائيل خلال ٧٢ ساعة أن تقذف في الميدان بمليونين وربع المليون اسرائيلي وهم مجموع الشعب للدفاع عن نفسه ، ثم شرح أدوار المستوطنات الزراعية في السلم والحرب ) ، وقد ختم الكاتب مقاله بالقول : أنه يعتقد بصدق تقديرات رابين ولا يشك ان اسرائيل تعني ما تقول وستخرج منتصرة اذا ما هوجمت من جيرانها .

كانت فكرة الجيش الاسرائيلي الذي يزرع الأرض في السلم ويدافع عنها في الحرب فكرة أخاذة بالنسبة للافريقيين لأنها تتناسب مع واقعهم وما يحتاجون إليه ، ومن المؤسف ان ظروفاً عديدة يمكن للقارىء ان يتصورها بدون عناء قد جعلت النموذج الاسرائيلي هو وحده المعروض على الساحة في غيبة النموذج العربي وراء ضباب التخلف وغيوم الخلافات .

لقد أشرنا في اكثر من موضع الى نجاح اسرائيل في بيع تجربتها الخاصة بمنظمات الشباب شبه العسكرية لأكثر من قطر ، وقد كانت غانا تحت نكروما أيضاً هي الحقل الأول للتجربة ، ففي وقت مبكر ( ١٩٥٧ ) وبعد سلسلة من التجارب لانشاء ما كان يسمى بـ ( لواء البنائيين ) وفيما بعد باسم ( لواء العمال ) اتجه الزعماء الغانيون لاسرائيل واستقدموا قادة ناحال

للاشراف على هذه المنظمات ، وقد وضعت الحكومة الغانية تحت تصرف المنظمة اكثر من مليوني جنيه سنوياً كما وصل عدد المنتسبين اليها في أوائل الستينات اكثر من ١٢,٠٠٠ شاب وشابة وأخذ العدد يزداد باضطراد ، وكان من المألوف أن يؤخذ كبار الزوار الأفارقة الى المعسكر النموذجي لهذه الوحدات في ( سومايا ) بالقرب من اكرا مما دعا الكثير من الدول الافريقية المجاورة لاقتباس الفكرة ، على ان سقوط نكروما فيما بعد قد كشف ان هذه المعسكرات ايضاً كانت تستخدم كأماكن للتجسس وأعمال العنف والتخريب في الدول الافريقية .

أما على نطاق الجيوش الرسمية فمن المرجح ان زيارة موشي ديان الواسعة للأقطار الافريقية في عام ١٩٦٤ ، وفي هالة انتصاره في حملة السويس ، قد دفعت بعجلة التعاون بقوة في هذا الاتجاه ، فقد عقدت دول افريقية عديدة اتفاقيات مع اسرائيل ترتب عليها إمداد تلك الدول بالخبراء والمدربين في الحقول المختلفة .

لقد استعانت كينيا بفريق من الطيارين لتنظيم اسطولها الجوي الصغير مباشرة بعد الاستقلال، وقد أنشأ الاسرائيليون مدرسة لفرق المظلات في الكونغو ( كنشاسا ) تخرج منها حتى نهاية عام ١٩٦٩ حوالى خمسة آلاف مجند ، بل ان

الجنرال موبوتو نفسه ذهب لاسرائيل على رأس فريق من ٤٠٠ ضابط وجندي للتدريب هناك ، وفي الحبشة أقيمت مدرسة عسكرية لتدريب ما يسمى بالفرق الخاصة حيث يدرس فيها خلاصة التجارب ضد حرب العصابات التي يشنها ثوار أرتريا ، وفي شاطىء العاج ، أشرف الاسرائيليون على انشاء فرق للنساء المجندات ، كما وقع نشاط مماثل في سيراليون والكمرون وليبيريا ومالاجاسي وتانزانيا والداهومي والتوجو ، وبطبيعة الحال ، قامت اسرائيل ببيع كميات من الأسلحة والذخائر والآلات الحربية لهذه الدول ، ولا سيما مدفع المورتر ١١ مم المصنوع في اسرائيل وان كانت رخصته صادرة من فنلندا .

ومن الدول التي اشترت كميات من هذا السلاح نايجيريا وغانا ، كما سرت دعاية كبيرة في افريقيا في وقت من الأوقات للرشاش الاسرائيلي الصغير المعروف برشاش ( عوز ) الذي أصبح مفضلاً كسلاح قصير المدى لا سيما في تسليح الفرق الخاصة وجنود الحراسة لرؤساء الدول الأفريقية .

ويجب ألا يغرب عن البال أن النشاط الاسرائيلي في المجال العسكري كغيره من النشاطات في المجالات الأخرى كان مرتبطاً دائماً بالاستراتيجية الاسرائيلية العامة التي يقبع في وسطها ويتحكم في كل جزئياتها الصراع العربي الاسرائيلي، حتى ليمكن القول ان افريقيا كانت هي الجبهة الخلفية لهذا الصراع،

ولذلك لم يكن غريباً ان تستخدم الخبرة والمشورة الاسرائيلية في اكثر من دولة نحو الاضرار بالقوة العربية وإيذائها ، وقد مر بك كيف ان خبراءهم رسموا استراتيجية الدفاع ليوغندا بافتراض أن الخطر المحتمل قادم من السودان ، وكذلك بالنسبة لتشاد ، حيث اشترك بعض ضباطهم اشتراكاً فعلياً في القتال ضد قوات جبهة التحرير الوطني ، ومما يؤيد ذلك ما نشرته الجبهة عن العثور على جثتين لجنديين اسرائيليين ضمن القتلى خلال المعارك الضارية التي وقعت بين الفريقين قرب حـــدود السودان خلال عام ١٩٧٠ .

أما في كينيا فقد لعبوا دوراً كبيراً في إشعال الفتن بينها وبين الصومال ، وأما في أثيوبيا فقد أشرنا للعوامل التي تؤثر في علاقـــات هذه الدولة الافريقية الهامة بجيرانهـا العرب والمسلمين ، وهي أوضاع تمنـح اليهود فرصاً واسعة للتحريض والاستغلال، وعلى العموم فإنه ما من توتر بين دولتين افريقيتين أو تمرد داخل أي دولة إلا رصدته المراصد الاسرائيلية وقدرته بموازين معركتها الخاصة مع العرب ، ثم اتخذت الموقف الملائم لسياستها بعد تغليفه بأقنعة الدبلوماسية الناعمة المرنة التي لا تثير المخاوف والشكوك .

وغني عن القول أن سياسة التوريط وإشعـــال الفتن بين الجيران يمكن أن تظل مربحة طالمـا بقيت الظروف الشاذة

سائدة ، إلا أن من الواضح ان الدول الافريقية شأنها شأن كل الدول الحديثة توشك أن تجتاز مرحلة القلق لتصل إلى أوضاع مستقرة تحكمها الحقائق والمصالح المشتركة ، وتلك هي الفجوة التي تجد اسرائيل نفسها فيهـــا الآن والتي لا بد أن تتسع بمرور الوقت .

على ان شكوك الوطنيين والعقلاء بين الأفريقيين قد بدأت في وقت مبكر ، وانطلقت ألسنتهم تحذر من هذا الخطر ومن هؤلاء المرحوم أبو بكر تفـــاوة باليوا رئيس وزراء نايجيريا الاتحادي ، فقد نقلت الصحف النايجيرية تصريحات له في يونيو ١٩٦٠ استنكر فيها تردد وزراء حزب التجمع الوطني (الشرقي) على اسرائيل وضغوطهم على الحكومـــة الفيدرالية لتوقيـــع اتفاقيات تجارية معها ، ومما قاله حينذاك : ان تحرك اسرائيل يتسم بالغموض والشبهات لان اسرائيل تعيش على الصدقـات والمعونات فكيف يمكن ان تساعد الدول الأفريقية ، وتساءل عن السر وراء هذا النشاط ، وفي ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٦٣ وجه الدكتور ( تشيكي اوبي ) رئيس الحزب الديناميكي النـــايجيري وهو حزب شرقي ايضاً ، رسالة إلى الدكتور نامدي ازيكوى رئيس الجمهورية النايجيرية حينذاك حذره فيها من مغبة التورط مع اسرائيل وانتقد بشدة السياسة التي تعمل على بيع نايجيريا للاستعمار مباشرة أو عن طريق اسرائيل بصورة غير مباشرة .

وبالرغم من ان اليهود كانوا يحيطون الزوار الأفريقيين

بالرعاية والاهتمام وخصوصاً أولئك الذين يقومون بزيارات عابرة الا ان الطباع اليهودية كانت تتمرد على استار النفاق المصطنع حين يضطر الزائر للأقامة بينهم فترات طويلة ، أو يجاورهم عن قرب ومن ذلك ما تناقله بعض كبار الزوار الأفريقيين ومنهم السير فرانسيس ابيام حاكم الأقليم الشرقي من نايجيريا وقد سمعت ملاحظاته شخصياً عقب زيارة قام بها لاسرائيل فقد ذكر ان الطلاب الأفارقة شكوا إليه من سوء معاملة الاسرائيليين وغرورهم وعنجهيتهم حتى انهم لا ينادون الأفريقي إلا بلقب ( كوشيم ) أو سامبو ، وانهم يحرمون عليهم الاختلاط مع نظرائهم من الشباب ، وقد أدت هذه المعاملة السيئة إلى عودة مجموعة من الشبان المسلمين من جمهورية فولتا العليا ، وقد كتب لي أحدهم تقريراً ضافياً عما لقوه في اسرائيل من اساليب العنت ، وقد قام مجلس مسلمي نايجيريا بعد ذلك بنشر هذا التقرير وتوزيعه على نطاق واسع في الأقطار المجاورة .

# الحملة الدبلوماسية والدعائية

# ملامح الدبلوماسيّة والدعاية الإسرائيلية

ألمحنا في الأبواب السابقة إلى بعض مظـاهر النشاط الاسرائيلي في المجـالات الدبلوماسية والأعلامية بحيث اصبح واضحاً إن اسرائيل ما كانت لتدرك هذا القدر من النجاح لولا اجهزتها الدبلوماسية النشطة المنتشرة في القارة الأفريقية، ولولا وسائل الأعلام الدولية والمحلية التي عبئت وفق خطة عـامة لدعم وجودها وفتح الأبواب الموصودة امامها .

وقد ظهر فيما سردنا أو ما نوشك ان نخوض فيه ان هذين الجهازين – ونعني بهما الدبلوماسية والدعاية – كانا للحملة الاسرائيلية بمثابة الساقين للجسد بهما يتحرك للامام وبدونهما يصبح جثة هامدة ليس فيها حركة أو حياة ، ومن نافلة القول ان نكرر ان هذا التشبيه يصدق ايضاً على التحرك العربي سلباً أو ايجابـاً . غير ان ملامح الحملة الدبلوماسية والاعلامية الاسرائيلية تستحق منا المزيد من التوضيح ذلك لأن الاسلحة

التي ستحدد مصير المعركة مع اسرائيل في تلك الأرجاء تكمن على الأغلب في الخطة الدبلوماسية الصحيحة والاجهزة النشطة التي تتولى تنفيذها والدعوة إليها بحيث تصبح المجالات الأخرى سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو ثقافية تبعاً لهـــا ونتائج لجهوداتها ، ولقد ربطنا بين الدبلوماسية والدعـــاية لأنها في الواقع شيء واحد يهدف لغـــاية واحدة وخصوصاً في البلد الاجنبي حيث تكون المهمة هي كسب ذلك البلد واخضـاعه للتأثير الاسرائيلي ، ان المهمة الضخمة المعقدة يمكن انتترسب في شيء بسيط هو : ما يجب أن يقال أو يعمل لدعم العلاقات وتنميتها مع ذلك البلد .

كانت الدبلوماسية الاسرائيلية في افريقيـــا ذلك المرصد اليقظ الدقيق الذي يرصد التحركات ويستكشف الاتجاهات ويدرس الممكنات ، ولكنه لا يكتفي بهذا الدورالسلبي الذي يمكن القيام به وراء المكاتب أو في الحفلات الاجتماعية ، وانما يتعداه إلى كسب الأصدقـــاء على جميع المستويات وتسخيرهم للخطة العـــامة ، بينما كانت اجهزة الدعاية تعكس الواقع الاسرائيلي مضخماً منمقاً ، وتنقل منجزات الدولة اليهودية في كل حقل ومجال ، وكأنها ثوب صنع خصيصاً للدول النـامية وتجربة لا يمكن الاستغناء عنها ، ولا نبالغ اذا قلنا ان طبيعة هذين الجهازين ومدى قدراتها والانسجام بينهما هو سر النجاح المبدئي الذي احرزته تلك المغامرة ، وما لم ينجح العرب في

تعطيل ذراعي الأخطبوط بخطة سليمة مضادة فان النكسة الراهنة يمكن فعلاً ان تكون عثرة عابرةِ كما تتنبأ بذلك الاجهزة الاستعمارية والصهيونية .

كثيراً ما نسمع نقداً يوجه للدبلوماسية العربية والاعلام العربي في مواجهة الاجهزة الاسرائيلية ، وكثيراً ما يتركز النقد على الاشخاص وعجزهم وضحالة مجهوداتهم ، ومع ان هذا النقد يمكن ان يكون صحيحاً في كثير من الحالات ، الا ان المشكلة الأساسية تكمن في الواقع العربي نفسه بحيث يصبح الدفاع عنه أو الدعوة إليه أمراً بالغ الصعوبة مهما كانت الكفايات الشخصية للدبلوماسي العربي .

من المسلم به – في تقديري – ان الدبلوماسية كالدعاية هي مجرد اجهزة لخدمة ( واقع ) قائم والدعوة لـ (حقيقة اساسية) ويجد الدبلوماسي العربي نفسه في موقف حرج أحياناً مهما كان قوي الحجة ، ساطع البرهان في تقديم العرب مثلاً كأمة قوية متحدة يمكن ان تنفع اصدقاءها أو تضر اعداءها، ذلك لأن من يتحدث إليهم يعرفون الكثير عن هذه القضايا وليسوا من السذاجة بحيث يقبلون كل ما يقال إليهم فيها ، ولذلك نراه يخسر المعركة قبل ان يبدأ في مواجهة خصمه الصهيوني الذي يقدم اسرائيل كواقع آخر وحقيقة مقابلة .

وما دمنا بصدد الحديث عن المقارنة بين الواقع العربي

والحقيقة الاسرائيلية ، اجدني امام احد العناصر البارزة التي طالما استوقفت نظري ودعتني للتأمل والتفكير . ان اسرائيل كانت تقدم نفسها وخصوصاً قبل حرب عام ١٩٦٧ بأنها الضحية الصغيرة المظلومة التي يعتدي عليها الأقوياء ، أو كما يحلو للاسرائيليين وصف انفسهم بداود الصغير الأعزل امام جالوت العملاق المدجج بالسلاح ، غير ان هذه الضحية في كل مرة تصرع الجبابرة من حولها وتجعل منهم امثولة على كل لسان ، وهذه الصورة كانت تروق لعقلية الأفريقيين مرتين : الأولى : تمليها طبيعتهم الطيبة التي تعطف على الضعيف وتنحاز إليه ، والثانية : لاعجابهم بالقوة والبطولة ولاسيما حين تأتي من ذلك الضعيف المعتز بحقه وكرامته امام غرور الأقوياء ، يبقى من هذا الأطار ان نذكر كيف ان الدعاية العربية بضجيجها الفارغ وتهديدها الأجوف لم تكن تفعل شيئاً سوى ابراز ملامح الصورة التي تريدها اسرائيل ، فكلما قذف قادة العرب كلامهم المنفلت واطلقوا تهديداتهم الفارغة ، كلما ظهرت الضحية اصغر من حقيقتها ، وظهر الجبابرة أكبر من حقيقتهم فاذا وقعت الهزيمة جاءت أيضاً هزيمة ضخمة تتحدى كل التوقعات .

وهذا الفارق الرئيسي بين الحقائق العربية والاسرائيلية ، كان هو المنطلق الذي تتحرك فيه الدبلوماسية في الجانبين والاطار الذي يحكم كل دقائق النشاط لدى الأفريقيين ، أما

الاجهزة والاســاليب فلم تكن اكثر من المرآة التي تعكس الصورة المتحركة امامها .

## دبلوماسية المرونة والابتكار :

ان اول انطباعاتي عن الاجهزة الاسرائيلية في افريقيا ان اسلوب الدبلوماسية والدعاية عندهم كأسلوبهم في الحرب والقتال لا يتقيد بقوانين اللعبة ووسائلها المتعارف عليها ، وإنما يقوم على الابتكار والمرونة ودراسة الطبيعة المحلية بغية ملائمة تلك القوانين والأساليب مع الواقع الجديد ، وربما اعانهم على ذلك - إلى جانب الإيمان بقضيتهم والولاء لها - تخصص الكثيرين منهم في الشؤون الأفريقية واتقانهم للغات الأجنبية وأحيانـاً المحلية المتداولة في أفريقيا ، وقد ذكرنا كيف ان بعض سفرائهم كانوا معتمدين في أفريقيا لسنين طويلة قبل الاستقلال ، ويضاف إلى ذلك أو يسبقه وجود خطط سياسية لدى اسرائيل تجـاه كل دولة أفريقية تقوم على الدراسة والتجـارب يدركها كل دبلوماسي ويتحرك في نطاقها ، وهي خطة تتعمق دواماً بمـا يضاف إليها من التجارب والدراسـات المستمرة . ولا اظنني مبالغاً إذا قلت ان قليلاً من البلاد العربية توفر له الحد الأدنى من تلك الشروط الضرورية وهي كذلك سياسة واقعية انتهازية تقوم على التعامل مع الأوضاع القائمة في كل بلد بما يحقق مصلحتها دون الدخول في مغامرات لا ضرورة لها أو التقيد بمثاليـات

ليس لها كبير وزن في حساب الأرباح والخسائر ، على ان التعامل مع الأوضاع القائمة لا يعني اغفال التيارات المتحركة التي قد تؤثر – ولو في المستقبل البعيد – على الأوضاع في البلد الذي يراد الاستفادة منه ، ولذلك رأينا اسرائيل تستفيد من المستعمر القديم وتستغل اجهزته القائمة لمصلحتها دون ان تغفل القيادات الوطنية التي تتهيأ لملء الفراغ ، على ان ( مرصد ) التوقعات والبحث عن البدائل لا يقف عند هذا الحد ولكن يمضي في الاتصال بالأحزاب والمنظمات والنقابات ليخاطب كل منها بالأسلوب الذي يصلح له واللغة التي يفهمها ، ولذلك رأينا وضع اسرائيل لا يتأثر في كثير من البلاد بالرغم من التقلبات المتوالية والمتناقضة أحياناً التي تعاقبت بعد الاستقلال ، ومن الممكن ابراز أمثلة عديدة على صدق هذا الاستنتاج من الواقع الأفريقي الراهن وحسبنا منها أمثلة قليلة تصلح انماطاً للحالة العامة ، ففي الكونجو مثلاً بقي الوجود الاسرائيلي ثابتاً خلال العواصف والأعاصير التي مزقت ذلك البلد الأفريقي ، وظلت تقفز من فوق السفن الغارقة إلى قوارب النجـــاة منذ عهد الادارة البلجيكية حيث سمح بوجود قنصل اسرائيلي فخري قبل الاستقلال ، حتى عهد موبوتو الراهن مروراً بلومومبـــا وادولا وكازابوبو وتشومبي ، وفي سلسلة التطورات في كينيا وغانا وداهومي وسيراليون ونايجيريا تكررت هذه الظـــاهرة الغريبة ،وهنا تكمن مفارقة اساسية بين الدبلوماسية الاسرائيلية

وغريمتهـــا العربية ، فبينما يعمد الاسرائيليون إلى المرونة التي تترك جميع الأبواب مفتوحة ولا تراهن على حصان واحد نجد بعض العرب يندفعون لمواقف حاسمة ويلقون ثقلهم كله في جبهة واحدة وكثيراً ما كانت تلك الجبهة هي الخـــاسرة في الرهان الكبير !.

ولا تزال في الذاكرة المواقف العربية المؤيدة دون تحفظ إلى رجال من نوع لومومبا أو نكروما الذين رفعتهم الأجهزة العربية إلى مصاف الأبطال الخالدين واعتبرت منافسيهم المحليين أو الأفارقة مجرد حفنة من الخونة والعملاء ، ومع اننا لا نود الخوض في سير هؤلاء القـــادة ومقدار الحقيقة والوهم في تلك الصورة حتى لا نخرج عن مجرى هذا البحث الا ان ما يهمنا الاشارة إليه بدقة هو ان افريقيا لا تزال لغزاً محيّراً للكثيرين وربما ليس من الصدفة ان يكون شكلها الجغرافي على هيئـة علامة استفهام كبيرة ، وهي بعد في مرحلة التشكيل السياسي والاجتماعي ولم تأخذ الأوضاع في أي قطر من أقطارها الصورة النهائية الثـــابتة ولذلك تعتبر الخطة الاسرائيلية المرنة الغير ملتزمة والمنفتحة على كل الاحتمالات هي أقرب للواقعية .

على ان الموقف العربي السلبي أو الايجابي من بعض القادة يؤدي بنا إلى نقطة اخرى هي ان السياسة العربية قد التقت في أكثر الأحيان مع تيار دولي معين يتمثل في الكتلة الشرقية

وارتبطت به حتى اصبحت جزءاً منه وكان عليها ان تتحمل نكسات ذلك التيار وعثراته ، وهنا أيضاً نطل على فارق آخر في النظرتين الاسرائيلية والعربية حيث تتسلق الأولى على كيان دولي كان قائماً في أفريقيا منذ عشرات السنين ، وتستفيد من خبراته وطاقاته الهائلة بينما يعتمد العرب على التعاون مع تيار ابسط مايقال فيه انه تيار جديد قليل الخبرة محدود الممكنات ، ولست ابالغ في الحكم اذا قلت ان ذلك التيار الدولي كان هو المستفيد من العرب المستغل لهم بحكم وضعهم الجغرافي ووجودهم الواقعي في افريقيا وليس العكس ، على انني بطبيعة الحال لا ادعو للتعاون مع الاستعمار الغربي في المجال الأفريقي ، كما لا ادعو للقطيعة الكاملة مع الكتلة الشرقية ولكنني اميل لوضع سياسة عربية مستقلة تستفيد من كل الفرص لخدمة المصلحة العربية – الأفريقية وحدها دون الاندماج في أي من الكتلتين الدوليتين المتصارعتين على مناطق النفوذ ، ووضع خطة عربية من هذا القبيل ليس بالامر المستحيل إذا تعمقنا في معرفة التيارات الحقيقية التي تدور في القارة الأفريقية وجعلنا المصلحة العربية – الأفريقية وحدها المحور الذي تنطلق منه جميع حركاتنا .

وقد يقال – وهو صحيح تماماً – ان ارتباط اسرائيل بالاستعمار الغربي وتعاونها معه سيكشفها في النهاية وهو قول فيه الكثير من الصدق وربما هو نقطة الضعف الاساسية في

الوجود الاسرائيلي اذا عرفنا طريقة الاستغلال ، إلا ان من الضروري الاعتراف ان هذه الحقيقة التي نؤمن بها غير واضحة لدى الأفريقيين،وكان الاسرائيليون من الذكاء بحيث استطاعوا تقديم أدلة تنقض هذه الحجة ، ويبدو ان التعامل بين اسرائيل والاستعمار يحكمه ويحدد ابعاده اطار واسع مرن يسمح بحرية المناورة لدى الفريقين ، فالاستعمار واسرائيل يهمهم تحقيق اهداف كبيرة مثل عرقلة الاتصال العربي – الاسلامي ، وتضييق المجال امام الشيوعية الدولية ، وربط الاقتصاد الأفريقي الهش بالكتلة الغربية ، وغير ذلك من الأهداف الكبرى ، اما الوسائل لتحقيقها فقد تركت لكل فريق يحددها من واقعه وممكناته وأساليبه ، وواضح ان هذا الأطار الواسع يسمح بقدر كبير من التحرك المرن الذي تستطيع ان تبدو فيه اسرائيل احياناً وكأنها نصير لقضايا الحرية الأفريقية دون اضرار بالأهداف الرئيسية،ويمكن معرفة طبيعة هذا التحالف أحياناً في المواقف التي يختلف فيها الفريقان وتلك التي يلتقون فيها دون أقنعة أو مناورات ، فبينما نرى اسرائيل تقدم تأييداً ( كلامياً ) لحركات التحرير في جنوب أفريقيا وروديسيا نراها تقف بصلابة في الماضي ضد استقلال الجزائر أو في النزاع حالياً بين الحبشة والصومال أو غير ذلك من القضايا التي تمس صلب القضية الاسرائيلية .

## سياسة المرونة والنفس الطويل :

ويدخل في باب المرونة والنفس الطويل وعـــدم التقيد بالأصول الكلاسيكية لدى الاسرائيليين ما أشرنا إليه في بداية هذا البحث من القدرة على تحمل الظروف غير المواتية مـــع العمل الدائب على تغييرها مستفيدين من عنصر الوقت والأوضاع المتقلبة ، فمن المعروف ان بعض الدول الأفريقية التي قبلت وجود سفارات اسرائيلية بأراضيها لم تقم – تمشياً مع مبدأ المعاملة بالمثل – بإنشاء سفارات لها في اسرائيل ، اما مراعاة لجانب العرب أو بسبب الظروف الاقتصادية ، وقد وجدت بعض الدول الأجنبية ومنهـــا دول عربية في هذا الموقف فاضطرت لاغلاق سفاراتها ولكن اسرائيل تحملت ذلك سنين طويلة كانت خلالها دائبة النشاط للتـــأثير على تلك الدول لتغيير موقفها وقد نجحت في بعض الحالات ولم تنجح في غيرها ولكنها لا تزال تبذل المحاولة بعد الاخرى بصبر واستمرار .

وفي كثير من المؤتمرات الأفريقية المختلفة اتخذت قرارات اجماعية – كما سنرى – معـــادية لاسرائيل بالرغم من وجود اصدقائها المعروفين ، إلا أن رد الفعل الاسرائيلي كان دائماً يتسم بالبرود واللامبالاة وعدم الانفعال ، اذكر اني زرت وزير الدولة للشؤون الخارجية النايجيري في اكتوبر عام ١٩٦٥ ، السيد ( نوجو بامالاي ) بعد انعقـاد احد المؤتمرات الأفريقية

الكثيرة التي اشتركت فيها نايجيريا وصدرت فيهـــا قرارات مؤيدة ضمناً لحقوق العرب ، زرته وفي ذهني استطلاع الموقف الاسرائيلي من هـذه القرارات ، وقد قال لي : ان السفير الاسرائيلي زاره أيضاً وقال له ما معناه: (نحن نقدر ظروفكم والتزاماتكم الأدبية تجاه العرب ، ونشعر بعظم الضغط الموجه إليكم ، ولا يزعجنا ان تشتركوا في قرارات ( كلامية ) ضدنا ما دام ذلك لا يؤثر على تعاوننا الفعلي معكم )،وهذه العبارات وحدهـــا تحمل الخطوط البارزة للدبلوماسية الاسرائيلية وخلاصتها انه ما دامت السياسة هي فمن الممكن ، وإذا لم نستطع منع نايجيريا أو غيرها من المشاركة في اتخـــاذ قرارات فلنحاول جعل تلك القرارات حبراً على ورق ولنجعلها تشترك معنا في ذلك بتسهيل مهمتها وعدم احراجها ، ولنحاول مع الوقت تغيير الظروف ( بل تغيير الاشخاص ان امكن ) للتنصل من تلك القرارات جملة وتفصيلاً .

وكما في السياسة كذلك في الاقتصاد والتجارة ، فان الخطة الاسرائيلية لم تسر دائماً في ريح رخاء وإنما اصطدمت مراراً بالعقبات إمـــا بسبب المنافسة الحرة والشروط الأفضل التي تعرضها شركات اخرى أو بيقظة المشاعر الاستقلالية الأفريقية، ولكن اسرائيل أيضاً استخدمت شعرة معاوية لمواجهة تلك التقلبات ، وشدت حين كان المجـــال يسمح أو ارخت حين اقتضت الظروف أن تحني رأسها لتعاود الشد من جديد .

في غانا مثلاً اصرت حكومة نكروما في أواخر عـــام ١٩٦٣ على أن تشتري اسهم شركة ( زيم ) الاسرائيلية في شركة الملاحة الوطنية الغانية ( النجم الأسود) فوافقت الشركة اليهودية دون أي صعوبة ، وكان نتيجة هذه المفاوضات السهلة أن بقيت الشركة الاسرائيلية تتولى أهم المنـاصب الادارية في الشركة الجديدة ، كما اتفقت معها على تمثيلها وتقديم الخدمات لها في الدول الأجنبية الاخرى ، وقد أوجدت هـذه ( السهولة) شعوراً بالثقة والأمان لدى السلطات الغانية ففتحت البـــاب لشركات اسرائيلية جديدة في ميادين اخرى من النشـــاط الاقتصادي والزراعي .

دبلوماسية « الكم القصير » :

كان الزوار الأجانب والدبلوماسيون يطلقون هذه التسمية على السفراء وموظفي السفارات الاسرائيلية كناية على البساطة وعدم التقيد بما تفرضه المهنة من مظاهر الجدية والتزمت سواء في اللباس أو المعـاملة أو السلوك ، وكانت الصور التي تنشر لهؤلاء في الاجتماعات العامة بالقميص المفتوح ذي الا كمام القصيرة (طراز بن جوريون) تثير الاشمئزاز والسخرية لدى الدبلوماسيين الكلاسيكيين عشاق الردنجوت والقبعات العالية، إلا أن مرور الوقت وظهور ثمرات هــذا الاسلوب جعل السخرية تتحول تدريجياً إلى الاطراء والاعجاب .

على ان دوافع هذا المظهر لم تكن فقط الرغبة في مجاراة ظروف المناخ الحار أو مسايرة الشعب الأفريقي الذي يميل للبساطة المطلقة في لباسه ويكره الأزياء الأوروبية لاعتبارات مناخية وسياسية على ما لذلك من أهمية نفسية، ولكنها تعكس في الوقت نفسه النظرة التي أشرنا إليها وهي عدم التقيد بالأعراف والأصول المتفق عليها وابتكار الأساليب الملائمة لكل الحالات وهي من أبرز ملامح التحرك الاسرائيلي في الحرب والسلم .

ومن الأساليب المصاحبة للنشاط ذي الكم القصير الاتصال المباشر بقطاعات الشعب المختلفة والمؤسسات الرسمية والشعبية دون التقيد بالأسلوب الدبلوماسي المتعارف عليه وهو حصر اتصال السفارات الأجنبية بالحكومات عن طريق وزارات الخارجية وحدها ، لقد أدرك الاسرائيليون القيود الكثيرة التي يفرضها الاتصال الرسمي ولا سيما في مجتمعات لا تزال في بداية عهدها بالأنظمة الأدارية وتسلسل المسؤوليات الرسمية ، ولذلك نراهم يعمدون إلى الاتصال المباشر بـ ( الحقل ) وحين كانت السفارات الأجنبية تضيع وقتها في مكاتبات واتصالات شكلية لا تنتهي مع موظفي وزارة الخارجية لانجاز بعض المهام ، كان الاسرائيليون يعقدون الصفقات ويبرمون الاتفاقات مع المؤسسات والشركات الخاصة من وراء ظهر الحكومات ، وفي مرات كثيرة كنا نكتشف أن كثيراً من الصفقات

والاتفاقيات الصغيرة الخاصة وهي التي تشكل أهم أجزاء النشاط الاسرائيلي لا وجود لها في أضابير الدوائر الحكومية كما لا تحكمها أي معاهدات أو اتفاقيات ثنائية ، وكانت طبيعة الأوضاع - كما قلنا - تسمح بذلك ، ففي نايجيريا مثلاً كانت الحكومات الأقليمية تعقد اتفاقات مع اسرائيل دون علم الحكومة الفيدرالية وموافقتها ، ولا شك أن هذا النوع من العلاقات يعتبر نوعاً مبتكراً ملائماً لأفريقيا في مرحلة ما بعد الاستقلال وربما حتى الآن في أكثر البلاد ، وكان يساعد اسرائيل عليه إلى جانب العوامل الأدارية والسياسية التي أشرنا إليها استعدادها للجوء إلى أحط الأساليب كالرشوة والاغراءات بمختلف انواعها ، وهي وسائل تدخل في التقاليد المعترف بها لدى الأجهزة الاسرائيلية ولا يستطيع أحد مجاراتها فيها خصوصاً الدول العربية ، وفي حالات لا يحيط بها الأحصاء كنا نكتشف في جذور تلك الصفقات المخزية لاسرائيل منفعة شخصية للقائمين على تلك المشاريع من الوطنيين فهي أحياناً رحلة مجانية لاسرائيل ، وأحياناً سيارة فاخرة ، واخرى بيتاً جميلاً تبنيه الشركة الاسرائيلية للوزير أو المدير ، وغير ذلك من وسائل الافساد وشراء الضمائر .

ولم يكن بالامكان احراز شيء من هذا النجاح دون التضحية بجميع التقاليد المرعية والخروج من الأبراج العاجية والنزول إلى الطبقات الدنيا في المجتمع والاتصال المباشر بالأفراد الذين

يمكن أن يخدموا المصلحة الاسرائيلية ، وهذا المسعى الدائب كان يضطر السفراء وكبار الموظفين إلى التجول المستمر في المدن الصغيرة والقرى النائية ، اذكر انني دعيت مرة لافتتاح مدرسة لتعليم اللغة العربية في قرية نائية نسبياً في الاقليم الشرقي ، الأمر الذي اضطرني لقطع مئات الأميال بالسيارة ، وقد شعرت بالزهو حين قيل لي أنني أول دبلوماسي عربي تطأ قدماه هذه المنطقة إلا أن هذا الشعور لم يلبث أن زال حين علمت أن سفير اسرائيل قد جاء إليها قبل عامين !!.

وهذا الاهتمام بالأفراد المفيدين للنشاط الاسرائيلي يعتبر أحد الأركان الرئيسية في المخطط المشبوه ، فقلما كانت تخلو صحيفة أو مؤسسة اعلامية أو شركة كبرى أو فندق رئيسي من ( عميل ) اصطنعته الاجهزة الاسرائلية ليؤدي ادواراً معينة بمقدار ما يسمح به مركزه ، باختصار لقد عكست اسرائيل التقليد الذي يحتم ولوج البيوت من أبوابها ، ودخلت جرياً مع أسلوبها المعلوم في فلسطين من النوافذ وقفزت من فوق الجدران دون استئذان لترسي جذورها وتثبت وجودها أولاً ثم تفتح الأبواب من الداخل لهجمة جديدة في الخطة المرسومة ، ومع أن هذا الأسلوب قد أفاد اسرائيل كما هو معلوم إلا أن نقطة الضعف الأساسية فيه كما سنرى ، انه يرتكز على الاستفادة من الظروف المضطربة وعدم الاستقرار كما يستخدم الاساليب اللاأخلاقية ونواحي الضعف في النفس البشرية ، وهي أسس

يمكن أن تثبت لبعض الوقت إلا أن استقرار الأوضاع تدريجياً وترسيخ نظام التعامل الدولي ويقظة نوازع الخير ودوافع الكرامة لدى الأفريقيين قمينة بأن تتمرد على هذا الكيان الدخيل في النهاية لتجرف الأساس الواهي والبنيان القائم عليه .

لقد جربت اسرائيل الاتصال المباشر في بداية حملتها فاغناها عن الكثير من الجهد واضاعة الوقت ، لقد دعت الرؤساء والوزراء والصحفيين لزيارتها وهناك وقعت عمليات ( غسيل الدماغ ) ، ولم تكتف بذلك بل دعت زعماء العمال والطلاب والحرفيين غير أن الصلة بهم لا تنتهي بمجرد نهاية الزيارة ولكن يظل الاتصال قائماً على صورة أو اخرى .

في احدى زياراتي لأكرا أخبرني بعض صغار الموظفين الذين ذهبوا لاسرائيل في دورات قصيرة أن استاذهم هناك يرسل لهم باستمرار رسائل وبطاقات في المناسبات ، وانه قام بجولة واسعة على أقطار أفريقيا ليزور ( تلاميذه ) ويطمئن على أحوالهم ، وهذا الميل للاتصال الفردي المباشر كان أيضاً وراء سلسلة من الزيارات المتصلة التي قام بها المسؤولون الاسرائيليون على جميع المستويات الرسمية والشعبية وهي زيارات لم تكن تتم اعتباطاً للهو واضاعة الوقت ، وإنما توضع لها البرامج الواسعة لتحقيق القدر الأكبر من الاتصالات الرسمية والشخصية ، ومن ذلك الزيارات المتكررة التي قامت بها جولدا مائير أثناء

توليها وزارة الخارجية ، وكذلك تلك التي قام بها أبا ايبان في أوائل الستينات حين كان وزيراً للزراعة ثم الجنرال دايان التي عنيت زيارته في عام ١٩٦٤ بدراسة امكانيات تطبيق التجربة الاسرائيلية في المزارع الجماعية من ناحية والتعاون العسكري من ناحية أخرى .

## الدبلوماسية الاسرائيلية تجاه العرب :

من الطبيعي أن تعنى الأجهزة الاسرائيلية بنوعيها الدبلوماسي والدعائي في افريقيا بالوجود العربي وأن تعمل على زعزعته وتشويه مقاصده ، وقد مر في بداية البحث الخطوط العامة لحملة التشويه التي مارستها الأجهزة الاستعمارية والصهيونية لعزل العرب عن افريقيا ، والمؤامرات الظاهرة والخفية لنسف الكيانات العربية بكل أسلوب ممكن مما لا نحتاج إلى تكراره ، ويعنينا الآن تسليط الضوء على الأساليب المباشرة التي استخدمت على الأرض الافريقية ، ولا سيما ضد البعثات الدبلوماسية والجاليات العربية .

يبدو أن الاسرائيليين في البداية حاولوا إقناع الافريقيين أنه لا توجد مشكلة جدية في الشرق الأوسط بين العرب واليهود ، وإن ما وقع لا يعدو أن يكون نزاعاً عادياً كالذي يحدث بين الدول المتجاورة في افريقيا ثم يلبث أن يزول بمرور الوقت

واندمال الجروح ، والأرجح أن هذا التخطيط كان نتيجة محاولة مدروسة من جـانبهم تقوم على الواقعية والاعتراف بالحقائق ومفادها أن العرب – شاءت إسرائيل أم أبت – ينتمون للقارة الافريقية وبينهم وبين شعوبها من روابط الجوار والتراث والمصلحة ما لا يمكن إسقاطه من الحسابات ، ولذلك ينبغي على اسرائيل ألا تضع الدول الافريقيـة أمام الخيار الحاسم بينها وبين العرب بل على العكس تقنعها أن بإمكانها أن تتعاون مع الفريقين وتستفيد من الجانبين ، وهذه السياسة الواقعية تقدم للدول الحديثة المحتاجة المساعدات ( طعماً ) شهياً هو الأمل في قيام تنافس بين اسرائيل الغنية بالخبرات والدول العربية الغنية بأموال النفط على تقديم تلك المساعدات من الناحيتين ، وقد كان من المألوف أن نواجه بهذه الكلمات من المسؤولين الأفارقة كلما أثرنا معهم قضـايا الوجود الاسرائيلي ، ( ومن الذي يمنعكم أنتم أيضاً من تقديم المساعدات لنـا ؟؟ ) .

ويخيل إليّ أن حسابات إسرائيل ومن يقفون وراءهـا كانت تقوم على أساس أن معسكرهم يملك من القوى والمنجزات والمغريات أكثر مما تملكه الدول العربية في مرحلتهـا الراهنة من النمو الاجتماعي الاقتصادي ، ويمكن معرفة نتائج السباق من بدايته في هذا الميدان .

ومن المحتمل أيضاً أن إسرائيل أدخلت في حسابهـا

إمكانية أن تتجه القوة الاقتصادية العربية لتعمير القـــارة الافريقية التي يمكن أن تستوعب كل الطاقة العربية بدلاً من أن تتحول للقوة العسكرية في الميدان الرئيسي المعركة ، وقد يلفت نظر الاقتصاديين العرب أن مساعدات اسرائيل المالية للدول الافريقية تعتبر ضئيلة للغاية ولا تتناسب بحـــال مع الدعاية الضخمة عنها ففي عام ١٩٦٧ لم تزد عن ١٫٥ ٪ من ميزانية إسرائيل العامة ، كما ان التبادل التجاري مع الدول الافريقية كان دائماً لصالحها فقد بلغت قيمة المنتجات الاسرائيلية في الأسواق الافريقية في عـــام ١٩٧١ - ١٩٧٢ حوالي ٤٠ مليون دولار ، أما المساعدات الفنية والبعثات والخـــبراء فالواقع أن فائدته هي لصالح اسرائيل سياسياً واقتصادياً .

مهما يكن من أمر فإن الاسرائيليين أدخلوا في أذهان الافريقيين أنه لا توجد مشكلة في الواقع ولن يكون هناك أي إحراج لهم تجاه العرب فيما لو تعاونوا مع إسرائيل ، وكثيراً ما كانت السفارات الاسرائيلية تصدر نشرات وكتيبات تظهر فيها اسرائيل كجزء طبيعي من المنطقـــة العربية ، وتبرز النشاطات الثقافية للجاليات العربية والاسلامية المقيمـة في اسرائيل كدليل على التعايش السلمي ( البناء ) بـين العرب واليهود ، وربما كان هذا الأسلوب متصلاً بالخطة الاسرائيلية العامة تجاه العرب بعد اغتصاب أرضهم ، وهي محاولة كسب مودتهم وإقناعهم بقبول الظلم والعيش به ، إلا أن هذه الخطة

في افريقيا كانت موجهة أيضاً للحكومات المحلية للغايات التي أسلفنا عنها الحديث .

وكثيراً ما تطوعت اسرائيل بإرسال كتب إسلامية وعربية لبعض المدارس الأهلية لتعليم الدين واللغة العربية ، ومن ذلك الفضيحة التي تورطت فيها حين وزعوا بكميات كبيرة مصاحف من طبعة إسرائيل ، غير أن بعض رجال الدين المسلمين اكتشفوا فيها أخطاء كثيرة وهاجموا التصرف الاسرائيلي على أنه مقصود للإساءة للقرآن الكريم ، وقد حاولوا أيضاً إرسال مدرسين عرب من المقيمين باسرائيل لتلك المدارس ولكن هذه الحركة فشلت من طرفيها حين اقتنع أصحاب المدارس بخطورة هذا الاتجاه ، ومن الناحية الأخرى يبدو أن الاسرائيليين أنفسهم أدركوا أن إرسال عرب لافريقيا فيه مجازفة لأنه ليس هناك ضمان في ألا ينقل هؤلاء الحقيقة المرة عن الفردوس الاسرائيلي المزعوم التي تحرص إسرائيل على إخفائه وحجبه .

وفي محاولة اليهود طمس المشكلة وإيهام الأفارقة بوجود تعايش عربي يهودي كانوا أحياناً يضعون الدبلوماسيين العرب في مواقف حرجة أمام الافريقيين ، أذكر في أغسطس ١٩٦٠ أنني حضرت احتفالات جمهورية الجابون بإعلان استقلالها ، وفي حفل غداء ضخم أقامه الرئيس ( ليون مبا ) حدث أن

جاء مجلسي بجانب مندوب آخر عرفت فيه عند تبادل الحديث سفير اسرائيل في باريس وأظنــــه المستر ( بن تسور ) الذي جاء يمثلها في الاحتفال وقد تكررت هذه المشكلة في مناسبات أخرى في بلدان مختلفة حين كان نظـام الجلوس يسير وفق الحروف الهجائية لأسماء الدول المشتركة .

لقد كان الرجل حريصاً على المجاملة وكان باستطاعتي البقاء في مجلسي دون الحديث معه ولكن مرت بذهني تجــــاربي السابقة مع الدبلوماسية الاسرائيلية ـ التي تميل لطمس المشكلة ـ أمام الافريقيين ، ووجدت أن من صالحنا نحن أن نبرز تلك المشكلة وأن نخلق الموقف الحرج الذي تحرص اسرائيل على تفاديه ، ولذلك وجدتني أقوم من مكاني محتجاً في ضجة لفتت جميع الأنظار ، وكانت الحادثة في الصحف صبيحة اليوم التالي مما منحني فرصة الحديث فيها مع كل من لقيت من المسؤولين .

لقد تكررت هذه الحادثة معي ولا بد أنهــا وقعت مع أكثر الزملاء العرب الذين حاول الدبلوماسيين اليهود فرض أنفسهم عليهم لاقناع المشاهدين بوجود الصداقة العربية ـ اليهودية المزعومة ، ولست أنسى ما حدثني به صديق سنغالي في إحدى زياراتي لداكار قال : إذا نزلت بالفندق الكبير هناك وأقبل عليك رجل وسيم ذو ملامح شرقية ليسلم عليك دون تعارف ، فالكمه في وجهه مباشرة ، لأنه سيكون السفير الاسرائيلي بكل تأكيد ، وتلك عادته مع الزائرين من العالم العربي .

ويأتي تحت عنوان إخفاء المشاكل أن الدعاية الاسرائيلية حرصت بعد عدوان السويس الثلاثي عام ١٩٥٦ أن تعفي على دورها في الجريمة مع أنها كانت هي الرابحة الوحيدة بعد المعركة ، والصلة بين تلك الحملة وافريقيا تكمن في خليج العقبة والبحر الأحمر ، فمن المعلوم أن اسرائيل قد أكدت لأول مرة ( حقها ) في استخدام تلك الممرات العربية إلى افريقيا الشرقية ، وكان هذا التطور هو بداية النشاط الاسرائيلي الواسع في تلك الأرجاء ، وكان من المفارقات الغريبة أن السياسة الناصرية في ذلك الحين كانت تميل أيضاً لأسباب عربية ومحلية خاصة بها لعدم إثارة هذه المشكلة أو الحديث فيها لما يحمله ذلك من تشويه لـ ( انتصار السويس ) الذي كان الرصيد الكبير للحكم المصري في ذلك الوقت في مسعاه لتحقيق أهدافه في المنطقة العربية ، ولذلك وجدنا أنفسنا في حالة من الحالات السياسية النادرة التي تتفق فيها النظرة بين الأعداء والأصدقاء لأسباب مختلفة تماماً ، غير أن هذا السكوت الذي فرضته المجاملة والحرص على شكل التعاون العربي فسرته الدعاية الاسرائيلية بأنه رضاء عن ذلك الموقف ومثال على الوفاق العربي - الاسرائيلي .

## إشاعة الخلافات العربية :

أما حين تنفجر الخلافات العربية وتتسرب إلى أفريقيا

عبر الحواجز والحدود وكثيراً ما كان يحدث ذلك ، فإن السفارات الاسرائيلية وأجهزة الدعاية تكون مستعدة لنقل اتهامات كل فريق عربي في الفريق الآخر ، فكثيراً ما كانت تضع تلك الاتهامات في شكل يجعل القارىء الافريقي يصدق الجانبين ، والحصيلة النهائيـــة تكون طبعاً ليست في صالح العرب في مجموعهم ، وبالرغم من أن السفارات العربية - والحق يقال - كانت تحرص على حجب هذه الخلافات بقدر الإمكان والحيلولة دون اندلاعها في المجتمع الافريقي ، تقديراً للمصلحة العربية العامة إلا أن الأجهزة الاسرائيلية النشطة كانت تتولى هذه المهمة نيابة عن الجميع ، وقد لفت نظري في إحـدى زياراتي للاقليم الشرقي وجود نشرة تحمل شعار سفارة عربية معينة تتضمن حملات مغرضة على الأردن موجودة في كل مكتب قمت بزيارته ، وبعد تحريات طويلة علمت أن الذي يطبعها ويوزعها بانتظام هي القنصلية الاسرائيلية في ( انوجو ) أما مواد الحملة فقد كانت تلتقطها من الاذاعات العربيـــة أو تقتبسها عن الصحف العربيـة الطافحـة بتلك الاتهـامات المغلوطة .

وقد حرصت على توضيح هـذه الحقيقـة في مؤتمر صحفي عقدته في انوجو في ٤ نيسان ( ابريل ) ١٩٦٤ الأمر الذي أدى بعد ذلك إلى انقطاع تلك النشرة ، غير أنني واجهت هذه الظاهرة في بلاد أفريقية أخرى ولا سيما تلك التي لا توجد

بها سفارات عربية ومثال ذلك الداهومي وتوجو في ذلك الحين مما أخلى الجو للسفارة الاسرائيلية لتعبث كما يحلو لها ، وحين نقلت انطباعاتي تلك إلى الزملاء العرب وخصوصاً سفير الدولة الشقيقة قام بالاجراءات الضرورية لمنع اليهود من استغلال الموقف .

على أن تطوع سفارات اسرائيل بنشر السخائم العربية على أوسع نطاق واستخدامها لزعزعة ثقة أصدقائهم لم تكن إلا جزءاً من الخطة المرسومة بدهاء لنسف الوجود العربي والاستفادة من الأخطاء العربية لتحقيق تلك الغاية ، فإذا لم توجد تلك الأخطاء في المكان والزمان المناسبين فإن أجهزة الدعاية والتلفيق مستعدة دوماً لاختراعها ، ومثال ذلك ما نشرته الصحف النايجيرية العاملة مع إسرائيل خلال الانتخابات العامة في الاقليم الغربي - الأوسط في عام ١٩٦٥ من أن الدول العربية قدمت مساعدات مالية لحزب الشعب الشمالي برئاسة ( أحمدو بللو ) لمعاونته في الحملة الانتخابية ، وكانت هذه الفرية مقصودة لتحقيق عدة أهداف إلى جانب تشويه سمعة العرب ، منها تخويف الأحزاب السياسية الأخرى التي تسيطر على الحكومة الفدرالية وعلى ثلاثة أقاليم من الاتحاد لتلتصق أكثر باسرائيل ، ومنها أيضاً أنه كان واضحاً أن الحزب الشمالي لا يملك - لاعتبارات كثيرة - أي حظ من النجاح وأن دخوله المعركة كان لمجرد

إثبات الوجود ، فأرادت اسرائيل أن تربط العرب بالفريق المهزوم وأن تقدم يـد المعروف للحزب المنتصر لتبدأ معـه الحوار بعد الانتصار ، لا سيما وأن اليهود وحلفاءهم كانوا قـد وصلوا حينذاك لمرحلة اليأس من أحمدو بللو وحزبه بعد أن جربوا معه كل وسائل الإغراء والترغيب ولم يعد أمامهم سوى أساليب العنف والاستئصال التي انفجرت بعد ذلك في انقلاب عام ١٩٦٦ .

## المغتربون العرب :

ومن عنـاصر الوجود العربي التي استحوذت على اهـتمام اسرائيل وجود الألوف من المغتربين العرب الذين استوطنوا افريقيا الغربية منذ وقت طويل حتى أصبحوا جزءاً من الكيان الوطني ، بل إن بعضهم استطـاع مع الزمن أن يحتل مراكز مهمة في مجالات الصناعة والتجارة ، وأن يقيم علاقات صداقة قوية مع القادة السياسيين ورجـال الحكم ، وقد استخدمت اسرائيل وسائل متعددة لتجميد هذه القوة العربيـة الهامـة تتراوح بين إغراء بعضهم على الدخول مع الشركات اليهودية في أعمال مربحة ، وبين تحريض الحكام الوطنيين الذين يقعون تحت تأثير الدعاية الاسرائيلية عليهم للتضييق على نشاطهم وأحياناً لطردهم من البلاد ، ومع أن عدداً نادراً فيما أذكر هو الذي قبل التعاون مع اليهود إلا أن هذه النتيجة أوقعت فتنة

كبيرة بين المغتربين الذين كانوا يرون إن أي تعامل مع اسرائيل ينطوي على خيانة للقضية الوطنية ، وبين ذلك النفر الذي من لاذ بحجج واهية تزعم بأن التجارة حرفة حرة ولا يجب أن تخضع لمنطق السياسة ، وهذا الجدل كان يوضح أكثر فأكثر تميع الصف العربي واختلاط الرؤيا أمام المواطنين في قضية المصير أمام الكتلة الصهيونية التي يخضع كل فرد فيها مهما كان مركزه لضرورات الخطة العامة ويدور معها كما تدور أجزاء الآلة في توافق وانسجاج .

وليس من شك في أن المغتربين العرب في افريقيا الغربية ، كانوا ضحية مصادفات تاريخية منكودة الطالع ، فقد نزلوا تلك الأصقاع البكر في وقت كان الاستعمار الأوروبي هوالقوة السائدة ، ولما كانوا يملكون خبرة تجارية أكثر نسبياً من الوطنيين الأفريقيين فقد كان طبيعياً أن يستغلوا الفرصة المتاحة للاثراء الواسع ، وحين انحسر المد الاستعماري وبرزت الميول الأفريقية العطشى للاستقلال وتأكيد الشخصية الوطنية بعد الكبت الطويل ، اصبح من السهل - وان كان ليس من العدل - اتهام هذه الجاليات بأنها من رواسب الاستعمار القديم وخصوصاً إذا تضافر على تأكيد هذا الاتهام أعداء قادرون من وزن اسرائيل وحلفائها .

على ان الكثيرين من المغتربين العرب قد اسهموا في ابراز هذه الصورة الظالمة بتصرفاتهم الخاطئة ، ذلك انهم لم يفطنوا للتغيرات الكاسحة التي تجتاح القارة ، ولم يبذلوا جهداً كافياً للتجانس مع الوضع الجديد ، ومضوا على النمط القديم يتوسعون في مشاريعهم العمرانية والتجارية بصورة أثارت حسد الطبقة الجديدة من رجال الأعمال الأفارقة ، وكان هذا المناخ مواتياً للاستغلال الاسرائيلي المتربص .

لقد بذلنا مجهودات متتالية لتنظيم الجالية العربية في نايجيريا مثلاً ، إلا أن هذه الجهود لم يكتب لها النجاح المأمول بسبب انقسام الجاليات العربية تبعاً للانقسامات الحزبية والطائفية في العالم العربي من ناحية ، وبسبب استغراقهم الكامل في التوسع التجاري وحرصهم على الابتعاد عن كل نشاط يمكن أن يوصف بأنه سياسي .

على أنه من غير الانصاف أن تلام الجاليات وحدها على هذه النتيجة ، دون أن تلام الدول العربية التي اهملت هذا الجانب ، وكان بوسعها أن تقدم لهم النصح ، وان تعمل – بصورة أفضل – على تنظيمهم وتهيئتهم لهذا التبدل الكبير .

وقد سهل مهمة اليهود للعبث بالجاليات العربية واضعافها عوامل أخرى ، منها ضعف الأرتباط العاطفي للمهاجرين بالاوطان الأم بمرور الزمن وعدم وجود محاولات جدية لمعرفة

مشاكلهم وربطهم في خطة عامة بما يتبع ذلك من تسهيلات اقتصادية ، كذلك قيام أنظمة ثورية متطرفة في بعض البلاد العربية جعلت همها مطاردة رأس المال العربي وارهابه ، مما دفع الكثيرين من المغتربين لعزل انفسهم عن المجموعة العربية وعدم المشاركة في النشاط الذي يمكن أن يضعها في مشاكلمع السلطات المحلية المتأثرة بالنفوذ الاسرائيلي .

ومن الانصاف القول أن لبنان – دون بقية الدول العربية – قد التفت لهذا الميدان الهام ، فبذل جهوداً كبيرة للاتصال بالمغتربين اللبنانيين تمثلت في انشاء الجامعة اللبنانيةالتي تولت انشاء فروع لها في مواطن الاغتراب، كماشجع الرأسماليين اللبنانيين على استثمار اموالهم في لبنان مما منحهم شعوراً بالثقة وروح الانتماء ، عدا انشاء الكثير من المدارس العربية اللبنانية لتعليم ابناء الجاليات العربية ، وهذه الأساليب وغيرها قد أفادت دون شك في تماسك الجاليات العربية ، غير ان أوضاع المغتربين العرب في الأقطار الأفريقية أمام الظروف المتقلبة والمؤامرات العديدة يحتاج إلى جهود أكبر لا يقدر عليها لبنان وحده ولا بد من معاونة الدول العربية الاخرى له في هذا المجال .

## عوامل إضافية للدعاية الاسرائيلية :

سيكون من الصعب – كما ذكرنا – عزل مجالات الدعاية

الاسرائيلية عن نشاط الدبلوماسية بفروعها واجهزتها المختلفة بسبب التنسيق الدقيق الذي يتحكم في كليهما كما يتحكم في كل الأجهزة في نطاق المخطط الاسرائيلي العام، وكما في الدبلوماسية كذلك في الدعاية تعرضنا في فصول سابقة للأرضية الأساسية والمناخ العام الذي انطلق منه الأخطبوط الاسرائيلي باطرافه المختلفة ، وهي اطراف مهما تعددت وتباعدت واختلفت أدوارها تظل كلها خاضعة لمركز الأعصاب الذي يحرك كل هذه القوى سواء في أفريقيا أو غيرها من القارات الخمس ، كما سيكون من التكرار الممل أن نتحدث مجدداً عن ( الحقيقة ) الاسرائيلية التي سوقت لأفريقيا رافلة في انتصاراتها الضخمة ومنجزاتها العظيمة ، مقابل ( الحقيقة ) العربية التي قدمت في صورة مشوهة والعوامل المختلفة التي ساعدت على ذلك،ولكن يعنيني الآن أن انتقل بالقارىء إلى مجال التطبيق وحقول التنفيذ في الصلة المباشرة بين المخطط الاسرائيلي والمواطن الأفريقي ، أي بين التعليمات التي يشترك في وضعها علماء ومؤرخون واقتصاديون وبين الواقع الذي يترجمه على الطبيعة سفراء وقناصل وخبراء واعلاميون .

وإذا كانت المركزية الصارمة التي اشرنا إليها في التخطيط أو ( الاستراتيجية ) فانه مما يوازيها في الفاعلية تلك المرونة الفردية في التنفيذ أو ( التكتيك ) ولا يضير أن نكرر هنا ن عوامل كثيرة قد ساعدت الاسرائيليين على تنفيذ هذا

المخطط المعقد وهي وضوح الغاية لدى الجميع ، والولاء المطلق لها ، ثم الدقة في اختيار العناصر الموثوقة المدربة لخدمة الأهداف ، ومن نافلة القول أن نعود لنذكر ان الدبلوماسية العربية كالدعاية العربية - تفقد الكثير من هذه العوامل وهذه الأسس الرئيسية التي يجب ان ينصرف لعلاجها المخططون العرب قبل البحث في الظواهر والتفاصيل .

يقول مردخاي كرينين في كتابه عن الوجود الاسرائيلي في أفريقيا أن السفراء والدعاة الاسرائيليين كانوا يملكون صلاحيات غير محدودة لاتخاذ قرارات مباشرة في أي قضية ، كما كانت تحت ايديهم اعتمادات مالية وافرة لتمويل أي مشاريع تدخل في اختصاصهم ، ولا أظنني اذيع سراً مغلقاً إذا قلت أن أكثر المبعوثين العرب كانوا لا يملكون التصرف في ابسط خطوة دون استشارة حكوماتهم بما يحمله ذلك من اضاعة الوقت ومرور الفرص ، وكثيراً ما يجيء الجواب - هذا إذا جاء - بالرفض لا سيما إذا كان الطلب يحمل تكاليف مالية ، ولست أحب أن أضع اللوم على أي جهة فلربما كان للرفض أيضاً أسبابه ووجاهته ، ولكن المهم أننا كنا نحس بوجود فجوة واسعة بين من يعملون في الحقل وبين من يحكمون على عملهم وراء ألوف الأميال ، ولذلك كله أسباب عديدة تتصل بالثقة والتنظيم الاداري والقدرة المالية والخطة العربية الموحدة ، وهي عوامل الضعف الأساسية التي نطل عليها دائماً في كل

منحنى من حنايا هذا البحث او كل مرحلة من مراحل الصراع العربي – الاسرائيلي ، في آفاقه الواسعة المتعددة .

ومما يسهل مهمة الدعاة الاسرائيليين في الأقطار الحديثة وجود تلك الشبكة العالمية التي يسيطر عليها اليهود بوسائل مختلفة ، والتي تتحكم بشكل مباشر أو غير مباشر في أجهزة الاعلام والترفيه المحلية من إذاعة وصحافة وتلفزيون وسينما ومسرح وغيرها .

لقد لفت نظري أن مؤسسة صحفية كبرى كانت تنشر دائماً أخباراً وتعليقات مسيئة للعرب ، غير أن مصدر الأخبار والتعليقات على الأغلب هي الوكالات الأجنبية ، فخطر لي أن أزور تلك المؤسسة وأتعرف بالقائمين عليها وهناك وجدتني وجهاً لوجه مع الحقيقة المذهلة ، اكتشفت أن تلك المؤسسة شركة مساهمة فيها نصيب كبير للأوروبيين ، وفيها محررون بعضهم من اليهود الذين ينتمون لجنسيات أوروبية ، وقد أوضح لي المدير العام وكان من الوطنيين أن هذه الأخبار والتعليقات تأتي عبر الوكالات الأجنبية ، وكل دورهم هنا يتلخص في تشذيبها ووضعها على الآلات لتملأ فراغاً يجب أن يملأ في الجريدة العملاقة ، من هذه الصورة تبدو حلقات الشبكة العالمية المتصلة من أدغال أفريقيا أو مدن آسيا بدور الصحف وأجهزة الاعلام في قلب أوروبا أو أميركا عبر وكالات الأنباء

التي يؤثر – حتى لا نقول يسيطر – عليها اليهود ، ولما ذكرت لصديقي الوطني تلك الصورة هز رأسه بأسىً وقال : لعل هذا التصور صحيحاً ، ولكن للأسف ليس في أيدينا علاجه ، لأن القارىء ينتظر منا كل يوم مادة جديدة وليس لي خيار سوى أن أعب من الصنابير المتاحة دون بحث في المصادر والينابيع البعيدة ، أما ما لم يعرفه صديقي ربما وما لم أستطع الخوض فيه مراعاة لآداب الضيافة فهو أن من بين محرريه ( الوطنيين ) أيضاً من يعملون مع الأجهزة الاسرائيلية لقاء أجر ومغريات وجوائز مختلفة ، وهؤلاء مهمتهم حجب كل خبر أو تعليق ينفع العرب ، وإبراز ما يساعد على إنجاح الخطة اليهودية !.

حتى دور السينما التي يفترض نظرياً أنها تعمل للترفيه وتتحاشى إخضاع الفن للعوامل السياسية كانت مسخرة كذلك لخدمة الخطة العامة ، ذلك لأنها كانت متأثرة بدائرة الجهاز الواسع الذي يمتد عبر المحيطات وله على الصعيد المحلي أجناده وعملاؤه ، وفي مرات كثيرة كنا نحتج لدى الحكومة النايجيرية مثلاً ، وأحسب أن ذلك وقع في بلاد أخرى ، على نوع معين من الأفلام يدور حول تمجيد النضال اليهودي وتبرير عدوانه ، وتصوير العرب وكأنهم الهنود الحمر الذين يعارضون الرسالة الحضارية التي تحملها إليهم إسرائيل، ولكن هذه الاحتجاجات لم تلق أي تجاوب بدعوى أن هذه مهنة حرة لا سلطان

الدولة عليهـــا ، حتى أصبحت تلك الاحتجاجات مجرد عمل روتيني نقوم به أداء لواجبات الوظيفة ويقبل منـا كذلك إرضاء للضرورات الدبلوماسية .

ولكي أوضح جوانب هذه الناحية من النشاط الاسرائيلي المنسق في مجالات الدعاية المختلفـة اقتبس من أوراقي الخاصة مقابلة أجريتها مع موظفي وزارة الخارجية والاعلام في لاجوس بتاريخ ٢٥ مايو ( أيار ) سنة ١٩٦٥ حول فيـلم ( الخروج ) القائم على قصة « ليون أوريس » المشهورة وسط ضجة دعائية واضح فيها التخطيط المدبر وضمن سلسلة متصلة من نفس النوع من الأفلام ، مما دعا السفارات العربية للقيام بمساعي منفصلة في هذه القضية التي تخرج قطعاً عن مجرد الترفيـه أو التجارة الحرة وإنما تعكس خطة سياسية منسقة ، وقد أمكن فعـلا تعطيل عرض الفيلم بضع أسابيع عن طريق الدوائر الحكومية المختصة ، ولست أدري كيف تسربت هذه الاتصالات للصحف المحلية حتى فوجئنا بمقالات عنيفة نتعرض لاحداهـا بشكل خاص وهو الذي ظهر في جريدة الصانداي تايمس بتاريخ ١١ يوليو سنة ١٩٦٥ لأنه من المقالات الذي لا يحمل توقيعاً ولكنه يحمـل طابع أجهزة الاعلام الاسرائيلي ويمرر للقارىء خلال تلك القنوات التي تبدأ من المكاتب الاسرائيليـة وتنتهي في مطابع الصحف . وكان المقال بعنوان ( راقب خطواتك يا سيد اكس ) وكان واضحاً أن المقـال كغيره يدق على نغمات

خاصة يمكن أن تؤثر في القارىء الافريقي . يقول المقـال : « يوجد في هذه البلاد سفير نرمز له مؤقتاً « باكس » يتصور أن بإمكانه التدخل في شؤوننا الداخلية – إنـه اليوم يحاول أن يقرر لنا أي فيلم لا يجب أن نشاهده ، وغداً سيحاول أن يقرر ما يمكن أن يسمح لنا بمشاهدته ، ومن يدري فلعله يأتي اليوم الذي يقرر فيه من يكون رئيس الوزراء في هذه البلاد».

«انه يوجد تحت يدنا اتفاق بين إحدى دور العرض هنـا وإحدى شركات الانتاج لعرض فيلم ( الخروج ) الذي يصور نضال اسرائيل من أجل استقلالها ، وقد كان مفروضاً أن يعرض هذا الفيلم منذ وقت طويل ، ولكن المواطنين قد لا يستطيعون مشاهدته لأن السيد اكس يعتقد أنهم لا يستحقون ذلك » .

«ولم يكتف بذلك بل حرض الوفود والمظاهرات (الاسلامية) لمنع عرض الفيلم ، ممـا يذكرنا بمحاولة بعض السفارات عرقلة زيارة جولدا مائير إلى نايجيريا قبل شهور ، وممـا يذكر أن محاولات السيد ( اكس ) قد عطلت قبل ذلك عرض فيـلم ( بن هور ) وفيلم ( السد ) في مسارح ناجيريا بنفس المنطق ».

وهذه السطور القليلة من مقال طويل هي نموذج لعناصر الحملة التي كانت تشن لمنع السفارات العربية من أداء واجبها ، بالرغم من أن صلاتنا كانت سليمة من الناحية الرسمية ، وهذا

الاسلوب اليهودي كان يعتمد أساساً على أن الأفريقيين بطبيعتهم يكرهون أي خدش لاستقلالهم وكل عمل يحمل طابع التدخل في حرياتهم ، كما أنهم يهوون المتعة والتسلية ، ويكرهون دون سؤال من يحول بينهم وبين ما يشتهون ، ولذلك جاءت الحملة تركز على تلك النقاط ... كما أن هذه الحملة المنظمة كانت نموذجاً للتنسيق بين عملاء كثيرين في أكثر من مؤسسة واحدة وكان هذا هو الحال في اكثر المواقف التي وجدنا أنفسنا فيها وجهاً لوجه أمام التيار الصهيوني .

وهناك حادثة أخرى أدت لحملة مماثلة ، حين زار المؤرخ العالمي البروفسور ارنولد توينبي نايجيريا في أواخر فبراير سنة ١٩٦٤ وقد وجدنا من المناسب أن ننظم له لقاء مع رجال الصحافة حيث كرر آراءه المعلومة ضد الكيان الصهيوني وهي آراء تثير سخط القادة اليهود لما لصاحبها من وزن علمي كبير وخصوصاً في الأوساط المثقفة ، ولم يكن بامكان الجهاز الاسرائيلي كبت آراء رجل من عيار توينبي ،فخرجت الصحف الوقورة في اليوم التالي تنقل حديثه تحت عناوين مثيرة مثل ( توينبي يندد باسرائيل ) و ( توينبي يحذر افريقيا ) ، غير أنني في اليوم التالي وجدت نفسي وسط زوبعة سباب من الصحافة العاملة مع اسرائيل وكلها كالمعتاد مقالات لا تنتسب لأب معروف وإنما تحمل تلك الملامح التي اعتدنا عليها ، ولم تنته القضية عند هذا الحد، ولكنها تطورت إلى تقديم مذكرة

احتجاج ضدنا من السفير الاسرائيلي لوزارة الخارجية النايجيرية من ناحية ولمعهد العلاقات الدولية الذي كان يرعى رحلة توينبي في افريقيا ، وكانت تلك هي إحدى المناسبات الكثيرة التي وجدنا أنفسنا فيها نصطدم مباشرة بخيوط الشبكة الاسرائيلية مما أعاننا على معرفة أبعادها ومدى تأثيرها وإن كنا لم نستطع مواجهتها بالقدر الكافي بسبب العيوب والعقبات التي كانت دائماً فوق القدرات والممكنات .

# الإسلام أمام الصهيونية

ان النجاح المبدئي الذي احرزته اسرائيل في أفريقيا - بالرغم من كل العوامل المساعدة التي أشرنا إليها - يظل ظاهرة غريبة تنطوي على الكثير من التناقض والمفارقات، وتقع في قمة المفارقات حقيقة ربما اشرنا إليها في أكثر من موضع ولكنها تستحق منا وقفة أطول، ونعني بذلك ان اسرائيل قد اقتحمت ميداناً غريباً عنها وليس لها به منصلات إلا الروابط الحديثة المصطنعة التي تقوم على التلفيق والتزييف، بيد أن للعرب والمسلمين فيه جذوراً عميقة تضرب في اطباق التاريخ البعيدة بل في مجاهل الزمن قبل أن يوجد من يدون الحوادث ويسجل السير والأخبار.

وهذا الوجود التاريخي ليس مجرد قصص طواها الزمن، وإنما ينعكس في واقع هو احدى الحقائق الكبرى في أفريقيا السوداء، ورغم ذلك نجد اسرائيل تتحدى كل ذلك وتدخل في مغامرتها الضخمة دون تردد، ومع اننا نشهد الآن كثيراً من البوادر التي تشير إلى أن واقع التاريخ سيفرض نفسه في النهاية ويدفع المؤامرة إلى الفشل المحتوم، إلا ان الحقيقة

البشعة تبقى درساً كبيراً لا يجب أن يمر دون فهم واستيعاب، وتلك الحقيقة هي ان اسرائيل تلك الدولة الصغيرة المبتوتة الصلة بالواقع الأفريقي قد استطاعت فعلاً أن تتحدى الوجود العربي الإسلامي العريق وتتغلب عليه ردحاً من الزمن، وما كان ذلك ليحدث لولا عيوب ونقائص أساسية استطاعت ان تشل الإرادة العربية الإسلامية وتمنعها من استغلال الطاقات الهائلة المتاحة إليها، وهذه العيوب هي التي تستحق منا كثيراً من الحديث الصريح بعد قليل.

## الجذور العربية الاسلامية:

لست أود أن أجاري رغبة عارمة في تقصي هذا الموضوع الممتع في جوانبه التاريخية والدينية حتى لا نخرج عن البحث الأساسي، ولكن سأكتفي بالاشارة لبعض الجوانب البارزة التي تعين على تصور متانة الوجود العربي - الاسلامي الذي ينبرى اليوم للتحدي الكبير الذي تفرضه اسرائيل وشركاؤها.

يختلف المؤرخون خلافاً كبيراً حول تواريخ دخول الإسلام لأفريقيا السوداء أو الطرق التي سلكها هذا التغلغل السلمي إلى قلب القارة البكر، إلا أن أقرب الآراء للصواب تميل إلى ان سواحل أفريقيا الشرقية قد تأثرت بالدين الجديد في نفس الوقت الذي بدأ يرسي كيانه في الجزيرة العربية، وقد ذكر البرفسور

ريجبي في بحث تقدم به في ندوة دراسية دولية انعقدت في جامعة احمد وبللو في زاريا في يناير ( كانون الثاني) عام ١٩٦٤ تحت عنوان: الإسلام في أفريقيا الاستوائية (١) ان تلك الأجزاء من شرق أفريقيا قد تأثرت بالإسلام منذ القرن السابع الميلادي في خلافة عمر بن الخطاب ، وان المسلمين بنوا ميناء مقديشو وغيره من الموانىء على الساحل الصومالي مباشرة بعد الهجرة في عام ٦٢٢ ميلادية ، ومع ان أفريقيا الغربية قد استغرقت وقتاً أطول بسبب البعد الجغرافي عن مراكز الثقافة العربية إلا ان الرحالة والمؤرخين العرب كالعمري والأدريسي وابن بطوطة والأوروبيين كليون الأفريقي وبيرير البرتغالي قد وجدوا حضارات إسلامية مزدهرة حين زاروا ممالك كانم وغانا ومالي وبورنيو ، وذهب بعضهم للتأكيد بأن القرن الثامن الميلادي قد شهد بداية تدفق الهجرات من البلاد العربية العربية واختلاطها بالسكان المحليين وارساء أسس التطورات الحضارية التي شهدتها القارة ، وقد ذكر فنسنت مونتي في بحثه الشامل عن اسلام شعب التكرور في حوض نهر السنغال (٢) ، اعتماداً على مراجع تاريخية محترمة ان القرن الحادي عشر الميلادي قد شهد اسلام هذا الشعب باعداد كبيرة .

---

(١) P. J. A. Rigby, Sosiological factors in the contact of the Gogo of central Tanzania with islam.

(٢) Vincent monteil, lat-Dyor, Damel du Kayor et l'islamisation des wolofs du sénégal·

أما اللغة العربية فقد دخلت في ركاب الدعـــاة والتجار المسلمين واستقرت مكانتها حتى اصبحت لغـــة العلم والأدب والتعامل السياسي بين الملوك والامراء ، ويكفي للتدليل على ذلك ان أهم المراجع التاريخية القديمة كأضابير (اشانتي) و(كانو) في أفريقيا الغربية ومحفوظات ( كلوة ) في أفريقيـا الشرقية أكثرها باللغة العربية ، حتى قـال بعض الكتاب الأوروبيين اننا إذا نزعنا الوثائق التاريخية المكتوبة باللغة العربية لا يبقى ثمة تاريخ يعتمد به لأفريقيا السوداء ، وفي متحف غانا الوطني توجد نسخ من المعاهدات التي وقعها ملوك اشانتي مع القـادة البريطانيين في أوائل القرن الثامن عشر باللغة العربية ، وحتى المبشرين الذين صاحبوا الغزوة البريطانية في ( كوماسي ) كانوا في عجلة من أمرهم فلم ينتظروا حتى يترجموا الانجيل باللغـــات المحلية أو يعلموا السكان لغة الغزاة الجدد ، إنما قاموا بتوزيعه مترجماً للعربية مما يعني انتشارها الواسع بين الوطنيين في ذلك الوقت .

ولست انسى ما قاله لي أحد وزراء زنجبار حول هـــذا الموضوع اثناء زيارتي للجزيرة عام ١٩٦٤ قال: (يكفي للتدليل على مكانة العرب ولغتهم بالنسبة لنا أن نعلم أنه لا يوجد في اللغة السواحلية ، كلمة مرادفة لكلمة تحضير أو تمدين سوى كلمة ( تعريب ) ، فإذا أردنا أن نتحدث عن مشروع لتطوير

قرية زراعية قلنا ، تعريب تلك القرية ، وهذه الكلمة الواحدة تصلح نافذة عريضة على تاريخ مجيد طويل ! ) .

وفي روديسيا لفت نظري لفظ ( جنبو ) الذي يستخدم هناك بمعنى صديق أو رفيق في اللغة المحلية ، حتى اخبرني عالم معروف أن هذا اللفظ هو البقية الباقية من لقب ملكي ، كان يحمله ملوك دولة ( كارانجا ) القديمة في تلك البقاع الذين كانوا يعينون بفرمانات من سلطان زنجبار العربي ، وهذا اللقب مشتق من شطر الآية الكريمة المعروفة ( والصاحب بالجنب ) بمعنى أن هذا الملك حليف للسلطان العظيم ومفوض باسمه ليحكم في تلك المملكة ، وتحريف الألفاظ كتحريف الأسماء العربية في أفريقيا ظاهرة طريفة تشير إلى أثر القطيعة ونتائج العزلة التي فرضها الاستعمار الأوروبي على الكيانات العربية حتى جفت وتقلصت كما تجف الأغصان الخضر وتتغير طبيعتها الجميلة حين تنفصل عن جذعها اليانع وتنقطع عنها عصارة الحياة .

لقد كنت دائماً أذكر هذه الحقيقة كلما التقيت بأصدقائي الأفريقيين الذين يحملون أسماء عربية محرفة فهو ( مسامادو ) بدل محمد و ( أمادو ) بدل أحمد و ( جـا ) بدل جعفر ( موديبو ) بدل مؤدب وهكذا !.

أما الاعتزاز بالعرب والحرص على الانتساب اليهم فظاهرة يلمسها كل من يتجول في تلك الأصقاع ويحاول الاتصال

بسكانها عن كثب، فكثير من القادة والزعماء ينسبون أنفسهم إلى سلالات عربية ومنهم من يطيب له أن يتحدث تفصيلاً عن شجرة الأسرة ويردها الى جذورها القديمة في البطون العربية المشهورة ، بل ان قبائل - والصفة الأصح هي شعوب - بكاملها تنسب نفسها للعرب ، فالفلاني الذين يصل عددهم إلى أكثر من خمسة ملايين يردون أصلهم إلى عقبة بن نافع فاتح المغرب وينسجون حول ذلك في أشعارهم فصولاً جميلة تختلط فيها حقائق التاريخ مع ظلال الأساطير ، وينافسهم في ذلك اليوربا الذين ينتشرون بين نايجيريا والداهومي وفولتا ، والذين يؤكدون أنهم من صعيد مصر وأن اسمهم يدل على ذلك ، وكذلك شعب التكرور في السنغال وغيرهم ، ولست هنا في مقام مناقشة هذه المعتقدات لأن لها مجالاً غير هذا المجال ، ولكن حسبها أنها تعكس الرغبة في الانتساب للعرب والاعتزاز بوجود صلة معهم .

## الاسلام أمام الغزوة الاستعمارية :

حين بدأت الأقطار الأوروبية تتجه لاستعمار القارة الافريقية واستثمار خيراتها اتخذت تلك الحملة لنفسها صوراً مختلفة على امتداد عشرات السنين ، وقد تطورت على النمط الاستعماري المعروف في كل مكان بين الارساليات التبشيرية ، فالشركات الاستثمارية ، ثم الغزو المسلح لحماية حرية العبادة

وحرية التجارة . وفي جميع مراحل تلك المسيرة كان الاسلام هو الكيان الوحيـــد في القارة الذي تصدى لتلك الغزوة ، فالمبشر المسيحي كان لا بد أن يصطدم بالعقيدة الاسلامية التي استقرت قبله بقرون طويلة ، وكذلك الشركات الأوروبيـة إزاء التجار المسلمين، على ان الكيانات السياسية الاسلامية كان لا بد أن تصطدم بالقوة الوافدة وأن تتصارع معها ، وحتى حين استتب الأمر للمستعمر الأوروبي بفضل تفوقـه الكاسح في الأسلحة وأساليب الحرب الحديثة ، بقي البركان الاسلامي ينفجر في مناطق مختلفة من القارة السوداء ، وقامت ثورات اسلامية على الأغلب هي كل تراث الأفارقـــة ضد الهجمة الاستعمارية ، وهكذا رأينا ثورات الحاج عمر التيجاني والشيخ حماه الله والملك ساموري في غرب افريقيا ، والمهدي والشيخ بشير وعبد المحسن في شرق افريقيا .

لم يجد الاستعمار وصنوه التبشير صعوبة كبيرة في إخضاع المناطق الوثنية ثم السيطرة عليهـــا ، ولم يكن الأمر بنفس السهولة حين جاء دور الممالك والإمارات الاسلامية ، إذ كان عليه أن يقاتل بشراسة لتدميرها ، ثم يضع الخطط السياسية والاقتصادية الطويلة لضمان إخمادها ، ولعل في قصة نايجيريا مع الاستعمار البريطاني مثالاً على أن الحدود التي وقف عندها المد الاسلامي كانت على الأغلب هي الحدود التي عرقلت التغلغل التبشيري والاستعماري قبل أن يكتسحها عنوة .

يعترف السياسي النايجيري الجنوبي ( أولو ) في مذكراته المطبوعة أن البعوض وحده هو الذي تصدى للحملة البريطانية في حوض النايجر ، مشيراً بذلك إلى فناء أول مجموعة بريطانية بالحمى الصفراء ، ولكن الوضع يختلف حين يصل التسرب البريطاني البطيء إلى الإمارات الاسلامية في الشمال، وفي ذلك أيضاً يقول الزعيم الشمالي الشهيد أحمد وبللو في كتابه المنشور « حياتي »: « قبل سبع سنوات من مولدي طرد البريطانيون السلطان طاهر آخر سلاطين سكوتو المستقلة، ثم طاردوه حتى حدود بورنيو حيث قُتل وهو يقاتل ، وقد عثروا على رايته بجوار جثته حيث نقلت إلى لندن ولم تعد إلى نايجيريا إلا بعد الاستقلال حين سلموها الينا في احتفال مهيب .. الخ [1] ».

في كتابه القيم عن تاريخ الاسلام في غرب افريقيا يروي ( سبنسر ترمنجهام ) بكثير من التفصيل الحركات العسكرية والسياسية التي تصدت لمقاومة الزحف الأوروبي على القارة السوداء طيلة القرن التاسع عشر الميلادي تحت إمرة قادة من المسلمين ، ومع أن الكاتب حاول أن ينتقص من أدوار هؤلاء القادة زاعماً أنهم كانوا يدافعون عن مصالحهم الشخصية أو القبلية ، وأنهم حفنة من المغامرين الطامحين الذين عجزوا عن

---

(1) ( My Life ), Sir Ahmadu Bello, The Sardauna of Sokoto.

فهم الرسالة الحضارية للتسرب الأوروبي ، إلا أنه لم يملك أن يعترف أنه «من خلال المقاومة التي قدمها هؤلاء المغامرون فإن الاسلام أصبح يجسد المقاومة ورد الفعل للتغلغل الأوروبي ، وهي تركة بقيت الصفة الغالبة للأطوار الأولى للحكم الأوروبي » (١).

وهاتان الحالتان المختلفتان تماماً تجاه المستعمر قد فرضتا باستمرار سياستين استعماريتين ملائمتين ، فبالنسبة للجنوب النايجيري – وينطبق ذلك على أكثر البلدان الافريقية – ملأ الحكم الأوروبي فراغاً قائماً في السياسة والاقتصاد والدين والتعليم ، وأنشأ على الصورة التي يريدها وتتفق مع هواه إطارات للحكم المحلي ليس لها من طبيعة سوى تلك الطبيعة التي صاغها السيد الجديد ، أما في الشمال المسلم فكان لا بد أن يضع الخطط لحكم منطقة محتلة وشعب مغلوب على أمره بقوة السلاح ، ومع أن درجات العنف والتسامح قد اختلفت في كل بلد باختلاف أساليب المستعمر ودرجات المقاومة ، إلا أن النتيجة كانت دائماً واحدة ، هي التعامل الحذر مع المسلمين ، وتذويب جميع المراكز القيادية والفكرية التي يمكن أن تتبلور حولها المقاومة في الحاضر أو الآجل ، وفي المقارنة بين أساليب

---

(١) A history of islam in west Africa
J. spencer Trimingham.

الاستعمار القديم في كل بلد إسلامي ، والانفجارات المدوية أو المكتومة بين المسلمين التي كانت ثمرة لها تنفتح أمامنا الآفاق لبحث طويل متشعب ليس هنـا مجاله أيضاً لبعده عن صلب البحث ، ولأن فيه من ملامح القارة الغامضة ما في تضاريسها ومناخاتها من التعدد والاختلاف .

## اسرائيل ... أسلوب من أساليب الحرب المستمرة :

في الخلفية التاريخية لمعركة الاسلام المستمرة مع الاستعمار ، وهو عنصر ظل يرافقنا في هذا البحث من بدايته ، تظهر من جديد الصورة الملائمة للحلف الاستعماري الصهيوني الذي قـام للحفاظ على مجموعة من الأهداف القديمة التي خيل اليهم أنهـا يمكن أن تبقى بعزل القارة الافريقية نهائياً عن المحيط العربي ـ الاسلامي، وتحقيق أهداف جديدة تكمن في إعادة الاستعمار الاقتصادي بثوب مغاير ، وتقنية خيرات افريقيا الزاخرة نحو مراكز الاستعمار الجديد التي تعتبر اسرائيل داعيتـه الأولى وركنه الرئيسي .

وكانت الخطة في غاية الدهاء والحذق وتعتمد على ظروف واقعية قائمة لا تجعل امام الأفريقي أي خيار سوى القبول بها والنزول على احكامها كما شاهدنا في الأبواب السابقة ، وليس من التكرار الممل أن نقول أن مما ساعد على انجاح تلك الخطة

هو الواقع العربي المفكك ، والمحاولات المستمرة لعزل العرب عن التراث الإسلامي تحت شعارات التحرر والثورية والاشتراكية ، بل تطوع بعض قادتهم البارزين لاتخـــاذ مواقف مناوئة للكيانات الإسلامية في أفريقيا وتأييدهم للحركات المعادية لهـا بما فيها تلك الحركات الضالعة مع اسرائيل والاستعمار ، حتى لكأنه كان مقصوداً في الوقت الذي تحتـــدم فيه الهجمة على الإسلام في افريقيا أن تقع في البلاد العربية عملية مشابهة تمنحها الدعم والاسناد .

لقد كان من المألوف حين يقع اجراء من تلك الاجراءآت الكثيرة التي تعمدها بعض الزعماء الأفريقيين لمطاردة الفكر الإسلامي في بلادهم أن يقال في مجال التبرير أننا لم نفعل أكثر مما يفعله الزعماء العرب وان غايتنا هي غايتهم في القضـاء على الرجعية الدينية وإزالة العراقيل امام المدنية والتطور الحديث ، وتحت هذا العنوان الأخاذ ارتكبت في الناحيتين جرائم كثيرة كانت كلها في صالح الصهيونية والاستعمار الجديد .

ومن ذلك ما نشرته جريدة مورننج بوست النايجيرية في عددها الصادر بتاريخ ٢٢ فبراير عـــام ١٩٦٥ ، ان « هوفي بوانييه » رئيس جمهورية شاطىء العاج استدعى بعض رجـال الدين الإسلامي إلى مكتبه وانـّبهم بشدة واصفاً اياهم بالأنبياء المزيفين ثم أمر باعتقالهم ، وحين قامت بعض اعمـال الشغب

احتجاجاً على هذا الاجراء قالت الحكومة انها لم تفعل أكثر مما تفعله الحكومات العربية ضد الفئات التي تثير الفوضى في البلاد ، بقي أن نعرف أن تهمة المسلمين في شاطىء العاج كانت الاحتجاج على النشاط الاسرائيلي المتزايد في تلك الدولة !!..

من اليوم الأول لم تغفل اسرائيل الوجود الإسلامي في أفريقيا جريـــاً مع سياستها العملية الواقعية التي تدرس كل عناصر الموقف وتضع لها الخطط المرنة التي تنطوي على البدائل والاحتمالات ، ولا شك انها استفادت في هذا الميدان الهام كما استفادت في غيره من الميادين من دراسات وخبرات الأجهزة القديمة التي التقت معها في الأهداف والغايات، وواصلت سيرها على الدروب المطروقة منذ عشرات السنين بعد ان اضافت لها عصارة الخبرة اليهودية في التعامل مع الشعوب الإسلامية .

أرادت اسرائيل – بدعم من حلفائها – أن تبين للمسلمين بطلان فكرة التعاون الإسلامي أو الأخوة بين المسلمين ومـا يترتب عليها ويتبعها من تضامن ضد الأخطار والمظـالم ، وان تقنعهم انها مجرد فكرة عاطفية لا وجود لها في عـالم المصالح الوطنية والعلاقات السياسية بين الدول المتحضرة ، ولم يكن من الصعب في كثير من الحالات التوصل لهذه النتيجة للأسباب التي أتينا عليها والتي نوردها ملخصة :

أولاً . الظروف الاقتصادية والاجتماعية السيئة التي خلفهـا

الاستعمار ، وبروز اسرائيل كبديل مناسب ليس في مظهره ملامح الاستعمار القديم أو مخاطر الشيوعية الدولية .

ثانياً : غياب البديل العربي عن الساحة الأفريقية بسبب العقد التاريخية المفتعلة من ناحية ، والضعف العربي العام في مجال الخبرات الفنية والمساعدات الاقتصادية ، مضافاً إلى ذلك كله استغراق العرب في منازعات عنيفة تجعل التقرب منهم محفوفاً بالمخاطر والمجازفات .

ثالثاً : ضعف الانتماء الإسلامي والحماس له لدى القادة الأفريقيين بفعل العوامل التاريخية التي اشرنا إليها وجفاف الصلة بالعرب والتأثر الواسع العميق بحضارة الغرب ، وهي ظاهرة ليست في الأفريقيين وحدهم ولها مظاهرها ودلالاتها الواضحة في العالم العربي .

رابعاً : ان الدعاية الصهيونية الواسعة المنظمة من ناحية ، والتصرفات الخاطئة من الجانب العربي من ناحية اخرى التقت لتقنع الأفريقيين ان هذه المعركة ليست معركة إسلامية مصيرية وإنما هي احدى المنازعات السياسية العادية التي لا تستحق التضحية بأي مصلحة وطنية ، وان بعض العرب الذين يكسبونها شكلاً اسلامياً هم مرفوضون عند العرب قبل غيرهم ، أو مستغلون يحاولون اقحام الدين في الشؤون السياسية ، ولا تزال تطن في اذني الحملة (العربية) الضارية على ماسمي حينذاك

ظلماً بالخلف الاسلامي وما الحق به من الأوصاف والنعوت التي كانت سفارات اسرائيل تتطوع بتوزيعها في طول القارة وعرضها . ولكي تصل اسرائيل لغايتها النهائية في تكريس عزل المسلمين وتجميدهم عن أي مشاركة ايجابية في الصراع مع الصهيونية لجأت لعدة اساليب :

أولاً : اعطاء اولوية للدول الاسلامية في أفريقيا في مجال المساعدات والمعونات والتمثيل السياسي ، والحفاظ على التواجد فيها بأي ثمن ومهما كانت العراقيل والمضايقات ، وقد اشرنا لشيء منها .

ثانياً : دعوة بعض القادة المسلمين البارزين سواء كانوا من السياسيين أو رجال الدين ، لزيارة اسرائيل والاحتفاء بهم وكسب صداقتهم بكل وسيلة ، ثم نقل آرائهم وانطباعاتهم عن منجزات الدولة اليهودية ولا سيما الحرية الدينية والرفاه الاقتصادي لدى الأقلية الاسلامية هناك .

ثالثاً : توزيع الكتب الاسلامية على المساجد والمدارس العلمية وتقديم تبرعات مالية أو منح دراسية واستغلال ذلك كله لأغراض الدعاية بين الشعوب الأفريقية .

رابعاً : استخدام اساليب الحرب النفسية للتأثير على المسلمين سواء في التذكير بدور العرب المزعوم في تجارة الرقيق

وتقديمه بشعاً مضخماً في سيل من الكتب والافلام والنشرات، أو في نقل المشاجرات العربية على نطاق واسع وهي مشاجرات لم تكن على كل حال من اختراع الاسرائيليين وحدهم، وإنما فيها الكثير من الحقيقة التي تصلح أساساً للمبالغات .

**نظرة للوراء في التجربة الاسلامية :**

لعلي استطيع الآن بعد مضي عشر سنوات كاملة على بداية الاتصال مع الجماعات الاسلامية في أفريقيا ان ألخص التجربة المتواضعة وما اشتملت عليه من الدروس والعبر، وما خالطها من أقدار الخطأ والصواب .

لقد قمت في أواخر الخمسينات بجولات واسعة في أفريقيا السوداء نيابة عن المؤتمر الاسلامي بالقدس ولم تكن موجة الاستقلال قد بدأت بدايتها المثيرة في أكثر الأقطار مع مطالع الستينات، وإن كانت التحركات توحي في ذلك الحين بأن القارة تدخل مرحلة حاسمة وأن قوى الاستعمار القديم تتعرض لرياح التغيير التي تنبأ بها هارولد مكميلان رئيس وزراء بريطانيا قبل ذلك بوقت قصير اثناء جولة له انتهت في جمهورية أفريقيا الجنوبية .

ومن الانصاف لمؤتمر القدس أن نذكر في هذا الموضع انه كان — فيما أعلم — أول منظمة في البلاد العربية تعنى بالاتصال

بالجماعات الشعبية في أفريقيا وتدعو وفوداً منهم كل عـام للمشاركة في الندوات السنوية التي تعقد بجوار المسجد الأقصى، حيث تتاح لهم المناسبة للتعرف على القضية الفلسطينية وابعادها ونقل تجاربهم عنها إلى بلادهم، وقد أتيح لي بعد ذلك أن أقدر هـذا المجهود الطليعي، حين وجدت ابحـاث المؤتمر الاسلامي ونشراته عن الخطر الاسرائيلي منشورة بالكثير من اللغات المحلية الأفريقية .

لقد انشأت تلك اللقاءآت جسوراً من الصلة التي تطورت بعد ذلك في تيار واسع في أفريقيا لا نبالغ إذا قلنـا أنه كان وراء أكثر التحركات الشعبية التي تصدت للوجود الاسرائيلي لتفضحه وتبين حقيقة أهدافه ومراميه، ولم تكن اهمية هذه البداية في عدد الدعاة الأفريقيين الذين زاروا القدس فقد كان عددهم محدوداً بالنسبة للملايين المنتشرة هناك، أو في اهميتهم في بلادهم فقد كان منهم خليط مختلف يتراوح بين وزراء وسفراء ورجال اعمـال وشيوخ طرق صوفية، وإنمـا لأنهم أعلنوا رأي الاسلام في العدوان الاسرائيلي في وقت كان التيار يندفع في الاتجاه المضاد، وكان من شروط النجـاح للمؤامرة حينذاك أن يسبح الجميع بحمد اسرائيل ويشيدون بدورها الحضاري الانساني في الشرق الأوسط وأفريقيا، فجاء هؤلاء يخاطبون قومهم باللغة التي يفهمونها ويوضحون لهم ان اسرائيل

ليست في واقـع الأمر سوى الاستعمار القديم الذي خرج من الباب ليعود من النوافذ باسم جديد .

وقد خاض هؤلاء الجنود المجهولون معركة هـائلة لكشف هذه الحقيقة ودفعوا ثمن ذلك من رزقهم وحرياتهم وأحياناً من دمـائهم بشكل أو آخر ، حين رصدتهم أعين الأخطبوط الساهرة ولفق لهم العملاء التهم التي تدور حول كل شيء غير المعركة الحقيقية لأن الخطة أيضاً كانت تقتضي تصفية المعارضين دون أن تجعل منهم شهداء ، أو تجعل من موقفهم معركة نبيلة تجد لها انصارها ولو بعد حين .

غير ان هذه الاتصـالات الشعبية الحذرة أخذت تتطور بصورة أكثر فعالية حين قامت منظمات إسلامية أقدر من الناحية المالية والدعم الرسمي استطاعت أن تستفيد من تلك الأسس وأن تبني عليها ، وأخص بالذكر رابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة والجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة والمجلس الأعلى للشؤون الاسلامية بالقاهرة وغيرها .

وحين بدأت مهمتي الدبلوماسية في نايجيريا ثم في الأقطـار الأفريقية المجـاورة كان الموضوع الرئيسي الذي استحوذ على تفكيري هو محاولة فهم الموقف الاسلامي والتيارات المختلفة التي تستهدفه بصورة عامة وانعكاس ذلك على القضية الاسلامية الكبرى القائمة في فلسطين إن سلباً أو إيجاباً .

لقد صور لي الحماس – كما صور لغيري – ممن دخلوا التجربة من هذا الباب أن الوضع الطبيعي هو أن يقف المسلمون مع العرب ، وأن هذا العدد الكبير كفيل بأن يؤثر في اتجاهات القارة ، وأن قليلاً من الجهد سيظهر اسرائيل على حقيقتها ، غير ان الأيام وتلاحق الأحداث أوضح أن هذه المعادلة المنطقية لا تنطبق تماماً على المقاييس الأفريقية ، وأن القضية أكبر من هذه العواطف لأن العوامل التي تحكم تصرفات القادة لا يوجد بينها ذلك الانتماء الديني كما نتصوره ، وليس في هذا القول لوم لأحد وإنما تقرير لحقيقة صنعتها العوامل التاريخية والواقعية المسيطرة التي يصبح الانسان معها أحياناً مجرد ورقة جافة تنساب على صفحة الجدول المتحرك دون إرادة .

لقد وضح لنا أن هناك أسئلة يجب أن تجد جوابها المقنع قبل أن تجد الجهود ثمرتها المرجوة مثل : ماذا بقي من تلك الرابطة الاسلامية المقدسة حقيقة لا وهماً بعد أن لعبت بها أصابع الأعداء بذكاء لدى الأفريقيين ولدى العرب أيضاً ؟ وإذا كانت أصول الاسلام تنقض واحدة بعد الأخرى وخصوصاً في ديار العرب فأين يمكن أن يتجه ولاء الآخرين وهل يلامون إذا فعلوا الشيء ذاته ؟ وما هو الأثر الباقي من التجربة الاستعمارية في أفريقيا وحقيقة الأجهزة التي تحكم هناك وارتباطاتها ؟ وما هو القدر الحقيقي أو المفتعل في تلك المرحلة للاتصال الاسرائيلي بأفريقيا القائم على منطق العرض والطلب

أو على ضرورات الحاجة وممكنات العطاء ؟ واسئلة اخرى كثيرة تحدد اطار القضية المعقدة ، ومع انه ليس من الضرورة أن تكون هذه الأسئلة والأجوبة عليها هي الصحيحة ـ ولكنني شخصياً ـ كنت أجد متعة خاصة في محاولة فهم الواقع على الطبيعة الأفريقية .

ثم ان هناك اسئلة اخرى تتناول الدائرة الأضيق في العمل مثل : لو افترضنا جدلاً أننا تجاوزنا كل الصعاب واستطعنا كسب المسلمين إلى صف المصلحة الاسلامية ـ الأفريقية فما هو موقف غير المسلمين ، وهم كيان ضخم مؤثر في بلاد لا تزال تتحكم فيها الحساسيات الدينية والقبلية ، ويوجد فيها من اجهزة الأعداء من سيحاولون اثارة المخاوف وتهييج النعرات ، وهل سيؤدي ذلك إلى ارتماء هذه الكتل في احضان الاستعمار واسرائيل ؟ ثم هل يمكن أن يقود هذا التسلسل إلى اضافة عامل التمزق الطائفي في القارة إلى جانب الانقسامات القبلية والأقليمية التي خلقها الاستعمار ، مما يعني انجاح الخطة الاستعمارية الصهيونية البعيدة في تفجير القارة من الداخل حتى لا يتحقق فيها الانسجام والاستقرار الذي يسد المنافذ أمام خطط النهب والاستغلال ؟ .

ولست ادعي ان أحداً منا قد وجد أجوبة حاسمة على تلك الاسئلة واشباهها ، وإنما كانت هناك محاولات مخلصة

سواء في نطاق مؤتمر القدس أو في نطاق الاجتماعات المحلية التي عقدناها في أكثر العواصم على ابراز المشاكل المحيطة بالقضية ومحاولة فهمها على أساس معرفة الواقع القائم ، ثم بذل مايمكن من جهود لتبديل هذا الواقع تدريجياً للوضع الطبيعي التي التقت على صياغته عوامل التاريخ والجوار والمصالح المشتركة .

ومع ان هذه اللقاءات وما تخللها من ابحاث ودراسات لم تكن تتم في نطاق منظمة حركية بالمعنى المفهوم ، كما انها لم تدون في معظمها حتى يمكن العودة إليها لمعاودة تصور الموقف داخل اطار الظرف الزمني القائم آنذاك ، إلا أن محاولتي الراهنة تحريك شريط الحوادث للوراء مستعيناً بذاكرتي وببعض الأوراق التي كنت اسجلها على عجل ليست إلا مسعى أرجو أن يكون منه خدمة للحقيقة وتسجيلاً لجهود كثيرة قام بها أفراد عديدون لايجب أن يطويها النسيان ، كما انها – على كل حال – تجربة تضاف إلى غيرها من التجارب التي ينبغي ان تدرس ويعاد تقييم ما فيها من تقديرات ونتائج للوصول إلى الصورة الصحيحة للعمل في المرحلة المقبلة .

كان واضحاً من النظرة السطحية لهذه التساؤلات ان جوانب الخسارة فيها تطغى على ممكنات الربح ، وان احتمالات الضرر أكثر من احتمالات النفع ، وكانت هذه النتيجة كثيراً ما تظهر خلال المناقشات وخصوصاً تلك التي تدور في المجالات الرسمية

العربية التي تحكمها التقديرات الجافة القائمة على أساس الواقع الراهن كما هو ، وليس على أساس العناصر غير المرئية التي يمكن أن تؤثر في المستقبل ، وبعبارة اخرى استغلال الممكنات الظاهرة على سطح الأرض - إن وجدت - وليس البحث الأعمق فيما عسي أن يكون تحتها من الخيرات والكنوز ، وتلك هي احدى مظاهر الخلاف الرئيسية بين العمل الكلاسيكي الملتزم ، والتحرك المتحرر القائم على الاستنباط والابداع الذي لازم الخطة الاسرائيلية .

في تلك المرحلة المبكرة كانت النخبة الاسلامية الأفريقية التي أتيح لها ملامسة القضية واكتشاف ملامح الخطر الاسرائيلي على القارة ترى أن هناك عوامل ايجابية كثيرة ربما لا تؤثر في الأوضاع القائمة في تلك المرحلة ، ولكنها ستؤثر في المستقبل خصوصاً إذا وجد من ينميها ويحركها في الاتجاه الصحيح .

على ان ذلك لا يعني بالضرورة مصادمة الأوضاع القائمة ومعاداتها وإلا وقعنا في الهوة الخلفية من السفح ، وإنما يعني التعامل مع الأوضاع القائمة بالقدر الذي يخدم خطة المستقبل ، وبعبارة اخرى التوصل إلى اسلوب متوازن بين الاعتراف بالواقع ثم العمل من خلاله لبلوغ الغايات المرجوة ، ولم تكن تلك المهمة سهلة بل أقول انها وقعت كثيراً في حسابات خاطئة بسبب عوامل كثيرة ، إلا انني لا أزال مقتنعاً ان هذا

الاسلوب لا يزال سليماً في التعامل مع الأوضاع المتبدلة طالما كانت الصورة واضحة والغايات محددة في اذهان القائمين بالعمل الذي يراد تحقيقه .

كانت اسرائيل في تلك المرحلة هي احدى الحقائق القائمة في مرحلة الاستعمار الجديد والقبول بها يعني القبول بهذا اللون الخطير من الوان الاستعمار ، بينما البحث الأعمق يدل على ان موجة التحرر التي تطغى على المشاعر الأفريقية كفيلة بأن تكشف تلك الصلة مهما اختفت ، وأن تقود اسرائيل إلى مواقف محددة تجعلها تفقد قدرتها المعروفة على المرونة والتزييف وتظهر على حقيقتها ، وقد يعين على ذلك مواقف المجابهة الصريحة المكشوفة تجاه الاستعمار مهما كان فيها من الخسائر في البداية .

وكانت النظرة العابرة تقع على الجماهير الاسلامية فتراها ترسف في اغلال الجهل والفاقة والضياع وليس لها في كثير من الأقطار كبير وزن ، غير ان البحث الفاحص يؤدي إلى ان هذه الحالة ظاهرة عابرة أيضاً ، وانه كلما استطاعت هذه الجموع أن تدرك ما فاتها من اسباب العلم والصحة والتنظيم كلما قويت شوكتها وتضاعف تأثيرها ، وهنا تبدو الصلة بين تقوية الجماعات الاسلامية في كل المجالات الثقافية والاقتصادية وبين قدرتها في المستقبل على الاسهام بصورة افضل في معركة التحرر الشاملة من الاستعمار الجديد بما فيه اسرائيل .

كثيراً ما كان المعترضون على هذا الاتجاه يشهرون حججاً تبدو للوهلة الأولى منطقيـة ومعقولة كالحديث عن الروح ( الواقعية ) لدى الأفريقيين ، كميزة تخالف الميول (العاطفية) لدى الآخرين وتلك المـيزة هي التي تدفعهم للقبول بالوجود الاسرائيلي لأن لهم مصلحة فيه ولا يمكن الحديث معهم في اخطاره واضراره إلا اذا استطاعت الدول العربية أن تقدم البديل في حقول المساعدات والخبرات ، ومع ان فكرة دخول العرب في حلبة السباق الاقتصادي اتجاه صحيح وهام إلا ان تحديد الواقعية الأفريقية في الأطار المادي وحده تقدير غير صحيح ولا يحيط بالصورة الـكاملة للموقف .

ان المخاوف الحقيقية التي تساور الكثيرين من الوطنيين ازاء اسرائيل هي ايضاً نظرة واقعية لا سيما إذا وجدت جهوداً دؤوبة منظمة تبرزها وتستثمرها للمصلحة العربية ــ الأفريقية .

والوجود العربي ــ الاسلامي في التاريخ والواقـع حقيقة قائمة لا يمكن تجاهلها سواء على صعيد القارة أو في نطـاق كل دولة على حدة .

ودور العرب في فكرة الوحدة الأفريقية وهي تشكل أملاً عزيزاً لدى الأفريقيين هو دور واضح لا يمكن تجـاهله ، وفي المدى الطويل ستصبح سلامـة الوحدة الأفريقية وضمـانات لوحدة الوطنية أغلى من معونات اسرائيل خصوصاً حين تزول

عنها أغلفة التزييف وتضعف العوامل الخارجية والداخلية التي تهيء لها بمرور الزمن ويقظة الوعي ووضوح الحقائق ، وهكذا يتضح ان ( الواقعية ) الأفريقية تنطوي على جوانب ايجابية عديدة اذا فهمت على حقيقتها ووجدت من يتعامل معها .

وهناك جانب آخر في البحث كان كثيراً مـا يثار في الاجتماعات الرسمية والشعبية ، ونعني به الحساسيات الدينية والقبلية الشائعة في الأقطار الافريقية ، ومدى تأثيرها السلبي أو الايجابي على هذه القضية ، ونحن هنـا لا نمس هذا الموضوع الواسع المتشعب الذي يشكل أحد العناصر البارزة قطعـاً في الحياة الأفريقية ، ولكن نتعرض للقدر الذي يعنينـا منه في استعراض مراحل المجابهة العربية ـ الاسرائيلية .

كان يقال دائماً ان استنفار العقيدة الإسلامية وما يتبعه من تعاون مع الجماعات الاسلامية ، ينطوي على مخاطر واضحة ، هي احتمال تنفير الفئـات أو الحكومات غير الاسلامية التي تخشى هذا التيار ، وتحسب حسابه لأسباب سياسية محلية .

والواقع أن هذا التصوير كان يبدو منطقياً في كثير من الأحيان ولعله أدى إلى ضياع بعض فرص هامة في مجال العمل الاسلامي ، غير ان الممارسة قد اثبتت ان هذا المنطق فيه كثير من الوهم والمبالغات ، فالواقع أن الحساسيات الدينية ليست عميقة لدى الافريقيين كما هو الحال في مناطق أخرى من العالم ،

وإذا نحن رتبنا الولاءات والارتباطـــات التي تشد الافريقي العادي إلى مجموعة معينة من حيث الأهمية فإن الانتماء القبلي يأتي في القمة بينما يبدو الرباط الديني في آخر القائمة ، وينطبق هذا القول بشكل أخص على غير المسلمين .

وهذا الواقع أوجد حالة واضحة من التسامح أو اللامبالاة التي يلخصها القول الانجليزي الشائع هناك ( عش ودع غيرك يعيش ) ، حتى رأينا أوضاعاً لا يوجد لها نظير في العالم ، منها وجود رؤساء غير مسلمين يحكمون شعوباً إسلامية خالصة أو شعوباً ذات أغلبية إسلامية ، وتحت هـذا العنوان يأتي رجال أمثال سنجور ونيريري وتومبالباي، ويمكن أن نضيف إليهم أيضاً السيد داوود جاوارا رئيس جمهورية جامبيا الذي كان مسيحياً حتى زيارته لنايجيريا في عام ١٩٦٤ حين أقنعـه – كما نشرت الصحف في ذلك الحين – المرحوم أحمدو بللو بالعودة إلى الإسلام دين آبائه وأجداده ، وأذكر أن الصحف نقلت تصريحات حول هذه الحادثة يمكن أن ترتفع معهـــا صيحات الاستنكار والاحتجـاج لو قيلت في بلاد أخرى ، كقول الرئيس بللو : كيف يكون لك هـــذا العقل وتبقى مسيحياً؟ وقول جاوارا أنه اضطر لذلك حتى يدخل المدارس التبشيرية التي كانت مغلقة أمام المسلمـين ، وقد أثارت هـذه التصريحـات عـواصف من الضحك والمزاح لدى المسلمـين والمسيحيين ، دون أن يحملها أحد محمل الجد والتزمت .

وتحت نسق الرؤساء المسلمين الذين يحكمون شعوباً لا يتمتع فيها المسلمون بأغلبية واضحة يبرز الرئيس أحمدو احيجو في جمهورية الكاميرون، فإذا تركنا تلك المستويات العالية ونزلنا للطبقات الدنيا نجد في القبيلة الواحدة بل في الأسرة الواحدة من ينتمي للاسلام بينما يعتنق قريبه أو أخوه أو أخته الديانة المسيحية أو الديانات القبلية بأسمائها وفروعها الكثيرة ، ومن النادر أن تثور مشكلة عائليــة حول تغيير الأديان أو تتأثر العلاقات التي تحكم الأسرة أو القبيلة بعد ذلك التغيير .

ومع أن هناك عيوباً اجتماعية دون شك لما يمكن تسميته بالتمييع الديني ، بل إن اسرائيل أيضاً قد استفادت من هذا الوضع واستثمرته طويلاً ، إلا أن المهم في بحثنا الراهن هو أن التنافس الديني كان دائماً تنافساً رياضياً مرحاً لا تتحكم فيه العقد والتشنجات الموجودة في بـلاد أخرى ، وفي الحـالات القليلة التي صورت فيها الخلافات الافريقية تصويراً دينياً كانت الأيدي الأجنبية هي التي لعبت في إثارتها وتغذيتها وابتكرت لها أسباباً اقتصادية واجتماعية مختلفة بعد أن ثبت أن التعصب الديني لا يصلح وحده زيتاً لإشعال الفتن النائمة وتحقيق مراميها البعيدة وغاياتها الخفية .

على أن الممارسة أثبتت أيضاً - إلى جانب ذلك - أن استنفار العقيدة الاسلامية في المعركة هي قضية أسلوب ومـا

يمكن أن يقال أو يعمل في كل حالة وامام كل موقف ، ومن الصعب في هذه القضية أو غيرها وضع مقياس جامد ينطبق على جميع المواقف والحالات ، ولا أذكر شخصياً أنني وجدت صعوبة في هذا المجال سواء في عرض القضية في اطارها الإسلامي أو التعاون مع الفئات الإسلامية وغير الإسلامية حولها ، وفي الحالات المحدودة التي جلبت ردود فعل عدائية كانت الاسباب - دون استثناء - تنتهي عند أبواب السفارات الاسرائيلية أو المؤسسات التابعة لها والتي كانت حريصة على عرقلة أي تعاون عربي - أفريقي وتشويه مقاصده بصرف النظر عن شكل هذا التعاون ، وسواء أكان اسلامياً أو تحت أي عنوان .

ولم يكن اليهود يشكون نقصاً في القرائح لالتماس عيوب ونقائص وهمية والانطلاق منها في حملة الدعاية والتهجم ، وقد نجرؤ على القول أن التعاون مع الجماعات الإسلامية لايحمل أي مخـاطرة فحسب ، بل يمكن أن يؤثر في المدى الطويل على الشعب في مجموعه ، ذلك لأن أي حركة منظمة ذات مخطط واضح تستطيع أن تمارس التأثير والاقناع بأساليب مختلفة على المحيط الأوسع ، وقد حدث فعلاً في بعض البلاد التي وصلت فيها المنظمات الإسلامية لدرجة معقولة من الوعي والتخطيط أن تغير التيار المندفع نحو اسرائيل أو تضعف من قوته على الأقل .

وهنا تبدو مرة أخرى الروح ( الواقعية ) الأفريقية حين

تواجه بموقف مؤداه ان استمرار التعاون مع اسرائيل يثير قطاعاً مهماً من الشعب ويمس مشاعره الدينية ، ويؤثر على التضامن الوطني في المدى البعيد ، واعتقد أن هذا العامل المؤثر هو أحد الأسباب الرئيسية التي تدفع بعض الدول الأفريقية الآن لمراجعة موقفها من اسرائيل بعد أن ثبت لها أن وجودها يثير نقمة فريق من شعبها كما انه يسيء لعلاقاتها مع الدول الأفريقية الاخرى ، ومهما قيل في الأسباب التي جعلت دولة كتشاد تدير ظهرها لاسرائيل ، فالحقيقة أن معارضة المسلمين لهذا الاتجاه وانفجار الحرب الأهلية التي وضعت فئة من الشعب أمام فئة اخرى كان عاملاً حاسماً في التأثير على سياسة الرئيس تومبالباي تجاه الدولة اليهودية .

أردت من هذا الاستطراد أن أقول أن تجربة السنوات العشر تشير بوضوح إلى أن الاسلام كان ولا يزال فعالاً في احباط المخطط الاسرائيلي، إذا استخدم بصورة صحيحة بعيدة عن التحديات السياسية والانفعالات العفوية ، والحوادث التي تجري حالياً لا تزيدنا إلا قناعة بهذا المنطق الذي عبرنا عنه في حينه سواء في الصحف والمجلات أو في المؤتمرات الاسلامية العامة مما أحسبه معروفاً .

وأن كنت استذكر الآن – مع بالغ الأسف – ان اجهزة عربية معينة قد انبرت لمحاربة هذا الاتجاه ، ولم تبال في

معركتها أن تكتسح قيماً سامية ومصالح أساسية كنا نحسبها أقدس لديهم من دوافع الأحقاد والشهوات ، وإن كانت تلك الحملة قد نجحت في شيء فقد أدت لتعطيل الجهد العربي — الإسلامي وحرمانه من الافادة من فترة زمنية هي قطعاً من أهم الفترات لأنها جاءت مباشرة بعد انتكاس قوى الاستعمار القديم وقيام فراغ سياسي وعقائدي كان من الممكن أن تملأه القوى الإسلامية قبل أن ينظم الاستعمار نفسه ويضع خططه ليرجع من النافذة بأقنعته الجديدة واساليبه المبتكرة .

وما دمنا بصدد الحديث عن الوسائل المناسبة للتعامل مع الواقع الأفريقي وهو ما أسميناه بالأسلوب المتوازن للتوفيق بين اعتبارات كثيرة وعوامل مختلفة ، فقد يكون من المفيد أن نشير لأحدى الخواص البارزة في النفسية الأفريقية ونعني بها ارادة الحرية ورفض الأكراه ، وبعبارة اخرى الحرص على أن يختار الأفريقي الطريق الذي يسلكه بمحض رغبته وليس عن طريق الضغوط والمحرجات .

ان الأفريقي برغم بساطته الظاهرة واستعداده الواضح للتجاوب اللين ، يمكن أن تجعل منه عدواً عنيداً إذا أشعرته أنك تحتقر مقدرته الذهنية واستعداداته الخاصة لاختيار الطريق الذي يريده ، وقد يدفعه الحرص على اثبات الشخصية وتأكيد الإرادة أن يسلك سبيلاً ضاراً به وبغيره ، وقد يكون مرد

ذلك هو قرون الكبت الطويل والتفرقة المذلة التي مارسها الاستعمار حتى اصبح الأفريقي في كنفها رمزاً للخضوع والانقياد .

وحين جاء الاستقلال المفاجىء يعطي للأفريقي من الحرية والارادة ما يسمح له بالسيطرة حتى على الأسياد القدامى، كان البريق الخاطف أحياناً أقوى من أن يتحمله بصره ، ومن هنا كانت الحساسية الشديدة ضد أي نوع من أنواع الضغط والاكراه ، واعتقد ان هذه الحالة النفسية تكمن في أعماق الكثير من التيارات التي تدور في القارة السوداء حاليا وفي جملتها – إلى جانب أسباب اقتصادية أخرى– طرد الآسيويين في يوغندا أو ( أفرقة ) الوظائف في أكثر البلدان الأفريقية ، وقد حاول اليهود خلال فترة طويلة – قبل أن تفضحهم نفسيتهم العرقية المستعلية بعد ذلك – أن يستغلوا هذه الحالة ويدقوا على أوتارها فقالوا وكتبوا الكثير في تمجيد الشخصية الأفريقية والاشادة بخصائصها وميزاتها ، حتى قرأت لشخصية اسرائيلية زائرة أثناء وجودي في أفريقيا قولها : ( انه سيأتي اليوم الذي يأسف الأبيض منا على لونه لما ينتظر الجنس الأسود من المفاخر والأمجاد ! ) .

ان الاندماج الكامل في المصلحة بين العرب والأفريقيين شرط أساسي في المستقبل ، والحرص على أن يتم ذلك عن طريق الإقناع والحوار وليس عن طريق الاكراه والإحراج

امر ضروري للغاية ، وإذا كان بعض العرب لم يدركوا ابعاد التيارات التي اجتاحت القارة الافريقية وآثروا اهمالها مما أدى لانفجارات بعيدة ، منها ما وقع في زنجبار ، فإن هذه الدروس يجب ان تستوعب لصالح أفريقيا والعرب معاً، وحتى لا تنفتح في جدار التضامن فجوات يتسرب منها المتربصون وخصوصاً اسرائيل ، وفي ضوء هذا التصوير لاننظر بارتياح كبير لما يقوم به بعض الزعماء العرب أحياناً من ضغوط عدائية مكشوفة تصل احياناً إلى التهديد ، لأن ذلك يصادم العقلية الأفريقية في أعز ما لديها ، وقد يدفعها في طريق معاكس، وهو أسلوب لن يؤدي في المدى الطويل إلا إلى مزيد من الجفوة والمشاحنات .

وإذا كان لا بد من المقارنة لتوضيح الصورة، فإن الأسلوب الذي اتبعه الملك فيصل في الاتصال بالدول الأفريقية هو — في ظننا — اسلم الأساليب ، لأنه يقوم على أساس التعاون الودي وتجنب التدخل في الشؤون الداخلية لتلك الدول ، ولذلك لم يكن غريباً أن يأتي بثمار عاجلة ، وأن يحقق مكاسب حاسمة في فترة قصيرة ، عجزت السياسة العربية عن تحقيقها خلال عقد كامل من السنين . وهذا الأسلوب الهادىء العملي جدير بأن يزلزل البقية الباقية من النفوذ الاسرائيلي ، ويوطد صرح الإخاء العربي — الأفريقي إذا كتب له الاستمرار ووجد من الدول العربية والإسلامية الأخرى ما يستحق من اسباب الدعم والتأييد .

## المقاومة الاسلامية النشطة لاسرائيل :

ذكرنا ان الهجمة الاسرائيلية وجدت من البداية بين الزعماء الأفريقيين وقادة الرأي رجالاً استعصوا على الإغراء والوعيد، واتجهوا نحو خدمة المصـــالح الحقيقية لشعوبهم غير ملتفتين للمكاسب السهلة العابرة التي تلوح بها الصهيونية لتخفي تحتها المخطط اللئيم ، ولم تكن تلك الوقفة في حينها بالأمر الميسور في مناخ عاصف تكاتفت على صنعه عوامل عديدة وقوى عنيدة بعضها ظاهر على السطح ، وأكثرهـا يمسك الخيوط من وراء الستار ، وكان من الطبيعي - في تلك الحالة - من وقـوع مصادمات ذات أحجام وأشكال مختلفة يدفع الشرفـــاء الأبطال فيها ثمن الوقفة النبيـلة من أرزاقهم وحرياتهم ، وفي حالات عديدة من دمائهم كذلك .

وسيكون من الصعب علينا في هذا الحيز المحدود أن نذكر أفراداً كثيرين في بلاد متعددة على امتداد القـارة بأسرها ، نذروا أنفسهم ووقتهم لهذه الغاية، وعبروا عن موقف الرفض على صور مختلفة قد تكون مظاهرة في مدينة ، أو مقالاً في صحيفة ، أو استجواباً في برلمان أو غـــير ذلك من مظاهر النشاط المتباينـــة ، وستلزمنا الضرورة أن نقتصر على نماذج محدودة لتلك المواقف هي مجرد عناوين لفصول هذا الصراع الواسع :

**مجلس مسلمي نايجيريا :**

تشكل هذا المجلس في عام ١٩٦٤ في لاجوس على هيئة تحالف يضم منظمات دينية وثقافية وطلابية في الأقاليم المختلفة، وكانت أهدافه العامة هي الارتقاء بالمستوى الاجتماعي والثقافي بين المسلمين في نايجيريا ومناصرة القضايا الاسلامية في الخارج، وقد استطاع هذا المجلس أن يفرض نفسه في وقت وجيز وأن يصبح قوة شعبية مؤثرة .

لقد جعل هذا المجلس محاربة النفوذ الاسرائيلي في افريقيا على وجه العموم وفي نايجيريا بشكل خاص في قمة أهدافه وانطلق يكتب المقالات بشكل منظم ويعقد الندوات العامة ولا يترك فرصة تمر دون أن يشكل وفوداً من مستويات محترمة لمخاطبة رجال الحكومة وتحذيرهم من مغبة التساهل مع التسرب الاسرائيلي، وكانت أهمية هذا النشاط وتأثيره تكمن في أنه نشاط افريقي محض ينطلق من المصالح الافريقية الخالصة ويخاطب الضمير الافريقي دون تأثير من أحد، وكان من الأمور المألوفة في لاجوس أن نقرأ مقالات أركان المجلس النايجيري في الصحف والمجلات ضد العدوان الاسرائيلي في البلاد العربية، ثم نقرأ في اليوم التالي ردود السفارة الاسرائيلية أو الأقلام المأجورة معها، ومع أن الحكومة النايجيرية لم تكن تنظر لهذه الحملات نظرة رضى، إلا أن أهميتها في

افريقيا أنها كانت تبين الصور الحقيقية للقصة المأساة التي كانت اسرائيل تحاول إخفاءها ، كما أنها كانت تبرز أن هناك تياراً وطنياً يرفض الاستعمار الجديد ، وإن كان خافتاً في البداية ، إلا أن الأمل كان دائماً قائماً في أن هـذا التيار سوف يزداد باستمرار .

وقد ظهرت قوة هذا التنظيم في عنفوانها حين قامت السيدة جولدا مائير بزيارة لاجوس في اكتوبر عام ١٩٦٤ ، فخرجت لاستقبالها مظاهرات عنيفة امتدت من المطار حتى قلب المدينة وهي تحمل لافتات التنديد باسرائيل واستنكار زيارة الوزيرة اليهودية ، مما اضطر البوليس للتدخل لحماية الضيفة الثقيلة من الاعتداء .

وفي صباح اليوم التالي قامت عاصفة صحفية عنيفة حول الزيارة وظهرت مقالات وبيانات وتعليقات هي قطعاً أقوى ما كتب ضد اسرائيل في افريقيا حتى ذلك الوقت ، وقد يكون مفيداً للبحث أن نقتبس فقرات من بعض تلك المقالات التي تعكس الخطوط العريضة لتلك الحملة ، فقد جاء في مقال نشرته الصحف بقلم السيد سلفادور وهو شخصيـة إسلامية بارزة ما يلي : « إنه لمن المؤسف حقاً أن الحكومة الفيدرالية لم تجد من الضروري أن تخبر اسرائيل وخصوصاً وزير خارجيتها أنها شخص غير مرغوب فيه للغالبية العظمى من النايجيريين ، إن الانسان ليتصور أن أية أمة محترمة ستحرص على أن

تبقى بعيدة عن أي مكان يشكل فيه وجودها نقمة للسكان، ولكننا على العكس نرى السيدة مائير تحرص على زيارتنا مرة أخرى .

إن من الغريب جداً أن نجد الدول الأوروبية تقدم مساعدات هائلة لهؤلاء ( اليهود ) لتعينهم على أعمالهم اللاإنسانية، وكان الأحرى بالأوروبيين المسيحيين أن يكتشفوا مناطق اللقاء الواقعة بينهم وبين الاسلام . لقد جاء الوقت الذي يحتم على اسرائيل كما يحتم على جنوب افريقيا أن تعيد الحقوق الشرعية لأصحابها ، تلك الحقوق التي اغتصبت بتآمر بعض الدول الكبرى مع المعتدين » .

أما بيان السكرتير العام للمجلس التي نشرته جميع الصحف بتاريخ ٣٠ اكتوبر عام ١٩٦٤ وعلقت عليه بين التأييد والمعارضة فقد جاء فيه ما يلي: «في نظرنا أن اسرائيل مسؤولة عن الجرائم التي ارتكبت ضد المسلمين رجالاً ونساء وأطفالاً في فلسطين وهو ما يثير اشمئزاز المسلمين في جميع أرجاء العالم ، والغريب أنه في الوقت الذي يقاسي فيه اخواننا وأخواتنا هذا العدوان الاسرائيلي الوحشي نجد بعض العناصر هنا تسمي اسرائيل دولة صديقة وتشيد بمساعداتها المالية وبعثاتها الدراسية ، إن هذه المساعدات مدفوعة بنوايا استغلالية وعدوانية ولن تجعلنا نسكت عن الفظاعات الانسانية » .

وقد زاد من حدة هذه العاصفــة حين تدخل السفير الاسرائيلي شيلوش فيها وقدم للصحف بياناً مكتوباً دافع فيه عن الكيان الاسرائيلي من وجهة النظر اليهودية المعروفة ، ثم دعا المسلمين في افريقيا لزيارة اسرائيل ( ليروا بأعينهم أن المسلمين هناك يعيشون في حالة أحسن من الدول العربيــة المجاورة ) ، وقــد جلب هذا التصريح الاستفزازي ردوداً عنيفة كلها ساهمت في أن تضع السيدة مائير في عين العاصفة وأن تجعل من زيارتها تلك فشلاً حقيقياً ، وزاد الطين بلة أن الضغط الشديد دفع المرحوم السيد أبو بكر تفاوة باليوا أن يغادر العاصمة قبل وصولها في زيارة روتينية لكادونا ثم لا يرجع إلا بعد مغادرتها بساعتين ، وكان واضحاً أنه تعمد عدم استقبالها .

وقد حرصت السفارة الاسرائيلية أن تبرز هذه الواقعـة كما في غيرها أن الافريقيين لا يتحركون تلقائياً أو بدوافـع عقائدية ، وإنما بتحريض وتمويل من السفارات العربيــة ، وكانت الغاية هي إسقاط أهمية هذه التحركات باعتبارهــا مجرد جزء من النشاط العربي ولا تعكس الرأي الوطــني في نايجيريا ، ولعلها أيضاً إرادات أن تستنفر العامل النفسي الذي أشرنا إليه لدى الافريقيين ، عامل الحرية ورفض الضغوط المفروضة ، وكان طبيعياً أن نرد نحن من ناحيتنا بما يفند ذلك

وينفيه ويثبت أن هذا النشاط إفريقي محض ولا عــلاقة للعرب به .

لقد وجدت السفارة اليهودية فرصتها حين احتجت سيدات السلك الدبلوماسي العربي بوصفهن أعضاء في الاتحاد النسائي في لاجوس على دعوة رئيسة الاتحــاد وكانت يومذاك الليدي (اديمولا) زوجة قاضي القضاة للسيدة جولدا مائير لإلقاء محاضرة في مقر الاتحاد فدفعت السفارة الاسرائيلية بعض عملائها للكتابة في الصحف ضد هذا الاحتجاج وعدته تدخلاً في الشؤون الداخلية النايجيرية ، ثم انتقلت من هذا الطور الى مهاجمة التحركات الاسلامية ضد اسرائيل باعتبارها موجهة من بعض السفارات العربية ، وقد تحركت الأجهزة العاملة مع اسرائيل في ميدان الاعلام لتجعل من ذلك الزعم حقيقة لا تناقش ، وقد كتبت جريدة الديلي اكسبرس في ٢٨ / ١٠ / ١٩٦٤ انه كان على السيدات العربيات ان يفخرن لأن إحدى بنــات جنسهن ( جولدا مائير ) تحتل هذه المكانة الدولية الممتازة ! أما صحيفة الديلي تلغراف فقد كتبت افتتاحية بقلم صحفي معروف بارتباطاته باسرائيل في ٢٩ اكتوبر ضد السفارة الأردنية ، قالت فيهــا ان على وزارة خارجيتنا أن تخبر هذا المبعوث ان يوقف الدس بهذا البلد ، يجب ان يعلم ان هذه نايجيريا وليس الاردن ، وأن أي مزيد من هذا العبث سوف يدعو الصحافة النايجيرية للقيــام بحملة مشتركة ضد السفارة الاردنية ، أمــا صحيفة البايلوت لسان

حزب التجمع ( الشرقي ) في ذلك الحين فقد نشرت افتتاحية في نفس اليوم زعمت فيهـــا ان سفير المملكة الصحراوية ( الاردن ) يقف في الظل وراء تلك الحملة ، ومع ان هـــذا الاتهام لم يكن صحيحاً في جملتـــه وتفاصيله ، إلا أن الحملة النفسية الاسرائيليـة - كما ذكرنا - كانت ترى إلصاق أي نشاط افريقي مناوىء بالعرب حتى تضعه في ظل الاتهـام ، وتمنع انتشار عدواه للبلدان الأخرى ، والحقيقة ان هذه الحملة كانت فعلاً من تنظيم مجمع مسلمي نايجيريا ولم تكن الأولى ولا الأخيرة ، كما ان منظمات اسلاميـة اخرى قد قامت في بلاد اخرى عديدة على نفس الأسس واتجهت لذات الأهداف دون توجيه او وصاية من أحد .

## ثورة اسلامية في تشاد :

ويحضرني مثال بارز على وجود التيار الاسلامي المشتبك مع الصهيونية دون تنظيم او اتصال إلا ما توحي به العقيدة الواحدة ، ما حدث في مارس من عام ١٩٦٣ حين وصل اول سفير اسرائيلي مقيم في ( فورت لامي) عاصمة جمهورية تشاد ، فقد قامت مظاهرات احتجاج تزعمها قاضي القضاة في ذلـك الحين الشيخ عبد المهدي بن ابراهيم ، كما ترأس وفداً زار رئيس الجمهورية ووزير الخارجية وقدم لهم مذكرة موقعة من زعمـاء المسلمين في تشاد تستنكر السماح بانشاء سفارة اسرائيلية وتعبر

عن سخط المسلمين على مـا يلقاه اخوانهم المضطهدون في فلسطين .

لقد عرفت قاضي قضاة تشاد أثناء ندوات المؤتمر الاسلامي في القدس وتوطدت بيننا الصداقة أثناء زياراتي لتشاد ، وكان هو يمثل تلك النخبة التي حرصت على تبليغ الأمانة في بلادها ودفعت الثمن كما دفعـه آخرون ، وحين زارني للمرة الأخيرة في لاجوس بعد طرده من تشاد في عام ١٩٦٣روى لي تفاصيل الأزمة الشديدة التي سببها وصول السفير الاسرائيلي هنـاك ، وكانت إحدي الأسباب التي انفجرت في الحرب الأهليـة التي عصفت بهذا البلد الأفريقي المسلم ، واستنفذت كثيراً من موارده وطاقاته .

ولعل من المفيد لابراز التناقضات التي استغلتها إسرائيل في تشاد ، وهي لا تختلف كثيراً عن الحالة السائدة في أكثر البلدان الافريقية أن أقتبس أجزاء من تقرير كتبه قاضي القضاة بنفسه عن المناخ العاصف الذي تهيأ في تشاد لتلك الفترة ، وكان سفير اسرائيل يتحرك داخل المؤامرة الواسعة كما يقبع العنكبوت داخل الخيوط التي نسجها من حوله ، يقول ابن ابراهيم : إن سفير اسرائيل جعل همه منذ وصوله تأليب الحكام المسيحيين على الأغلبية الاسلامية وتخويفهم منها ، كما أنـه وعد بتقديم مساعدات عسكرية في حالة قيام ثورة في البلاد ، وهذه السياسة — شأنها في بقية أقطار أفريقيا — كانت تعمل لخلق المنـاخ

الموالي لارتماء الحكام في احضان اسرائيل حتى توجههم لمصلحتها وتمتص خيرات البلاد عن طريقهم .

ولقد جاءت المناسبة حين شكلت وزارة في فورت لامي في ذلك الحين ضمت ستة عشر وزيراً منهم ثمانية من المسلمين مما اعتبره المسلمون اجحافاً لهم لأن عددهم يزيد على مليونين في حين لا يبلغ المسيحيون والوثنيون أكثر من ثمانمائة ألف نسمة.

وقد تصادف في ذلك الوقت تقريباً وصول السفير الاسرائيلي للبلاد مما اعتبره المسلمون اساءة جديدة وتحدياً لمشاعرهم، وقد تجمعت تلك العناصر لتخلق توتراً في البلاد ، حاول رئيس الجمهورية أن يقمعه بالعنف بمساعدة القوات الأجنبية التي كانت لا تزال مرابطة في جمهورية تشاد في ذلك الحين .

وحين قام السفير الاسرائيلي بزيارة وزير الخارجية، وكان أحد اركان الحركة الاسلامية ، الزيارة التقليدية لتقديم نسخة من أوراق اعتماده استقبله الوزير بغلظة وجفاء فقام السفير بتبليغ ذلك لرئيس الجمهورية الذي طمأنه ووعده بأن الأمور ستتغير للأحسن قريباً ، وبعد بضعة ايام أجرى الرئيس تعديلاً وزارياً أخرج بموجبه جميع الوزراء المعادين لاسرائيل، ووضع مكانهم عناصر متعاونة ، وحينذاك أدرك المسلمون أن ليس

امامهم إلا الثورة المسلحة فخرجوا إلى قبائلهم لينظموا صفوفها للمعركة المرتقبة .

وفي هذه اللوحة التي رسمها الشيخ ابن ابراهيم في تقريره تبرز خطوط مهمة تكشف الحساسيات وعوامل الصراع القائمة في كل بلد أفريقي، ثم استغلال اسرائيل لتلك العوامل وحرمان الشعب من كل فرصة ليحلها بالأساليب السلمية ، وسعيها المتواصل لتفجير التناقضات حتى تستغلها لتحقيق اطماعها الخاصة ، على ان تشاد كيوغندا وغيرها قد شهدت المرحلة الختامية للسياسة الانتهازية حين ادركت الشعوب تلك اللعبة الخطرة التي تقامر بدمائها واستقرارها فاتجهت لوكر التآمر تدوسه بالأقدام ، واحسب ان هذا هو مصير البقية الباقية من تلك الغزوة الماكرة طال الزمن أم قصر .

## احمدو بللو وسياسة الرفض :

على ان ملحمة المقاومة الإسلامية للغزوة الصهيونية تبلغ ذروتها الشامخة في سيرة الشهيد احمدو بللو سردونا سوكوتو ورئيس وزراء نايجيريا الشمالية (١) ، وهي قصة تظهر فيها كل

---

(١) سردونا بلغة الفلاني تعني قائد الخيل ، وكان احد الرتب العسكرية في جيوش الفاتح عثمان دان فوديو وكان احمدو بللو يعتز بهذا اللقب حتى قال يوماً انه يفضله على لقب رئيس الجمهورية .

عناصر الرواية الضخمة في أفريقيا كما تظهر فيها جوانب المؤامرة التي لا تعرف ليناً أو رحمة .

في قصة الرجل المجاهد تبدو ملامح الوجود الإسلامي في أفريقيا وما فيه من جوانب القوة ومكامن الضعف، وفيها يبرز الانتماء العريق للفكرة الخالدة التي حملت للقارة المظلمة قبل أجيال عديدة بريق النور والمعرفة والايمان ، وفيها ذلك الحنين الدائب للاتصال بمصادر الحضارة الاسلامية لاستئناف المسيرة التي تعطلت هنا وهناك تحت ظروف مفروضة وعقبات مصطنعة وفيها ذلك الادراك البسيط لمتطلبات الايمان دون اعذار أو تعلات يلوذ بها الناس للنكوص عن الحق ومشايعة الباطل.

وكأنه فعلا – كما قلت في مقال لي عقب مقتله – أحد جحافل جده الفاتح عثمان دان فوديو تمردت على عوامل الفناء والعدم وانفلتت من قبضة الزمن لتظهر في جيلنا ، وكل ما تمثله من معاني الايمان والسمو والأصالة هو تحد صارخ لما في هذا الجيل من أسباب القعود والانحطاط والتفتت .

لقد كان أحمدو بللو شخصية فذة تعددت فيها جوانب التفوق والعظمة ، فقد كان سياسياً برلمانياً من الطراز الأول يتقن التنظيم الحزبي وإدارة المعارك الانتخابية بدراية وحنكة تضعه في مقدمة القادة العالميين في هذا المضمار ، وكان إدارياً ممتازاً يحيط بمشاكل كل مدينة بل كل قرية في شمال نايجيريا

ذي الخمسة والثلاثين مليوناً ، ويعرف حـــاجة كل قبيلة من قبائلها المختلفة السلالات واللهجات .

وكان قبل ذلك داعياً إسلامياً من وزن عالمي وضع نصب عينيه أملاً عظيماً سعى إليه بكل اسلوب وهو تحقيق التعاون بين الشعوب الإسلامية ، ولم يكن سعيه لهذه الغاية ينطلق من عواطف غامضة وإنما من استيعاب كامل للظروف القـائمة في كل بلد إسلامي ، واحاطة واعية للظروف الدولية وانعكاساتها على ذلك الأمل العزيز .

كان مشدود النفس بعزة الإسلام في بلده وفي العـــالم إلى درجـة ملكت عليه حواسه ، وتغلبت فيه شخصية المؤمن المندفع على عقلية السياسي الخبير المحنك فلم يعد يرى الأفاعي المنفلتة تئز من حوله وقد رأت فيه خطراً يعلو على كل خطر ، لقد كان الرجل يحس انه وريث أمانة وأن حياته تفقد معناها إذا لم يقم بادائهـا ، وقد اوضح بنفسه ذلك في المقدمة التي وضعها لكتابه الوحيد : « لم أحاول أبداً أن أضع نفسي تحت الأضواء السياسية أو الحصول على أي مكانة مرموقة في بلادي ، ولكنني لم استطع التنصل من تبعات موالدي وقدري المفروض »

« لقد أنشأ جدي الأول امبراطورية في غرب السودان ، وقد وقع علي دور ليس بالقليل لكي أسهم في قيـام أمة جديدة ، لقد أختير جدي ليقود جهاداً مقدساً لارساء قواعد امبراطوريته ،

أما أنا فقد اختارني قومي عن طريق انتخـابات حرة لألعب دوري في انشاء دولة حديثة »[١] .

وفي مرات كثيرة كانت تصله اشارات التحذير فيرد عليها بتلك الابتسامة الواثقة ، ثم يقول وماذا يمكن أن ينـالوا مني سوى أن يرسلوني حيث ألقى وجه ربي وانعم برفقة اسلافي ، وهذا مطلبي الأسمى ، وفي مرات كثيرة أتيح لي شخصياً أن أناقش معه هـذا المنطق فتغلب صلابة الايمان لديه على كل نصائح الحذر ومشورات الحيطة .

كان رجل رسالة كل ما يعنيه أن يؤديها حق الأداء أمـا مصيره هو فأمر لا يخطر له على بال لأنه يدرك أن الرسالة قد تسمو بجوته أكثر مما تنجح في حياته ، ومن أصعب الأمور أن تناقش هذا النوع من الرجال أوتحاول اخضاع الآفاق الرحيبة التي تحلق فيها عزائمهم وتتجاوز بهم هذا الكون بأسره ، في قوالب ضيقة تحدها أيام الحياة الدنيا واحداثهـا العابرة ، ثم لا تملك أن تسلم بمنطقهم الغلاب .

ألم تكن كل قمم العظمة والخلود في تاريخنا هي نتاج أولئك الذين قالوا في مواقف مشابهة : (غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه) صيحة استهتار بالخطر وتحد للفناء ، وعزمة إيمان ترى الحقيقة الخالدة من وراء الأستار التي يصنعها عقل الانسان .

---

(١) My life, sir Ahmadu Bello, Sardauna of Sokoto.

هذه الشخصية الضخمة تحتاج منا – ربما في المستقبل – إلى حديث أوفى – أما مـا يعنينا في بحثنا الراهن فهو موقف احمدو بللو من اسرائيل وتسربها في القارة الأفريقية ، وصموده العنيد امـام كل وعد أو وعيد حتى لم يجد الاستعمار الجديد امامه إلا تجربة الأسلوب الأخير اسلوب القتل والاستئصال ، وهو موقف يرتبط عنده – كسائر المواقف في مختلف القضايا – بالعنصر الأساسي الذي يحكم تفكيره ويسيطر على مشاعره ، إيمانه العميق بالله وتفانيه في حب المسلمين ، وفهمه الواعي للمصلحة الإسلامية العليا التي لا تتجزأ ولا يمكن أن تتساهل مع العدوان على أي بقعة من الأرض الإسلامية ، وهذا الإيمان المقرون بالوعي هو الذي يدفعه أيضاً لحماية المصلحة الأفريقية وحرية الرجل الأسود التي تهددها اسرائيل وحلفاؤها من المستعمرين الجدد .

بالنسبة لي : اسرائيل غير موجودة !

بمثل هذا القول الحاسم كان احمدو بللو يجيب سائليه الكثيرين في بلده وفي رحلاته الخارجية كلما انتقدوا مسلكه من اسرائيل ، في الوقت الذي كانت الزعامات الأفريقية تشد الرحال إليها ارضاء للدول الكبرى أو التماساً للعون المادي والخبرات الفنية لديها .

واذكر بعد الاستقلال مباشرة في عام ١٩٦١ ان عملاء

اسرائيل قد نظموا حملة عارمة في البرلمان والصحافة والأندية تدعو لافتتاح سفارة نايجيريا في اسرائيل ، ولكنه اعطى جواباً حازماً في كادونا كان فيه نهاية تلك الحملة ، وكان ملخص حديثه ان هذه الخطوة ستعني نهاية الاتحاد الفيدرالي النايجيري الذي كان حزبه وحلفاؤه يسيطرون عليه بالأغلبية المطلقة .

وقد تكررت هذه الحملات المشبوهة وتكرر معها الرفض القاطع مراراً ، إلا انها كادت تحقق اغراضها بعد سلسلة زيارات منظمة قام بها رئيس الوزراء الشرقي ( اكبارا ) ووزير المالية الفيدرالي ( اوكوتي ايبو ) حتى ظننا في لاجوس ان الخطوة المؤجلة قد دخلت مرحلة التنفيذ ، وحين سافرت إلى كادونا لأطلعه على الموقف طمأنني وقال انه قادم للعاصمة الفيدرالية خلال اسبوع لينهي هذا الموضوع للمرة الأخيرة وللأبد على حد تعبيره ، وفعلاً جاء خصيصاً لهذه الغاية بعد بضعة أيام وعقد سلسلة اجتماعات مع رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء الفيدرالي المرحوم ابو بكر باليوا والوزراء الذين يمثلون حزب الشعب الشمالي ، وعلمنا فيما بعد انه أخبرهم جميعاً أن هذه المسألة أساسية بالنسبة له ولا يمكنه أن يسمح بها وعليهم أن يختاروا بين اسرائيل والوحدة الوطنية النايجيرية .

ولم يكن موقفه ينحصر في الوقوف عند رفض المغريات الاسرائيلية واستعمال نفوذه الكبير لعرقلة توغلها في نايجيريا ،

وإنما كان دائماً يدعو الدول العربية في كل مناسبة لاسترداد المبادرة والتعاون مع الدول الأفريقية وتنظيم جهودهم في خطة مشتركة لمساعدة الدول المحتاجة ، وحين بدأ برنامجه الخاص في الاستغناء عن خدمات الموظفين الأجانب اتصل بالسفارات العربية والإسلامية وقدم لها قوائم بحاجات الأقليم من الخبرات ودعاهم للدخول في هذا الباب الذي تسللت منه اسرائيل .

لقد بدأ في مناشدة الدول العربية والاسلامية لعرقلة المسيرة الاسرائيلية في مرحلة مبكرة ، وكانت وجهة نظره التي شاركته فيها هي ان الانهيار الفجائي للاستعمار قد اوجد فراغاً مؤقتاً تستطيع الدول الاسلامية استثماره قبل ان ينظم العدو صفوفه من جديد .

وأعلم انه زار دولاً عربية كثيرة لهذه الغاية قبل غيرها ، وفي افتتاح المؤتمر الاسلامي العالمي للرابطة الاسلامية في مكة المكرمة في ابريل عام ١٩٦٤ ألقى خطاباً شاملاً عن الأوضاع الاسلامية في أفريقيا السوداء وكان مما قاله عن اسرائيل مايلي: ( ان من المناسب أن أشير إلى المحاولات المتعددة التي قام بها اليهود لكسب الدول النامية إلى صفهم ولقد قدموا قبل عامين قرضاً كبيراً لاتحاد نايجيريا ، وقد اوضحت في ذلك الحين بما لا يدع مجالاً للشك أننا في الأقليم الشمالي نفضل أن نبقى بدون مشاريع تنمية على أن نقبل قرضاً أو مساعدة من اسرائيل ،

ولقد اتخذنا هذه الخطوة بدافع من قناعاتنا كمسلمين وليس توقعاً لأن نتلقى مساعدات من الدول الاسلامية الشقيقة ، ولكن من المفيد ان نذكر اننا حتى هذه اللحظة لم نجد بديلاً وآمل أن يدرك اخواننا الذين هم في وضع مالي أفضل منـا واجبهم في هذا المضمار ) .

وفي عام ١٩٦٦ اثناء الاحتفال بالمرحلة النهائية من اعمـار مسجد الصخرة المشرفة جـاء للقدس مرة أخرى خصيصـاً للمشـاركة في المناسبة ، وفي حفل تكريمي أقمته له في المدينة المقدسة ألقى خطاباً هاماً تناقلته وكالات الأنباء الدولية وأثار عاصفة كبرى في نايجيريا لأنه قال في سياقه : ( انه إذا قامت الحرب مرة اخرى حول هذه المدينة فإن الألوف من المتطوعين النايجيريين سوف يقاتلون فيها ) ولم ينس في ذلك الخطاب أن يهاجم دعوة القومية العربية التي كانت في أوجها العالي في ذلك الحين ، ويتهمها بانها دعوة مشبوهة تهدف إلى تمزيق النسيج الاسلامي وحرمان العرب من مصادر قوتهم المادية والمعنوية في الصراع ضد الصهيونية والاستعمار العالمي ، وقد اشفقت يومها على الانسان الطيب السيد عبد الخالق حسونة الأمين العـام لجامعة الدول العربية الذي كان حاضراً في الحفل ، والذي كان عليه أن يوفق بين مقتضيات منصبه الرسمي وبين مستلزمـات المجاملة للضيف الأفريقي ، وفي اليوم التالي كنت أرافقه في جولة خاصة على حدود القدس العربية في منطقة الشيخ جراح ،

وخطر لي أن اسأله عن ردود الفعل المتوقعة لتصريحاته في نايجيريا ، فنظر طويلاً تجاه الأحياء اليهودية وغمغم كأنما يحدث نفسه ( سوف ترى ان ما قلته بالأمس ليس كلاماً سياسياً يقبل التراجعات ، وإنما التزام بفريضة دينية لا تبالي بالعقبات ) .

هذا الموقف الصريح الحاسم من اسرائيل مضافاً إلى جهوده الاسلامية النشطة في تشجيع الدعوة الاسلامية في المناطق الوثنية في شمال نايجيريا ، وفي الترويج لفكرة التضامن الاسلامي العالمي قد وضعه مباشرة في دائرة الخطر تجاه القوى المتربصة ، وكانت خطتهم المضادة لا تقنع بأقل من ( التصفية ) الكاملة ، وإن كانت قد اتخذت مظهراً عادياً يوحي بأنها لا تعدو أن تكون انقلاباً عسكرياً كتلك الانقلابات التي تكتسح العالم الثالث لسبب ولغير سبب ، إلا أن أدلة كثيرة قامت تؤكد أن هذه الحركة قد دبرت بليل لاخماد خطر عربي – إسلامي يحمل كل ملامح الخصومة القديمة .

قبل اسابيع من انقلاب يناير عام ١٩٦٥ ترامت إلينا انباء في لاجوس ان طائرات اسرائيلية تهبط في الاقليم الشرقي، وان هناك تحركات مريبة بين عناصر ( الايبو ) في الجيش النايجيري ، ومع ان تلك المعلومات لم تكن الأولى من نوعها وكان من الممكن اهمالها ، إلا انني –أخذاً بالأحوط– اتصلت بالشهيد واستأذنته في القدوم إلى كادونا ، وقد حاول أن يثنيني بحجة انه قادم

إلى لاجوس بعد بضعة ايام ، ولكنني ابلغته ان الأمر عاجل ولا يحتمل التأجيل ، وفعلاً سافرت في نفس الليلة إلى كادونا حيث وجدت سيارته في انتظـاري لتنقلني في رحلة صباحية تزيد على اربع ســاعات إلى العاصمة الأقليمية ، ثم إلى منزل رئيس الوزراء .

وفي مجلسه الخاص وجدته ينتظرني وبرفقته احد كبـار مستشاريه وهو صديق قديم، فأبلغته ما ترامى الي من اشاعات وحرصت على ان أقدمها له وكأنها أمر عرضي يأتي عفواً في سياق أحاديث كثيرة متشعبة ، ولكنه ادرك قلقي فقطع اللف والدوران، ثم قال بلهجة الواثق من نفسه : « لا أتصور أن يقع عندنا شيء من هذا فنحن بلد مستقر ذو نظام برلماني ديمقراطي نمارس فيه الحريات على أوسع نطاق ، وليس هناك من مسوّغ للقيام بانقلابات ، ثم أن حزبنا يتمتع بأغلبية مطلقة نتيجة لانتخابات حرة ، ولذلك فنحن نمثل الشرعية) ثم طفق يتحدث بحماس عن مزايا النظام البرلماني من طراز (وستمنستر) وضماناته للاستقرار والنظام ، ولم اشأ ان أدخل في جدل حول انظمة الحـكم فأخذت أمهد للتراجع والاعتذار ، لا سيما حين اخذ يتهكم على أوهامي التي قال أن سببها هو طبيعة العيش في البلاد العربية بؤرة العنف والانقلابات في ذلك الحين ، أمـا النتيجة الواقعية لهذه التنبؤات فمعلومة ، ولا نود الخوض فيها

في هذا الموضع ، غير أن مشاركة عملاء اسرائيل في احداث يناير عام ١٩٦٥ أصبحت معروفة بعد ذلك .

لقد كانت الحركة العسكرية تحمل طابع التخطيط المتقن خلافاً للحركات المشابهة في أفريقيا التي كانت تتميز بالعفوية والانفلات ، ففي نايجيريا أخذت المرحلة الأولى شكل تمرد جزئي في الجيش يحقق الأغراض الرئيسية ، ومنها القضاء على احمدو بللو ومساعده تفاوه باليوا وحليفهما الغربي اكنتولا ، وعدد من كبار الضباط المسلمين الذين يمكن أن يعرقلوا الخطة.

أما المرحلة الثانية فكانت القضاء على التمرد – دون النيل من اشخاص المتمردين – بحيث يستأنف الجيش بقيادة الجنرال أورنزي الحكم للحفاظ على التوازن الاقليمي والقبلي الحساس في نايجيريا ، علماً بأن اورنزي ينتمي أيضاً للإيبو وكان استيلاؤه على الحكم يبدو وكأنه أمر طبيعي لإنقاذ البلاد من الفوضى باعتباره أعلى ضابط في الجيش النايجيري في ذلك الحين .

ومما وضع الاتهام على أورنزي من البداية أنه استمر يراوغ في محاكمة الكولونيل ( انزوجو ) قاتل بللو ورفاقه بل على العكس عاملهم بكل رفق وترك الكثيرين منهم يغادرون البلاد حين اشتد الضغط ، وتعالت صيحات الاحتجاج .

كما أن أورنزي أصدر سلسلة من التشريعات لتمزيق الأقاليم

الشمالي وكسر شوكة المسلمين، وهي الاجراءآت التي كرس احمدو بللو حياته السياسية لمنع حدوثها ، فأوضح ان الانقلاب ذي المرحلتين كان من واقع الحال خطة واحدة متكاملة هدفها احمدو بللو شخصياً وفكرياً ، وغايتها هدم الرمز الكبير وما يقوم تحته من المبادىء والأفكار .

على ان مشاركة اسرائيل في هذه المؤامرة الدموية تجاوزت نطاق الحدس والظنون حين قام الانقلاب المعاكس بقيادة الضباط الشماليين وأجريت محاكمة سرية لأورنزي ، حكم عليه بعدها بالأعدام ، وقد اخبرني أحد كبار الضباط الشماليين الذين اشتركوا في رسم نهاية أورنزي انه اعترف على شريط مسجل انه تلقى مساعدات مالية واسلحة من اسرائيل فعلاً للتحضير للأنقلاب الأول ، ومن المؤسف ان الحكومة النايجيرية الفيدرالية لم ترد نشر هذه المعلومات الهامة .. ، وقد يلتمس لها العذر انها أرادت عدم اثارة المشاعر المهتاجة ، لا سيما في تلك المرحلة التي كان فيها الكولونيل اوجوكو ورفاقه يحضرون للحوادث الدموية التي صاحبت انفصال الأقليم الشرقي واعلان جمهورية بيافرا .

## حين يلتقي الأعداء ..... وبعض الأصدقاء :

من الطبيعي أن يثير التمرد العسكري في نايجيريا ونتائجه الدموية تعليقات متناقضة تتفق مع ميول اصحابها ومدى

فهمهم لطبيعة الحدث والدوافع الكامنة من ورائه ، وقد عكست الصحف اليهودية والاستعمارية والأقلام المأجورة مشاعر الاغتباط والفرح ، وإن حرصت كلها على تحاشي الخوض في الأسباب الحقيقية مراعاة لمشاعر المسلمين وعدم اكساب الضحايا صفة الشهداء والأبطال ، وما يتبع ذلك من بروز هالة عقائدية يلتف حولها التلاميذ والأتباع ، ولعلها أحد الدروس المهمة التي خرج بها المستعمرون من أفريقيا وكتبوا فيها ونعني بها تقديس الشخصية والالتفاف حول البطل ، ولذلك رأيناهم في قضية احمدو بللو يتبعون الأغتيال الجسماني بالاغتيال المعنوي ، فصوروا القتلة السفاكين عصبة من الوطنيين الشباب الذين حملوا ارواحهم على اكفهم للقضاء على الرجعية والإقطاع والفساد ، إلا أن قلة من اولئك الكتاب استخفها المرح ففقدت التوازن لبعض اللحظات وفتحت كوة خاطفة على أوكار التآمر الرهيب .

ومن المؤسف أن الكثيرين من القادة والكتاب العرب قد وقعوا في هذه الأحابيل وأعانوا على تثبيتها في اذهان الشعوب العربية ، ولا يعنينا أن يكون ذلك بحسن نية أو سوء قصد ، ولكن يهمنا ايراد هذا الجانب من المأساة كدليل على انهيار القيم والموازين في عالمنا العربي إلى درجة يمكن أن نتطوع معها بخدمة العدو اللدود وخذلان الصديق الصدوق ، والاندفاع

بحماسة بلهاء لتنفيذ المخططات التي تستهدف قتلنا ومحونا من الوجود كأمة وعقيدة .

وكمثال على التعليقـات الشامتة التي تعكس وجهة نظر الأعداء وهي كثيرة انقل هنا فقرات من مقال كتبه الصحفي النايجيري ( كوزايدابو ) في عدد مجلة الطبلة ( Drum ) في يونيو ١٩٦٦ بعنوان ( السيد احمدو ينهض في اكفانه ) والمجلة والكاتب كانا معروفين بعلاقاتهما الوطيدة بالسفارة الاسرائيلية بلاجوس .

بعد مقدمة على طراز تخيلات دانتي في الكوميديا الإلهية، قال الكاتب : انه رأى احمدو بللو في الأموات وانه تحدث إليه معترفاً باخطائه وذنوبه الكثيرة فقال : (ان أكبر أخطائي أنني خلطت الدين بالسياسة ولعبت دور النبي الذي اصبح قيصراً . إن غبائي دفعني للاعتقاد الخاطيء أن الأقليم الشمالي سيكون أسعد مع العالم العربي منه مع اخوانه النايجيريين، لكن اخطائي كانت دائمـاً متصلة بتاريخي والآن وضح لي أن الإنسان لا يكون آمناً في تصرفاته اذا عمل تحت وطأة التاريخ، وعلى سبيل المثال فإنني لم أكن لأخلط الدين بالسياسة لولم أكن سليل عثمان دان فوديو ولم أكن لأجعل الوحدة الإسلامية شعـاري بدل الوحدة النايجيرية ) ، وبصرف النظر عن المغالطـات الواضحة والتشويه المتعمد في كل ماقيل إلا أن هـذا التصوير

الحاقد يكشف تماماً الأسباب التي مات احمدو بللو من اجلها : الإسلام ، العرب ، ومقاومة اسرائيل .

وقد نفهم موقف الدوائر المؤيدة لاسرائيل والاستعمار الجديد ، ولا نتوقع منها أن تفعل غير ما فعلت، ولكن الذي لا نفهمه ولا نستسيغه هو أن تقف بعض الزعامات العربيةالتي كانت تملأ الدنيا صياحاً ضد اسرائيل نفس الموقف ، وكأنهما ينطلقان من قاعدة واحدة .

بعد انقلاب يناير سنة ١٩٦٦ مباشرة ، ووضوح نوايـا الجنرال أورنزي ، وقعت قناعة لدى المسلمين وخصوصـاً في الشمال أن هناك خططاً معدة للقضاء عليهم وتنظيم مذابح على نطاق واسع لارغـام أعداد كبيرة منهم على الهجرة واكمال السيطرة المطلقة على الباقين ، وقد يكون في هذا التصويربعض المبالغة ، ولكن المهم ان هذا الشعور كان يسيطر على الزعماء الشماليين ، وكنا نسمعه ممن يتاح لهم فرصة القدوم للعـاصمة الفيدرالية حتى اصبحنا نحن أيضاً ننتظر المذابح المتوقعة .

ويبدو أن السياسيين الشماليين وكبار الضباط قد اتفقواعلى خطة ذات شعبتين : الأولى مجاراة أورنزي والقبول بكل اجراءاته الادارية لاقناعه بعدم ضرورة تنفيذ سياسةالاخضاع بالقوة ، والثانية الإعداد الطويل لحركة عسكرية مضادة للقضاء عليه ، وقد ثبت فيما بعد جدوى هذه الخطة وفعاليتها ، كما

بينت المهارة السياسية التي يتمتع بها هؤلاء الساسة الذين لايدل مظهرهم البسيط وازياؤهم على مثل هذا العمق والمقدرة .

في فترة المناورة بين أورنزي والشماليين ، طلب الديكتاتور تشكيل وفد برئاسة السيد قاسم ابراهيم حاكم الإقليم الشمالي ليطوف بالبلاد العربية يدعو للانقلاب الجديد ، وليقنع الزعماء العرب أن تلك الحركة كانت لأسباب سياسية داخلية محضة لا علاقة لها بالدين أو العلاقات العربية ، ولقد لقيت السيد قاسم بعد عودته من جولة واسعة في الشرق الأوسط ، وكان مما قاله لي: إن أكثر ما أساءه في تلك الرحلة ان أحد رؤساء الدول العربية قد أبدى شماتته في مصرع احمدو بللو ، وطلب منه أن ينقل تهانيه إلى الجنرال أورنزي على ثورته المباركة التي قضت على الرجعية والأقطاع ، ولم يكن بوسع قاسم ابراهيم في تلك المرحلة سوى أن يطوي حزنه في ضميره وأن ينقل للديكتاتور تلك الأنباء المفرحة بانطلاء حيلته على العرب .

وكادت تدمع عينا زعيم بورنيو الوقور عند هذا المقطع من الحديث ، وماتت الكلمات على شفتيه الراجفتين ، ولعل الخجل والمجاملة منعته أن يطلب مني حل هذا اللغز المعقد ، أو أن يقول لي كيف يمكن لأحد بعد الآن أن يطمئن لصداقة العرب أو يضحي بشيء فضلاً عن حياته من أجل قضاياهم ؟

وحين جاء الانقلاب المعاكس على أورنزي مرت العلاقات

بين تلك البلاد العربية ونايجيريا في مرحلة حرجة للغاية وأتيح للشماليين أن يعبروا عن رأيهم في نكران الجميل ، غير ان القصة كلها تبقى عنواناً للفوضى والاضطراب الشائع في البلاد العربية ، ذلك القلق الذي يلقي بظلاله القاتمة على العالم الإسلامي ويشوه معالم العلاقات بين العرب واخوانهم في العقيدة .

وبالانقلاب الجديد أعيدت كرامة الشهداء الأبطال مرة أخرى وأتيح لشعب الهوسا أن يغني أناشيده الحزينة في الرجل الذي بعث لهم ذات يوم ذكريات دان فوديو والسلطان بللو الكبير واحفادهم .

لقد ترجم لي صديقي من كانوا عند زيارتي للأقليم الشمالي في تلك الفترة مقاطع من أغنية شعبية شائعة يغنيها رعاة الفلاني وراء أبقارهم عند الأصيل، تقول: ( لقد افتقدنا سحب الغبار وصهيل الخيول التي كانت تصاحب مواكبك ، وغابت عن عيوننا تلك الابتسامة الوضيئة التي ملأتنا بالأمل والحياة ) .

# خاتمة

## نظرة على الوضع الراهن :

حين تتضافر القوى التي أشرنا إليها لافساح الطريق امام اسرائيل ، وحين تعمل الأجهزة الاسرائيلية القادرة لارساء جذورهـا في غيبة الاجهزة الغربية المماثلة أو على الأقل في وجودها الضعيف ، فإن النتيجة المنطقية هي انطلاق المغامرة الاسرائيلية على النحو الذي رأيناه .

ولقد أشرنا في أكثر من موضع إلى الفوائد الاقتصادية الكبيرة التي جنتها اسرائيل خلال السنوات العشر الماضية حين فتحت الأسواق الأفريقية الهائلة أمام تجارتها ، وحين أتاحت المجال للألوف امام خبرائها للعمل والتأثير على الاتجاهات السياسية لتلك الدول .

ومن المفيد أن نشير في اختصار للفوائد السياسية التي حققتها

في منطقة لانفعالي إذا قلنا أنها جزء لايتجزأ من العالم الإسلامي، مما يجعل الانتصارات الاسرائيلية فيها تبدو منجزات ضخمة تتحدى كل القيم والحقائق .

ان النتيجة الكبرى التي توصلت إليها اسرائيل في المجال السياسي انها نجحت في ( تحييد ) القارة الأفريقية وتجميد دور الدعم الايجابي الذي كانت مهيأة إليه إلى جانب العرب خلال مرحلة من الزمن تعتبر حاسمة في الصراع العربي-الاسرائيلي ، فمما لا شك فيه ان الفترة ما بين عدوان السويس عام ١٩٥٦ وحرب حزيران عام ١٩٦٧ كانت سني التحضير على جميع الجبهات للتوسع الهائل الذي طرأ على الكيان اليهودي في المنطقة العربية ، وليس من المصادفة ان تكون تلك المرحلة هي قمة الازدهار في العلاقات الاسرائيلية مع الدول النامية ، وإذا كانت تلك الدول قد التزمت في تلك المرحلة الحاسمة سياسة الحياد الممالىء لاسرائيل على أحسن التقديرات - مع العلم أن من بينها من اتخذ موقف الدعم الايجابي للعدو الصهيوني- فإن الدبلوماسية الاسرائيلية تكون قد سجلت نجاحاً منقطع النظير ، ونستطيع أن نتصور ذلك إذا تذكرنا دائماً أن المغامرة الاسرائيلية في أفريقيا لم تكن تحركاً معزولاً عن المعركة الأساسية بل أسلوباً مهماً من أساليبها الكثيرة التي تتحرك في توافق وانسجام لتحقيق غرض واحد هو تثبيت الكيان الاسرائيلي القائم وتهيئة الفرص أمامه للتوسع الدائم،

ليس عن طريق كسب أكثر ما يمكن من الصداقات، وتقليص أكثر ما يمكن من العداوات فحسب وهو هدف تسعى إليه كل دولة وإنما شلّ الصداقات التي يمكن أن تتحرك مع العرب في اللحظة الحاسمة .

وفي ضوء هذه الحقائق يمكن أن نواكب الخطر الاسرائيلي سواء في المراحل الأولى التي كانت أهدافه لا تزيد عن تجميد الدول الأفريقية ، أو في المراحل الأخيرة حين خيل إليهم أن بوسعهم تحريك تلك الدول لتمارس دوراً إيجابياً إلى صفهم ، ففي وقت مبكر من مراحل المغامرة كانت الدبلوماسية الاسرائيلية لا تطلب من الدول الأفريقية أكثر من الحياد بينها وبين العرب بل قد تحرضهم أحياناً على القيام بدور الوساطة حتى يكتشفوا بأنفسهم ان اسرائيل تسعى للسلم بينما لا يرضى العرب إلا بسحق اسرائيل والقاء شعبها في البحر ، ومما يشير لنجاح تلك السياسة المرحلية أن أكثر الدول الأفريقية كانت تقف الى صف اسرائيل في الأمم المتحدة أو تتغيب عن التصويت إذا أرادت مجاملة العرب ، وقد بقي هذا الموقف تقريباً إلى ما بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ ، أما على صعيد القارة نفسها فقد كانت هناك دائماً مجموعة من اصدقاء اسرائيل الخلّص الذين يتحركون في المؤتمرات الأقليمية لإحباط أي حركة مناوئة لاسرائيل، فبعد انعقاد مؤتمر كازبلانكا الأفريقي في عام ١٩٥٩ وصدور بيانه المشهور الذي ندد باسرائيل وحذر

من أخطارها في أفريقيا ، انبرت مجموعة من دول الكتلة الفرنسية تدافع عن اسرائيل وتشجب ذلك القرار .

وقد بقي هذا الموقف حتى قيام منظمة الوحدة الأفريقية ... ويكفي أن نذكر أن مؤتمر القمة الأفريقي المنعقد في اديس ابابا عام ١٩٦٣ لم يقبل بادراج قضية الشرق الأوسط على جدول أعماله ، مما اضطر المرحوم الرئيس عبد الناصر إلى اتخاذ موقف لين والاكتفاء بالحديث العابر عن القضية دون الالحاح على اتخاذ قرار بصددها ، ومع ان الكثيرين من الوطنيين العرب قد انتقدوا موقف عبد الناصر خلال ذلك الاجتماع إلا أنني أعتقد أنه لم يكن بوسعه أن يفعل غير ذلك . وربما لو حاول الزام المؤتمر بآرائه في تلك الفترة لنسف منظمة الوحدة الأفريقية من أساسها وألحق ضرراً أكبر بالمصلحة العربية – الأفريقية على المدى الطويل. ولقد أشرنا للعوامل الكثيرة التي كشفت المغامرة الاسرائيلية وأبدت نواياها الحقيقية أمام الأفريقيين وهي على الأغلب عوامل ذاتية ملازمة للنفسية الأفريقية المتطلعة لمزيد من الحرية، وملازمة للنفسية الاسرائيلية المتطلعة دوماً للمزيد من النهب والاستغلال . بالاضافة إلى التحركات العربية الأخيرة في الاتجاه الصحيح .

ومع اننا نتوقع ان تحاول اسرائيل جهدها للتمسك بوضعها الراهن على الأقل ، إن لم تحاول العودة لجميع المواقع التي تخلت عنها تحت الضغط الوطني الأفريقي ، إلا أن دور أفريقيا لن يكون حاسماً في المرحلة الراهنة لاسرائيل كما كان في ختام الستينات وخلال مرحلة التحضير للتوسع الكبير ولذلك فإن

بوسع اسرائيل أن تلعب لعبتها الآن ببرود وفي غير ما عجلة، ولا شك أن مما يساعد اسرائيل على هـذا الموقف أن مغامرتهـا الأفريقيـة كانت كلها أرباحاً بدون خسائر، ذلك أن اسرائيل لم تستثمر أموالاً كبيرة في البلدان الأفريقية وإنمـا كانت تعمل - على الأغلب - بأموال الغير سواء من خـلال الحكومات المحلية أو عن طريق المشاركة مع الدول والشركات الأوروبية والامريكية، أمـا المساعدات ( الرمزية ) التي كانت تقدمها لبعض الدول فكانت تسترجعها أضعافاً مضاعفة أرباحاً من المشاريع التي تحـال إلى الشركات الاسرائيلية، فبالرغم من النشاط الاسرائيلي الواسع في الإقليمين الغربي والشرقي من نايجيريا الذي كان يتمثل في شركات عديدة فان المعونات المالية والقروض الاسرائيلية لم تتجاوز مليوني جنيه استرليني حتى عام ١٩٦٥، وقد نشرت وزارة التنمية الاقتصادية النايجيرية في احصاء رسمي في عـام ١٩٦٣ عن المساعدات الأجنبية ومع أنها ذكرت اسمـاء ست عشرة دولة اجنبية فان اسم اسرائيل لم يرد بـين الدول التي تقدم مساعدات.

وقد يبدو غريباً أن تستهتر اسرائيل بالضغوط الاجماعية من جانب الدول الأفريقية بل بالرأي العام العالمي في مجموعه، وخصوصاً إذا تذكرنا حساسية اسرائيل في الماضي تجاه الرأي العام وحرصها البالغ على كسب الشعوب وتجنيد عواطفها وراء مخططاتها، غير أن النظرة الدانية في الموقف تضعنـا مرة أخرى أمام سياسة المراحل التي ظلت تنتهجها اسرائيل وهي

تنتقل من هضبة إلى أخرى في مسيرة العدوان والتوسع ، فبينما كانت المرحلة السابقة مرحلة تعتمد بقدر كبير على العطف الدولي أو التخدير الدولي فان المرحلة الراهنة تعتمد على اساليب القوة المجردة بحيث يصبح التأييد أو الاستنكار من جانب العالم قضية ثانوية لا تؤثر على الموقف العام ، وأن من نافلة القول أن نقرر أن السياسة الاسرائيلية لا تلتزم بقواعد جامدة تقوم على المبادىء والمثاليات أو بروابط ثابتة في معايير الصداقات والعداوات ، وسر نجاحها – حتى الآن – يكمن في أنها سياسة انتهازية مرنة تستفيد من كل فرصة متاحة بالاسلوب الذي يصلح لها دون أن تتنازل عن شيء من أهدافها المرسومة ، ولا شك أن متابعة مغامرتها الأفريقية من بدايتها حتى اليوم إنما يعكس الخطوط العامة لتلك السياسة .

ولعل مما يلقي الضوء على النظرة الاسرائيلية للموقف الراهن ازاء الدول الأجنبية بما فيها الدول الأفريقية ما أدلى به مؤخراً ابا ايبان وزير الخارجية الاسرائيلية ونشرته صحيفة الجارديان في عددها الاسبوعي بتاريخ ١٢ مايو ١٩٧٣ فقد جاء فيها قوله : « إن موقف أكثر الدول اصبح أقل عاطفية إزاءنا ولكن أكثر واقعية ، إن من الغريب أن يكون هدف سياستنا الخارجية الآن هو أن نجعل انفسنا اقل اعتماداً على السياسة الخارجية ! ولذلك فإن الاسرائيليين لا يدورون حول انفسهم ليسألوا كيف تنظر هذه الدولة أو تلك إلينا ، ولكن السؤال

الهام هو إلى أي مدى يمكن أن تعبر المصالح المشتركة عن نفسها مع تلك الدولة » وبعد أن عرض الوزير الاسرائيلي أمثلة على الدول التي تعارض سياسة اسرائيل ، ولكن ترتبط في الوقت نفسه معها بأقوى العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية انتهي للقول: «ان اسرائيل اصبحت الآن قوية بما فيه الكفاية لترغم الآخرين على أن يحسبوا حسابها بالرغم من عواطفهم ، ولذلك فمع أننا نحرص على أن ننال عطف الآخرين ، إلا أن هذه العواطف لا تهمنا كثيراً كما كانت في الماضي ».

وهذا القول يبين بما لا يدع مجالاً للشك ان اسرائيل باتت واثقة من نفسها وعلى استعداد لأن ( ترفس ) الرأي العام الدولي بعد أن ركبته طويلاً ، وأن تتنكر لكل الصداقات حين يكون موضوع الجدل المناطق العربية الهامة التي وقعت تحت يدها بعد عدوان حزيران . والتي يبدو أن اسرائيل باتت على استعداد لأن تتحدى العالم كله دون ان تفرط في شيء منها .

## عوامل النكسة ..... والجهد العربي :

بالرغم من ضخامة المؤامرة ودقة التخطيط ووفرة الممكنات المادية والبشرية ، فان الهجمة الصهيونية تنطوي على عيوب وتناقضات أساسية ، لا بد أن تنفجر بالرغم من كل الضمانات

والتحوطات ، كما أن التطبيق العملي أثبت أن النفسية اليهودية بما جبلت عليه من الأنانية والحقد والتعالي لا يمكن إلا أن تظهر – مع الزمن – على حقيقتها من وراء الأقنعة والأستار ، وحسب الوجود الاسرائيلي أنه يقوم على دعـــائم واهية من تزييف التاريخ وانكار الحقيقة ، وهي دعائم يرتبط وجودها ببقاء الجهل والسذاجة واستغلال عوامل الضعف البشري التي لا يمكن أن تبقى قائمة إلى ما لا نهاية ، خصوصاً وقد اندفعت للقارة تيارات جديدة سوف تساعد حتماً على توضيح الحقائق .

ويجب ألا يغرب عن البال أن المخطط الاسرائيلي بأجمعه يشكل ظاهرة تحد جزئية ضد كثير من الحقائق الراسخة في الكيان الأفريقي ، وهي حقائق لا بد أن تفرض نفسهـا في النهاية ، وهذه العوامل والعيوب يجب أن تعيها الأجهزة العربية وتعمل على استثمارها حتى تحشر الخطة اليهودية في اطار النكسة الراهنة ، ثم تعجل بمجيء النهاية الحاسمة حين تتحرر القـارة تحرراً كاملاً من هذا الأخطبوط ، ويزول هذا الحاجز المصطنع الذي بقي يحول دون التعاون الفعال بين منطقتين متجاورتين تربط بينهما وشائج الوجود والتراث والمصالح المشتركة، ويمكن تلخيص العوامل التي أشرنا إليها فيما يلي :

## أولاً : الشريك الاستعماري :

أن الدور الذي تمارسه اسرائيل في افريقيا دور تلتقي فيه

حضانة الاستعمار القديم ومولد الاستعمار الجديد ، فالقوى الاستعمارية هي التي تحالفت – كما وضح الآن – لتثبيت جذور اسرائيل بكل وسيلة ، وهي التي أمدتها بالعون والنصح لتلعب دوراً يتناسب مع مرحلة معينة ، ومن هذه الناحية فان اسرائيل تشكل خطراً فعلياً على استقرار وازدهار الشعوب الأفريقية ، وعلى الدول العربية وهي ذات تجربة مرة مع هذا الاستعمار الاستيطاني ، أن تنقل تجربتها للشعوب الأفريقية الحديثة ، التي لا تزال تتحكم فيها حساسيات شديدة ضد الاستعمار وكل ما من شأنه أن يذكرها بتلك الحقبة السوداء . ومع أننا اعترفنا أن هناك عوامل سلبية معينة تجعل بعض الزعامات الأفريقية تنظر لهذا الخطر باستهانة واستخفاف ، إلا أن هناك تياراً يعتد به قد ادرك هذه اللعبة من بدايتها ، وأن أي جهود واعية منظمة كفيلة بأن تساعد هذا التيار لتجعل منه القوة الحاسمة في المستقبل ، وحسبنا أن نذكر التبدل الواسع الذي طرأ على هذه النظرة منذ مؤتمر الدار البيضاء عام ١٩٦١ حتى مؤتمر القمة الأفريقي الأخير في أيار ١٩٧٣ ، لندرك أن هناك قابليات كبيرة أمام العرب إذا عرفوا وسائل التعامل معها .

## ثانياً : العنصري ..... حليف العنصريين :

لا يكره الأفريقي شيئاً كراهيته للتمييز العنصري ، لأنه

يمثل لديه كل المأساة الدامية التي مثلها الرجل الأبيض في القارة خلال قرون طويلة ، ولا تزال المجابهة محتدمة حتى اليوم بين الأفارقة وبين الجيوب الباقية من الغزوة الاوروبية في روديسيا وجنوب أفريقيا والممتلكات البرتغالية ، وهي معركة أساسية ستظل محوراً للتفكير الافريقي لوقت طويل ، ويجب على الدعاية العربية أن تساعد الشعوب الافريقية على ان ترى مكان اسرائيل البارز في هذا الاطار العنصري ، فاسرائيل في ذاتها دولة عنصرية تقوم على خرافة الشعب المختار ، وتقسيم البشر كلهم بين طبقة اليهود ( الممتازة ) وطبقة الجوييم أو الأمميين ( الوضيعة ) ، ولا ينحصر مكان اسرائيل في هذا الحيز العقيدي وإنما يتعداه للدور العملي النشط في مساندة حكم الاقليات البيضاء في أفريقيا ، ولا شك أنه كلما حميت المجابهة بين أفريقيا وتلك الأقليات ، كلما ضاقت فرص اسرائيل في المناورة والخداع ، وبرز التعاون العربي – الأفريقي كعنصر أساسي لنجاح تلك المجابهة ، ولن يكون بامكان أي زعيم افريقي – حينذاك – أن يناضل ضد العنصرية في مكان ويتعاون معها في مكان آخر .

**ثالثاً : داعية التوتر والخلاف :**

لقد ابرزت حوادث عديدة ان اسرائيل حاولت دائماً تحريك الخلافات التي تنشب بين الدول الأفريقية المتجاورة أو

بين الفئات الدينية أو القبلية في الدولة الواحدة ، ولا شك ان هذا الدور يتعدى الأغراض المادية والسياسية الظاهرة لاستثمار تلك الخلافات إلى غرض رئيسي آخر ، وهو احباط محاولات الوحدة الأفريقية وتعطيل التطور الطبيعي الرامي لاندماج القبائل والسلالات الأفريقية في دول حديثة مستقرة ، ولقد أشرنا في الصفحات السابقة إلى أدوار اسرائيل في المنازعات الافريقية ومحاولاتها المستمرة لتعميق اسباب النزاع .

غير ان المناخ المتوتر الذي ساد القارة بعيد الاستقلال ، يشهد الآن علائم الاستقرار ، كما أن الشعوب الافريقية صائرة حتماً لأن تستوعب الحقيقة البسيطة ، وهي ان تلك الخلافات مصطنعة وأن المستفيد منها هي تلك القوى التي يهمها تعويق المسيرة واستثمار التناقضات ، كما أن دور اسرائيل أخذ يظهر تدريجياً ، وأصبح وجودها – في نظر الكثيرين – يقترن بالدسائس والتوتر .

لقد ادركت يوغندا أخيراً أنها لا تحتاج لجيش ضخم ليس له من فائدة سوى أنه سوق لأسلحة اسرائيل ، وحقل تجربة لضباطها ، كما أدركت أن السودان لا يشكل أدنى خطر على استقلالها وأن الخطر الفعلي كان يعيش داخل أراضيها ، وهذا الدرس في اشكال مختلفة استوعبته تشاد وبورندي وسيصل حتماً إلى ضمير اثيوبيا في علاقاتها مع الصومال ، وإلى ضمير كل دولة أفريقية ، إن عاجلاً أو آجلاً .

ان باستطاعة الدول العربية ، ولا سيما الأعضاء في منظمة الوحدة الأفريقية القيام بدور أساسي من خلال تلك المنظمة الأقليمية لعلاج تلك الخلافات ، وايجاد حلول لها مع كشف الأصبع الاسرائيلي فيها باستمرار ، ويجب أن نذكر أن كل جهد يبذل في هذا الاتجاه سيساعد على تصفية سوق أساسية للاستغلال الاسرائيلي الاستعماري الذي لا يعيش إلا في مناخ القلق والتوتر .

رابعاً : كيان عدواني توسعي :

لقد نجحت اسرائيل لوقت طويل في تسويق نفسها كضحية للعدوان ، ولقد تضافرت الدعاية اليهودية النشطة ، مع التصرفات العربية الساذجة في تثبيت هذه الصورة لدى الأفريقيين والشعوب الحديثة ، غير أن ردة الفعل المرجوة قد وقعت أولاً بشكل خافت بعد العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، ثم بشكل واضح بعد عدوان عام ١٩٦٧ على الدول العربية المجاورة ، وأخذت الصورة الحقيقية لاسرائيل تبرز ككيان عدواني يقوم على الاغتصاب ويسعى دوماً للتوسع على حساب المناطق المتاخمة بدعم من الدول الكبيرة ، ولقد ساعد الأفريقيين على ادراك هذه الحقيقة تشكيل لجنة العشرة خلال مؤتمر القمة الأفريقي في عام ١٩٧١ ، التي ضمت رؤساء عشر دول أفريقية ، للبحث في ايجاد تسوية في الشرق الأوسط على أساس قرار

مجلس الامن لعام ١٩٦٧ ، إلا أن اتصالاتهم باسرائيل اقنعتهم بأنها تناور لكسب الوقت والاحتفاظ بمكاسب العدوان ، حتى سمعنا رجلاً مثل الرئيس سنجور الذي لا يعتبر في عداد أعداء اسرائيل يقول : انه اصبح خائب الأمل أمام عناد اسرائيل وتعصبها .

ولا شك أن هذا التبدل المهم قد أدى لأن تتخذ الدول الأفريقية موقفاً أشد صلابة في مؤتمر اديس ابابا في ايار الماضي حيث تعهدت ( باتخاذ خطوات ايجابية وفعالة لمساندة مصر وسائر الدول العربية إلى أن تتحرر جميع اراضيها ) .

ومع أننا لا نميل للاسراف في التفاؤل امام استمرار عوامل كثيرة يمكن أن تستفيد منها اسرائيل ، إلا أن مما لاشك فيه أن مجالاً واسعاً قد تهيأ للعرب ، ومن واجبهم أن يستفيدوا منه لمصلحتهم ومصلحة أفريقيا ، ولعل يوماً يأتي يتحقق فيه الأمل القديم بقيام تحالف عسكري بين أفريقيا والجامعة العربية ، ضد الحكم العنصري والاستعماري في الناحيتين .

خامساً : عدو الاسلام التقليدي :

لعلنا أشرنا بما فيه الكفاية لاصالة الوجود الإسلامي في أفريقيا وتأثيره الكبير على اتجاهات القسم الأكبر من شعوبها ، وعما نرجوه في المستقبل ، إذا سارت الأمور سيرها الطبيعي

المرتقب ، وتغلبت الشعوب الإسلامية على آفـــات التخلف والجهل ، لتمسك زمام أمورها بأيديهـــا ، كما اشرنا للوسائل التي يمكن أن تقودنا نحو هذا الاتجاه .

لقد اصابت اسرائيل حظاً من النجاح في (تسويق) نفسها على الفئات المسيحية ، بعد أن تحالفت تيارات متعددة ، للتعفية على العداوة الضارية التي شنها اليهود على المسيحية عبر قرون طويلة ... ، كما حاولت أن تجعل من قيـــام اسرائيل العدواني على انقاض الشعب العربي ، دليلاً على صدق المسيحية وصحة كتبهـــا المقدسة ، واستغلال اليهود للعواطف المسيحية لدى الشعوب المتخلفة بعد تاريخهم الحافل بالكيد والأذى ، مؤامرة ضخمة متعددة الجوانب والأهداف ، وهي كفيلة بتقويض الأسس التي تقوم عليها المسيحية ، إذا لم يتحرك دعاتها الخلّص لكبتها وحسم شرورها .

من حسن الحظ ان الإسلام بالرغم من محاولات من نوع آخر بقي مستعصياً على الاستغلال والافتراء ، وبقيت صلة اليهود بالمجتمعات الإسلامية – إن وجدت – صلة ترتبط بطبقة مستفيدة محدودة لا تمثل الاتجاهات الأصيلة ، ولا يرجى لهـــا أن تستمر طويلاً .

وكراهية اليهود والتصدي لهم هو جزء من العقيدة الإسلامية يضاعفها ويلهب أوارها ما يتكشف من مؤامراتهم ضد الشعب

العربي المسلم وضد الشعوب الأفريقية، وهنا يكمن فارق أساسي بين النظرة المسيحية الغامضة التي تقبل تفاسير مختلفة ، وبين النظرة الإسلامية الحاسمة التي لا تقبل التأويل ، وإذا كانت النبوءات المسيحية في حق اسرائيل تجد من يفسرها لصالح اليهود ، فان نبوءات القرآن الكريم ليس فيها إلا أزلية المعركة واستمرار النضال .

لقد تحدت اسرائيل هذه الحقيقة الضخمة ردحاً من الزمن، وخيل إليها أن باستطاعتها أن تمحوها بالمغريات حيناً ، وبالاستئصال حيناً آخر ، إلا انها اقتنعت منذ وقت ليس بالقصير ، ولعل الحوادث الراهنة جاءت لتزيدها اقتناعاً أن هذه المحاولات الطموحة لن تصل بها لشيء وان حقائق التراث وروابط التاريخ ستفرض نفسها على الوجود الضحل العابر .

لقد دعونا ولا نزال ندعو لتعاون شامل مع الجماعات والشعوب الإسلامية في ميادين الثقافة ومجالات التجارة ومشاريع التنمية ، ولا نخجل بأن نطالب بأعطائها الأولوية المطلقة من جهودنا واهتمامنا ، وهو أمر لا ينبغي أن نتردد فيه لأن الزعماء الوطنيين – حتى غير المسلمين – يعترفون بأن هذه العلاقة أمر ثابت أصيل ، ويجب أن يستفاد منها لصالح الطرفين .

ولذلك فان أي جهد عربي منظم في هذا الاتجاه ، هو خدمة جلى لأفريقيا بشكل عام ، وسلاح حاسم في المجابهة المفروضة علينا ضد اسرائيل على التراب الأفريقي .

سادساً : اسطورة المعونات الاسرائيلية :

لقد أشرنا في سياق البحث إلى تطور اسطورة المعونات الاسرائيلية للدول الأفريقية ، والأسباب التي هيأت لقبولها في البداية ، ثم العوامل والتجارب التي وضعت تلك المعونات في إطارها الحقيقي مجرداً عن المبالغات والادعاءات ، ولا شك أن تجارب السنين الأخيرة قد أفقدت هذه الصلات بريقها القديم – بل توشك أن تسوقها في وضعها الطبيعي ، كغزوة اقتصادية وسياسية مجردة لا تستهدف شيئاً سوى امتصاص خيرات الشعوب الأفريقية ، وتقسيمها بين اسرائيل وشركائها الظاهرين والمستترين .

لقد وضح الآن أن المشاريع الاسرائيلية كانت تحكمها الرغبة في الاستثمار العاجل دون أن تضيف قوة حقيقية لاقتصاديات الدول الأفريقية أو تقربها خطوة نحو الاكتفاء الذاتي ، بل على العكس تجعلها دوماً معتمدة على معونات

الآخرين ، ووضح أن مزايا ( المعجزة ) الاسرائيلية ، بما فيها تلك التي سيقت في حملات دعـــائية طنانة ، كالتعاونيات والمستوطنات لا تصلح في صورتها الاسرائيلية للبيئة الأفريقية ، وأن موارد مالية كبيرة قد استنفذت في هذه التجارب الفاشلة ، دون أن تفيد شيئاً بالاضافة إلى الخسائر الاجتماعية والأخلاقية التي صاحبتها وجاءت معها .

وفشل التجربة الاسرائيلية في هذا الميدان الاساسي ، ظاهرة مهمة وقد يكون هو الباب الذي تخرج منه اسرائيل كما دخلت قبل عشر سنين .

غير أن على الدول العربية ، ولا سيما الدول النفطية أن تتعاون بصورة أكثر ايجابية في سد النقص وملء الفراغ ، وان تعتبر الجناح الأفريقي ميداناً رئيسياً للمجابهة الاقتصادية مع اسرائيل .

إننا نأمل أن نرى شركات عربية ـ أفريقية تقوم لاستثمار الثروات الأفريقية ، وتمويل مشاريع التنمية التي يمكن أن تعود بفائدة عظمى على الفريقين ، ونأمل أن تبادر الأجهزة المختصة في منظمة الوحدة الأفريقية والجامعة العربية بدراسة أسباب التعاون الاقتصادي بين دول المنظمتين ، حتى تغلق

المجال في وجه اسرائيل للأبد ، وحتى تضع هذه المنطقة نفسها على طريق الاستقلال الحقيقي ، وتأخذ مصائرها بأيديهـا في مسيرة الرخاء والاستقرار .

# فهرس

صفحة



خاتمة